مكتبة
Telegram
Network
2020

ثلاثة على الطريق

تونا كيرميتشي

ترجمة : ندى نادر

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل كتاب:

(ثلاثة على الطريق)

ل «تونا كيرميتشي»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق

محمد بدوي - مصر

ثلاثة على الطريق

رواية من تركيا تونا كيرميتشي

ترجمة: ندى نادر تحرير: إيزيس عاشور مراجعة لغوية: فاطمة محمود

الطبعة الأولى: نوفمبر 2018 رقم الإيداع: 9265/ 2018 الترقيم الدولي: 9789773194055

الغلاف: غدير الوحش

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 60شارع قصر العيني 11451 - - القاهرة ت 27954529 - 27921943 فاكس 27947566 www.alarabipublishing.com.eg

إلى "چان"

’’ تمُر السنوات سريعًا كعدو الأرانب وأنا أحمل بين ذراعيّ زهرة العُمر؛ حبيبتي الأولى في هذا العالم بينما بدأت كل ساعات المدينة في الدق والتناغم لا تدع الوقت يخدعك فلا يُمكنك قهره ‘‘ - الشاعر "ويستن هيو أودن"

الجزء الأول

"يعقوب"

الفصل الأول

بعد ستة أشهر، سيتم "يعقوب" عامه الخامس والعشرين، هذا ما لم تقم الساعة المذكورة في الكتب السماوية الأربعة قريبًا. وكبقية أبناء بلدته، لم يُغادر "يعقوب" بلده من قبل. فعندما سمع صوت الطيَّار بنبرته الخنفاء للمرة الأولى وهو يُعلن عن وجودهم فوق بلغاريا، انتابه شعور غريب انعكس على معدته فأصابها بالحُرقة. وضع جبينه على النافذة، محاولًا النظر إلى ما يوجد بالأسفل بقدر ما يسمح له جناح الطائرة الإيرباص الضخم. حاول أن يُلقي نظرة سريعة على الأرض التي تضم أناسًا ذوي لغة ودين مختلفين. لم يكن الارتفاع وحده الذي أعاقه عن النظر، ولكن ظُلمة الليل أيضًا التي لم تنكشف سوى للحظاتٍ قليلةٍ مع ومضات الضوء المنبعثة من الغرب، وبفضل هذه الظُلمة، لم يتمكن من رؤية أي شيء سوى انعكاسه؛ فابتسم إلى صورة الطالب المُنعكسة أمامه في النافذة التي تحولت إلى مرآة بفضل الظُلمة، ذلك الطالب ذو النظارة والأنف المُدبب والشعر الأسود المُجعد الذي بدأ يتحول إلى اللون الرمادي، ولأسبابٍ أأمل في أن تنكشف فيما بعد، كان يحلم بالبلدان الأجنبية منذ أن كان طفلًا؛ فاعتاد على رؤية نفسه في بلدٍ يتكلم فيه الناس بكلمات مختلفة. فكان يقف مفتونًا بالأرصفة الواسعة، ويتأمل أبراج الأجراس الطويلة بإعجاب، وعلى الرغم من عدم قدرته على تحديد في أي بلد هو الآن؛ فقد انتابه شعور غامض بأنها ألمانيا؛ بسبب ذلك الطراز الذي يُميز العمارة الألمانية.

فقد بلغت الكاتدرائية القوطية عنان السماء، وبدأت المباني المنتشرة في الشوارع تتخذ هيئة أبنية مدينة "ڤايمار " الألمانية.

ولكنني أعرف كيف استطاعت ذاكرته أن تحتفظ بكل هذه الصور؛ فالسر يكمُن في عمه المُقيم بألمانيا، والذي اعتاد إرسال الكروت البريدية الجميلة له.

إن أغرب شيء بخصوص أحلامه أنها دائمًا تخدعه؛ ففي كل مرة يواجه فيها هذه الأبراج العظيمة، كان يحاول إقناع نفسه بأنها ليست مجرد حلم، وأنه أخيرًا قد نجح وغادر بلاده، وعندما يستيقظ من أحلامه وتخيلاته الممزوجة بالفرح والحُزن أثناء التجول في الشوارع كان يتعجَّب، ويسأل نفسه إلى متى ستظل تنخدع وتظن أنه واقع وتفيق لتجده مُجرد حُلم؟ وإذا أردنا التعرُّف على "يعقوب" فلمَ لا أخبركم عن غرفته؟ كانت غرفة صغيرة ذات موقد في الطابق الأرضي بمبنى قديم بحي "أسكدار" التركي، وكانت تطُل على الشارع، ومع كل صباح، كانت أشعة الشمس التي تعبُر المنازل ذات الطابقين المُصطفة على جانبي الشارع كلوحة فارسية تملأ غرفته برائحة الأطعمة المُنبعثة من المطبخ. ولسببٍ ما، كانت تُشعره هذه الروائح بالحُزن. كان لديه دولاب للكتب وكُتيب للخرائط، وعلى مكتبه، كان يوجد مُجسَّم للكرة الأرضية به انبعاج بدءًا من الجزائر وحتى "جزر فوكلاند". لطالما أحب النظر إليه وحفظ عواصم البلاد وخطوط العرض.

كان والده بعمر الستين، رجلًا هادئًا، قليل الابتسام ودائمًا ما يجلس في الغرفة المفتوحة على الحديقة؛ انتظارًا للمرضى الذين لن يصلوا. وبمرور الوقت، نمت لديه مشاعر باردة تجاه وظيفته التي لم تجلب له أي أموال، وعاش على أمل لم يتحقق وهو السفر إلى الخارج.

وفي أوقات انكساره، اعتاد أبوه أن يقول "عليَّ التفاوض مع الحياة، فقد دفعني أبي بقوة لأصبح عاملًا مثله في الوقت الذي تمنيت فيه أن أكون "كابتن". بحَّارًا عظيمًا، مغامرًا. ولكن في النهاية اتفقنا على الطب. لذلك لم يكن أي منا راضيًا. كرَّست حياتي لهذه المهنة المُقدسة التي لم أرتبط بها يومًا. والنتيجة أنني والحياة لم نلتقِ أبدًا".

وكأنها القوة الغامضة هي التي منعته من السفر ومغادرة البلاد. فلم يكن لديه الوقت والمال اللازمين للسفر. وعلى الرغم من ذلك، كان بإمكان والدته توفير متطلبات السفر، تلك التي تحب أن تذهب في نهاية كل أسبوع لمشاهدة الأفلام مع صديقاتها من مدرسة التمريض (تلك المدرسة التي ترأستها لفترة ثم تركت المنصب لزميلة أصغر بسبب عدم امتلاكها ما يكفي من القدرات القيادية).

أرادت والدته وصديقتها المُقربة "نجلا" الذهاب لبلد معشوقهما "مارتشيللو ماستروياني" فانتهى بهما المطاف إلى الذهاب للقنصلية الإيطالية بمدخراتهما ذات يومٍ حارٍ بشهر أغسطس. وعلى الرغم من رغبتهما الشديدة في رؤية نافورة "تريفي"، فإن هذا لم يكن كافيًا لمنع "نجلا" من الإغماء خلال الخطوات الشاقة التي تسبق الحصول على التأشيرة، وبسبب تصريح المسؤولين القنصليين بأن هناك مشاكلات أمنية تعوق حصولهما على التأشيرة، شعرتا بالخزي، وقررتا عدم الذهاب إلى البلد الذي يحتقرهما.

ولم تتأثر والدة "يعقوب" بذلك الرفض بل تقبَّلته وعبَّرت عن ذلك ل"يعقوب"، بينما كانت تُجهز الفاصوليا الخضراء لوجبة العشاء قائلة: "لا يهم. فهناك الكثير من الأماكن التي يُمكننا زيارتها في بلدنا. عليَّ توفير المال للذهاب إلى المنتجعات الطبية في "كيزيلجاحمام" للاهتمام بشأن كتفي الذي يزداد ألمه بمرور الأيام".

لم تتوقف محاولات الأسرة للسفر عند تجربة والدتهم، فهناك تجربة "يوسف" الشقيق الذي يصغُر "يعقوب" بأربعة أعوام، والتي أثرت في الأسرة عظيم التأثير، فقد استخدم "يوسف" الكرة الأرضية في لعبة كرة السلة بعد أن أحدث بها انبعاجًا لتصلح لذلك. وقبل عدة سنوات، كانت هناك فتاة تُدعى "كاثي" تقيم بمنزلهم خلال أعياد الاستقلال وأعياد الطفل، وبذلك نشأت علاقة صداقة قوية بين "يوسف" و"كاثي" وحرصا على مقابلة بعضهما بعضًا لمدة أربع سنوات، حيث ادَّخرت "كاثي" ما يكفي من المال لزيارته.

وعلى الرغم من أنها كانت قليلة الوزن وجسدها مُمتلئ بالنمش، فلم يؤثر ذلك على مشاعر "يوسف" تجاهها. فبعد أن زارا المساجد والمتاحف، قام بتقبيلها سرًا على ضفاف مضيق البوسفور ثم تركته وغادرت، ومن ثم قرر "يوسف" عدم البقاء في تركيا دقيقة واحدة. حرص على متابعة الإجراءات اللازمة لقنصليات بريطانيا العظمى لتحقيق رغبته في السفر، ولكن والده أوضح له أن هناك أزمة اقتصادية كبرى على وشك الحدوث، مما يجعله غير قادر على إعطائه المال الذي وعده به.

وكأن سفر الأسرة إلى الخارج أصبح من المُحرَّمات فلم يسعَ إليه أحد مرة أخرى. فتلاشت في الأفق رغباتهم الصغيرة للسفر كما تتلاشى مآذن "مسجد السليمية" في الحدود اليونانية.

ونتيجة لذلك، فإن رحلة "يعقوب" إلى الخارج خلقت مشاعر متناقضة في أرجاء المنزل؛ فكان هناك شعور بالغيرة المُمتزجة بالحُب والفرح. فربَّت والده على كتفه وأخبره بأنه سيصبح أول واحد من نسله يستطيع عبور المُحيط، وحرصت والدته على مُتابعة أخبار الطقس، ورفع الصوت حين يأتي الدور على أخبار الطقس الأوروبي. وحتى شقيقه الذي لم يتحدث إليه لعدة أسابيع بسبب الكرة الأرضية التي خرقها، فاجأه وأحضر له قاموسًا يساعده على الترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة التركية.

كان "يعقوب" مُتجهًا إلى فرنسا، وعلى ما يبدو أن السبب وراء ذلك هو اختياره للغة الفرنسية كلغة أجنبية في استمارة نادي السينما التي ملأها بالجامعة. ومن ثم، أرسلت القنصلية الفرنسية مُذكرة إلى المدرسة فتلقاها أحد الأساتذة ذو النية الحسنة وأخذها على محمل الجد إلى أن التقى "يعقوب"، وأخبره بأن تم اختياره للسفر؛ لأنه الطالب الوحيد الذي بإمكانه التحدث باللغة الفرنسية. وهو ما أفزع ذلك المُراهق الذي لم يمتلك أي خبرات سابقة عن السفر خارج البلاد؛ فقد تخرَّج "يعقوب" في مدرسة حكومية بالكاد تُدرِّس اللغة التركية، ولم يكن لديه أي ثقة في لغته الفرنسية التي تعلمها خلال دورة أخذها ولم يُكملها بسبب عدم قدرته على تحمل الرسوم. وبناءً على التعليمات التي أعطاها سكرتير القنصلية، فإن الطلاب الأجانب سيتجهون إلى باريس، ومن ثم التوجه إلى مدينة "لاروشيل" على المحيط، وذلك لحضور مهرجان السينما الذي سيستغرق ثلاثة أسابيع وكتابة انطباعاتهم، وسيتم تمويل جميع النفقات باستثناء تذكرة الطائرة من قِبل الشركة التي قدمت المنحة. استطاع "يعقوب" أن يدِّخر كمية قليلة من المال عن طريق عمله بالصيف خلال العامين الماضيين.

اتجه "يعقوب" إلى مكتبة الجامعة وبحث عن خريطة فرنسا، وألقى نظرة على مدينة باريس ثم أطال النظر إلى مدينة "لاروشيل"، تلك النقطة الصغيرة الواقعة على الساحل. ولكن ما وجده لم يخبره الكثير.

الفصل الثاني

كان لـ "يعقوب" علاقة صداقة من الصعب وصفها- على الرغم من أن صعوبة الوصف واقعة الآن بأكملها على عاتقي- مع امرأة تُدعى "ليلى" وتكبره بثلاثة عشر عامًا. فقد مرَّ عام ونصف العام منذ أن التقى تلك المرأة للمرة الأولى، وما جعل تلك العلاقة صعبة الوصف هو أن شعوره تجاهها خلال تلك الفترة كان مُبهمًا، فأحيانًا يشعر بأنه مرتبط بها ارتباطًا عاطفيًّا وأحيانًا يتملكه اليأس. وقد ساعدها شعرها الكستنائي وأعينها الضبابية- التي أعطت وجهها شكلًا رقيقًا- على وصفها جميلة. ولكن ما أجج عاطفة "يعقوب" تجاهها هو ذلك اللُطف الذي وجده منها.

عاشت "ليلى" مع ابنها البالغ من العمر سبع سنوات في منزل مُكتظ بالأثاث والكتب في شارع زينته أشجار الليمون، وعندما ذهب "يعقوب" لزيارتها قبل مغادرته بيوم، وجدها تجهز الغداء لطفلها، وتسببت ربطة شعرها وتحركاتها أمام الفرن في أن تبدو كثعلب يبحث عن طريقه في ليلة ظلماء.

كانت "ليلى" ترتدي بلوزة بيضاء ذات أشرطة على الكتف وبنطلونًا صيفيًا برتقالي اللون، وهو ما راق ل"يعقوب" كثيرًا. صعد ابنها- الذي يُشبه أباه كثيرًا- السُلم ليلعب مع رفاقه بعد تناول طعامه دون أن يتفوَّه بكلمة واحدة لأي منهما. لم يستطع "يعقوب" إيجاد طريقة للتواصل مع الطفل. أطفأت "ليلى" سيجارتها تحت الصنبور، وفكت شعرها وجلست بجوار "يعقوب".

قالت "ليلى" وهي تمدد رجليها ناحية الفرن وتأخذ نفسًا عميقًا:

- ذهبت إلى فرنسا من قبل. بعد أن تمت الموافقة على طلب لجوئنا، تمكنا من رؤية باريس خلال العطلة الأسبوعية. ليتني أتفرغ للسفر مرة أخرى. تفادينا الوقوع في حوادث كثيرة بسبب قيادة "خليل" البشعة. أعتقد أن الفرنسيين مغرورون قليلًا، فنادرًا ما كانوا يخبروننا عن الاتجاهات، ولكنها بلد جميل جدًّا. عليك زيارة البرج و"حديقة لوكسمبورج"، وذهبنا كذلك إلى... ماذا كانت تُسمى؟

شعر "يعقوب" بالضيق بسبب حكايات "ليلى" عن زوجها، وعلى الرغم من أنها أخبرته أكثر من مرة ألا يشعر بالذنب حيال انفصالهما، فإنه لا يزال يشعر بالذنب.

لا يوجد عليه أي لوم حتى وإن تزامن انفصالهما مع بداية علاقة "يعقوب" بها. ولكن مُجرد التفكير في أنه كان جزءًا من ذلك جعله يشعر بالفخر. لم يُزعجه شيء من سماع تلك القصص سوى أنه كان مُعجبًا بشخصية "خليل"، فقد عرف أنهم اضطروا إلى مغادرة بلادهم والسفر إلى ألمانيا بسبب الأوضاع السياسية عام 1980، ولم تُكِن "ليلى" أي مشاعر عداوة لزوجها السابق. فلم تقم بإزالة صوره بل وضعتها في دولاب زجاجي بغرفة ابنها، وهو الأمر الذي أدهش "يعقوب". نظر "يعقوب" إلى الصور وشعر بالغيرة من ذلك الشاب المماثل لعمره، والواقف بجوار "ليلى" مُخاطبًا الحشد المُجتمِع في الميدان.

وفي مساء اليوم التالي، أخذته "ليلى" إلى محطة الباصات المتجهة إلى المطار، وبسبب قلة الأموال، قاما بشراء التذكرة من شركة طيران صغيرة عادة ما تقلع طائراتها في منتصف الليل. قبَّلت "ليلى" الشاب من أنفه وهو ما أزعجه، ولكنها سرعان ما ابتسمت فبدا وجهها كباقة من الزهور، وأخبرته أن يأخذ حذره من الفتيات الباريسيات، وأن يتصل بها لحظة وصوله إلى مكان إقامته ثم غادرت. فظل "يعقوب" مُحدقًا في السيارة المُهترئة إلى أن اختفت وسط زحام الليل.

كان "يعقوب" يذهب إلى المطار عند هروبه من المدرسة بدلًا من الذهاب إلى السينما أو المعارض، حيث وجد مُتعة في مشاهدة الطائرات وهي تُقلع. لم تكن سعادته لأنها مجرد طيور معدنية سبَّبت الحرج ل"إسحاق نيوتن" فقط، بل لمعرفته أنه في غضون ساعاتٍ قليلةٍ ستُصبح برلين وباريس أو "أولان باتور" تحت جناحي ذلك العملاق؛ فكان المطار هو وسيلة الربط بين ما يراه بأم عينه وما يراه في التليفزيون، فتصبح آخر طائرة كالخيال في الأفق وعادة ما تتزامن مع آخر نفس في سيجارته الذي يُخبره أنه حان الوقت للرحيل.

وأخذ يتساءل "كيف لي أن أتأكد من أن الأماكن التي لم أرها من قبل موجودة بالفعل؟ فإذا لم أستشعر وجود سور الصين العظيم أو قباب الإسكيمو بجميع حواسي، كيف لي أن أصدق وجودها؟ فإن لم أقابلهم بنفسي، كيف سيصبح وجود "فيدل كاسترو" وال"دالاي لاما" أمرًا حقيقيًّا؟".

وعندما خطا إلى صالة السفر الخارجي التي اعتاد رؤيتها من بعيد، بدأت رأسه تدور؛ فكانت الشكوك والمخاوف تساوره وتخبره أنه مُجرد حلم سخيف، وأنه لن يصل إلى الطائرة كعادته.

ربما تحدث مشكلة في اللحظة الأخيرة، ويضطر لقضاء ليلة أخرى على الملاءات التي زودته بها والدته. فبدت له فكرة وجوده في بيت شباب بباريس في اليوم التالي غير منطقية، ولكنه وضع آلية للدفاع عن نفسه ضد خيبة أمل الجميع؛ أخبرهم بأن تلك الرحلة هي تكلفة من الجامعة له وأنه لم يكن يرغب فيها، ولكن عندما سأله أحد الضباط عما إذا كان ذاهبًا لفرنسا لمشاهدة مباراة كرة قدم، لم يستطع الرد. فلم يكن مُهتمًا بكرة القدم لدرجة أنه نسي أن كأس العالم سيُقام هذا العام بفرنسا.

فقد "يعقوب" الأمل في رؤية أحد البلغاريين يلوّح له فوجَّه نظره داخل الطائرة. رأى زوجين يقرآن جريدة "لوفيجارو"، كما رأى مجموعة من المسافرين الفرنسيين يعبثون. وفي الجهة الأخرى، وجد فتاة ذات شعر أخضر اللون نائمة، وحرصت المضيفة الآسيوية على الترحيب بالركاب على الجانبين بابتسامة لطيفة. أخرج "يعقوب" من حقيبته خريطة قديمة لباريس أعطتها له "ليلى" فأخذ يدرسها على مدار الأيام القليلة السابقة، ولكن بسبب نسيانها لفترة طويلة في الدُرج فأصبح من الصعب تحديد ملامح المدينة، وقد كُتب العديد من الملاحظات على الشوارع والكباري الموجودة بالخريطة التي فقدت معناها منذ وقت طويل. ومن الواضح أن الملاحظات المكتوبة على الخريطة تنتمي ل"خليل" بلا شك.

وتذكر "يعقوب" حديث "ليلى" معه:

"- أينما وُجدت خريطة، فلا بُدَّ من وجود مدينة. فما يجعلنا نؤمن بوجود مدينة هو الخريطة. أليس كذلك؟

- نعم. أعتقد أنه لن يذهب أحد إلى مثل هذه المسافات ليخدعنا.

- إنك تنظر إلى الخريطة وتتخيل نفسك موجودًا في أحد الأماكن بين تلك الخطوط. فكأنما وضعك أحدهم هناك بجرة قلم، وتشعر وكأنك "قوبلاي خان" ناظرًا إلى الخريطة الموضوعة أمامه بواسطة "ماركو بولو". يمتلك رسَّام الخرائط سُلطات لا تمتلكها أنت حتى ولو كنت إمبراطورًا؛ ففي النهاية، هو مَن يستطيع تحديد الشكل الذي ستبدو عليه المدينة. يمكنك ذبح مَن يعيشون عليها، وسرقة ونهب كل ما تراه في المدينة، ولكن ما دام هناك خريطة ستبقى المدينة باقية إلى الأبد، بينما كنت في المنفى، ساعدتني الخريطة على الإيمان بأن إسطنبول لا تزال موجودة. حتى عند مشاهدتي لواحدة من تلك الأفلام السيئة التي تهدف إلى جعل العُمال الأتراك الذين يعيشون بالخارج ذوي طبيعة شرسة، كنت ألجأ إلى الخريطة وأبحث عن مصدر الأغنية، فيجعلني ذلك أشعر بتحسن كبير".

تسبَّبت خرائط باريس في حُزن "يعقوب" قليلًا؛ فقد ذكر والده ذات مرة وجود خريطة لباريس كانت تزين الحائط خلال فترة شبابه. مرَّ ثلاثون عامًا منذ أن كان طالبًا بكلية الطب يقضي الليالي في التحديق في الخريطة وحفظها من دون فائدة، فأخذ يحفظ أي شارع يؤدي إلى أي ميدان، وأي الجسور توجد جنبًا إلى جنب، كما قام بتحديد المقاهي التي يتردد عليها الفنانون بصفة دائمة، على أمل زيارتها يومًا ما، وكذلك حدد الشوارع التي صُورت فيها الأفلام الشهيرة. فكانت تلك الخريطة مثالية إذا كنت تريد أن تعرف أين يأخذ "أندريه بريتون" قهوته، وفي أي شارع اعتادت "جين سيبيرج" بيع الجرائد. فتذكر مقولة والده ذات مرة بأنه لو ذهب إلى باريس، لوجد نفسه حافظًا إياها عن ظهر قلب، ولكن عنكبوت القدر نصبت عُشها حول بيت ذلك الرجل الفقير فأحاله دون السفر إلى باريس أو غيرها.

والآن هو مَن استطاع هزيمة القدر؛ فالتفكير في الأمر بهذه الطريقة ملأه بالفرح. شعر وكأنه رائد، بطل يقف في مواجهة المصير، وبكل ما لدى الطائرة من قوة، اندفعت تاركة وراءها بلاد الأناضول.

وكان "يعقوب" متجهًا نحو المحيط.

الفصل الثالث

لم تبهر باريس "يعقوب" كثيرًا التي بدت أضواؤها مألوفة بالنسبة له، فقد اعتقد أن إسطنبول كانت أكثر جمالًا عندما ألقى عليها النظرة الأخيرة من نافذة الطائرة. أخذت عيناه تبحثان عن تلك الجسور العملاقة والمساجد اللامعة التي تزين السماء مثلما اعتاد في بلده، وعندما فشل في إيجاد أي منها، وجد نفسه متفاجئًا، ولكنه كان فخورًا ببلده أيضًا.

وعندها، حدَّثه انعكاسه على النافذة قائلًا:

"لا تحكُم مُبكرًا، فقد أحببت إسطنبول أكثر؛ لأنك وصلت باريس ليلًا".

"لماذا؟".

"لأن الأمر أشبه بامرأة رائعة تخبئ وجهها خلف حجاب، فقد أخبأت باريس ملامحها خلف الظلام. فجعلتك الأضواء التي تضيء الجسور والمساجد ترى ما تريد، ولو كنت أتيت إلى هنا في الصباح لرأيتها على طبيعتها. فعلتها ذات مرة منذ ثلاثة أعوام، وقمت برحلة صباحية إلى مدينة "إزمير" أتتذكر ذلك؟".

"نعم". قالها "يعقوب" وهو غير متأكد.

"برأيك، كيف بدت إسطنبول أثناء إقلاع الطائرة؟".

"بشعة. حيث بدت البلدة بأكملها قاسية متحجرة كحقل خرساني".

"لذلك لا تتعجَّل قرارك، وانتظر حتى يأتي الصباح لتقارنها بباريس".

أعتقد أن اللعنة التي حلت على عائلة "يعقوب" دون السفر إلى الخارج قد أثرت على وجهة نظره؛ فجعلته ينبذ العالم في ذهنه مثلما سيفعل العالم، وينبذه حين تسنح له الفرصة. وعندها، سيحاول أن يصف رد فعله بطريقة فكرية، ويأتي بمنطق يعتمد على نوع من أنواع القومية؛ فكان يعتقد أن العيش خارج الوطن وقراءة الكتابات والصُحف التي تدوِّن الحضارة الغربية خيانة، وعلى الرغم من صغر سنه، فإنه كان واسع الاطلاع بطريقة تجعله يُعبِّر عن رأيه بوضوح. كانت "ليلى" الشخص الوحيد الذي لم يتحدث معه "يعقوب" بهذا الشأن. ليس لأنه كان خائفًا من تجربتها فقط، ولكن لأنه لم يكن مستعدًا للدخول في مقارنة مع "خليل" بخصوص هذا الشأن، وما زال "يعقوب" لا يستطع التحكُّم في ارتفاع مُعدَّل ضربات قلبه عند هبوط الطائرة ببطء. حتى مصابيح السيارات الأمامية التي رآها بمنظور عين الطائر أثرت عليه، فكانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها عيناه سيارات أجنبية بسائقين أجانب في بلد أجنبي.

ألقى "يعقوب" نظرة على الفتاة الطائشة ذات الشعر الأخضر؛ فوجد لديها الأوراق نفسها التي يحملها، ووجد أنها تنظر إليهم نظرة مُرتبكة.

ربت "يعقوب" على كتف الفتاة، بينما كانا يقتربان من مراجعة جواز السفر الخاص بهما. فأخبرته الفتاة أن سبب حضورها هو ذلك المهرجان أيضًا، ولكنها لا تعلم كيف سيذهبان لمقر الاستضافة في حين أن آخر باص قد غادر بالفعل منذ قليل. انتظر "يعقوب" والفتاة عند مخرج مطار "شارل ديجول" وظلًّا يحدقان في ظلمة الليل بأعين يائسة. كانت هذه هي المرة الثانية التي تزور فيها الفتاة باريس. كانت ترتدي جاكيت جلدي أسود، و"تيشيرت" وبنطلونًا أحمر ضيقًا، وحذاءً عسكريًّا.

نُقشت على حقيبتها- التي عفا عليها الزمن وغير لونها - علامة الفوضى (حرف الA محاط بدائرة ذات قطر ممدود)، وهو رمز شهير للاسلطوية الأوروبية.

قالت الفتاة ل"يعقوب":

- لا أعتقد أن هناك أي وسائل مواصلات ستأتي في هذا الوقت المُتأخر من الليل. ولكن علينا أن ننتظر ونسأل.

كان المطار يبدو مهجورًا في تلك الساعة المُتأخرة التي لم يشعر فيها الزوار الأجانب بأي شيء من الراحة. ولكنهم لمحوا سيارة ذات حقيبة مفتوحة موجودة بموقف السيارات المُظلم، وكان الرجال الواقفون أمامها يتحدثون باللغة التركية.

بعدها، سمعوا أحد الرجال يقول للآخر:

- لعنة الله عليك. أتركك لمدة ثلاثة أيام بمفردك فأجد هذه الفوضى عندما أعود!

- "حسن" يا أخي، لا تنزعج هكذا!

- ولماذا هذا كله؟ إنك تُفسد كل شيء من أجل أجنبيتين، وستضحك علينا باريس كلها، وسأعلقك من شعرك هذا!

فردَّ الشخص الثالث وهو يبتسم:

- ليس للفتيات علاقة بذلك يا أخي. لا تقلق، كل شيء سيُصبح على ما يُرام.

كانوا جميعهم يرتدون قمصانًا بيضاء تلمع في ظلمة الليل. أراد "يعقوب" الابتعاد ولكن قبل أن يتمكَّن من ذلك، كانت الفتاة قد اتجهت بالفعل نحو الرجال لتسألهم كيف الذهاب إلى وسط المدينة في منتصف الليل.

وجد "يعقوب" نفسه بصحبة ثلاثة رجال داكني البشرة ذوي قمصان بيضاء وفتاة ذات شعر أخضر في سيارة على الطريق السريع. اعتقد أنه لن يصل إلى نزل الطلاب أبدًا. كانت أضواء الضواحي تتدفق على الجانبين. وفي السيارة، كان "إبراهيم تاتليسس" يستمع للكاسيت ويغني أغنية عن وحدته، والتقت عينا "يعقوب" بعيني الرجل ذي الحواجب الكثيفة في المرآة. أخفض الرجل صوت الموسيقى، وابتسم ابتسامة غير متوقعة وسألهم:

- هل أنتما طالبان؟

أومأ الاثنان بنعم، فسألهما الرجل:

- ما اسمكما؟

- "يعقوب".

- "فريدة".

- ولماذا جئتما إلى هنا؟

قالت "فريدة":

- لأننا حصلنا على فترة تدريب.

تلعثم "يعقوب" وقال:

- آسفان لتعبكم.

كان على الرجال تغيير مسارهم تمامًا لمساعدة "يعقوب" و"فريدة".

فضحك أحد الرجلين ضحكة أفزعت "يعقوب" وقال:

- لا عليك. فما فائدتنا إن لم نساعد واحدًا منا بحاجة إلى المساعدة؟

- انظروا!

أشار السائق بيديه نحو مبنى مُشرق يبدو كالصحن الطائر.

- هذا هو "إستاد فرنسا"، سيلعب الأوباش مباراتهم النهائية هنا، ما رأيك؟

فقال "يعقوب":

- رائع.

سألت "فريدة" الرجال:

- هل أنتم هنا منذ فترة طويلة؟

- عشر سنوات.

- وماذا تعملون؟

- لا يهم.

قالها الرجل، وهو يأخذ نفسًا عميقًا.

- هل جئتم إلى هنا لحضور مباريات كأس العالم؟

قطعت السيارة الطريق السريع، وانطلقت في الشوارع الخالية والمُظلمة. شعر "يعقوب" حينها أنه لم يخرج من إسطنبول طالما ظل "إبراهيم تاتليسس" يستمع للموسيقى التركية، وظل الجميع يتحدثون باللغة التركية. ثم بدت الشوارع أكثر رعبًا وأصغر إلى أن وجدوا لافتة مكتوبًا عليها "بورت دي بانيوليه"، حيث كان من المُفترض أن يكون مكان نزولهم.

وعندها قالت "فريدة":

- يُمكننا النزول هنا.

وعقَّب "يعقوب" قائلًا:

- نعم, فقد قطعتم مسافة كبيرة جدًّا بعيدًا عن طريقكم.

صاح الرجل:

- إطلاقًا، ففي هذه الساعات العصيبة، تجوب العصابات العربية هذه الشوارع. حتى نحن نخاف منهم، ولن يهدأ لنا بال حتى نطمئن أنكم نزلتم عند الباب.

وفي غضون خمس دقائق، كانت السيارة ال"أودي" الحمراء من طراز 96 قد أصبحت داخل حديقة "بورت دي بانيوليه".

وفي الحديقة، كان هناك بعض الطلاب يتسامرون في ذلك الليل الصيفي، وينظرون إلى السيارة ولمن ينزل منها بأعين مُتسعة. والتقط ذلك الرجل الذي تحدثوا إليه في الطريق ورقة من صندوق التابلوه، وكتب فيها شيئًا ثم ناولها ل"يعقوب" وقال:

- أنا "حسن"، وهذا رقم تليفوني. إن احتجتما أي نوع من المساعدة فقط اتصلوا بالأخ "حسن". أنتما تتصلان، نحن نأتي، اتفقنا؟

نظر "يعقوب" و"فريدة" إلى الرقم المكتوب بالورقة دون أن يعرفا ما ينبغي قوله.

فكرر "حسن" سؤاله:

- اتفقنا؟

وكان بيت الشباب عبارة عن مبنى كبير مرصوف باللون الأحمر ومُحاط بحديقة كبيرة مُمتلئة بالأشجار التي تبعث رائحة جميلة. نظر "يعقوب" خلفه قبل أن يدخل المبنى، فوجد ال"أودي" الحمراء اختفت بالفعل.

الفصل الرابع

اضطر "يعقوب" أن يطرق باب الغرفة رقم 15 عدة مرات دون رد. أخبره أحد النزلاء ذو الشارب الكثيف الذي جعله يُشبه فلاحي فرنسا الذين تشاهدهم في الأفلام الأمريكية، بينما كان يُشاهد المباراة بأنه سيقضي ليلتين في المدينة برفقة طالب من "بلجراد".

سأل "يعقوب" الرجل:

- مَن فاز؟

لا بُدَّ وأنها إعادة؛ فالمباراة كانت تُلعب في أثناء النهار. أراد "يعقوب" بسؤاله هذا أن يُطيل أول حديث له في البلد الجديد، خاصة بعد أن استمد شجاعته من المقدمة الناجحة التي قالها بالفرنسية في بداية الحديث.

- المغرب.

قالها الرجل وهو مقتضب.

- حسنًا، ومَن تأهل للجولة الثانية؟

رمقه الرجل نظرة فهم منها "يعقوب" أنه ارتكب خطأ نحويًّا. وتذكَّر تلك النظرة الساخرة التي رمقها الفرنسيون لمعلمه عندما سمعوه يخاطب الأجانب، ولكن ببصيص من الأمل، افترض "يعقوب" أن الرجل لم يسمع سؤاله جيدًا فكرره مرة أخرى.

أجاب الرجل بطريقة توضح أنه يريد أن يُنهي المحادثة:

- لم يفز أحد.

- إذًا هل تأهلت السويد؟

- نعم. نعم.

- أشعر بالشفقة تجاه المغرب.

- نعم. نعم.

وبعد طرق الباب لآلاف المرات، سمع "يعقوب" أحدًا يحاول الاستيقاظ والسير نحو الباب، وهو يتخبَّط في عدة أشياء.

وعندما فتح الشاب الباب، قال "يعقوب":

- أهلًا، أنا من إسطنبول، وأخبروني أنني سأقيم هنا.

وجد "يعقوب" نفسه أمام عملاق. أثار ذلك الطول المقارب للمترين والوجه السمين جدًّا في نفسه شعورًا بالرعب. كان الشاب العملاق يرتدي "شورت" ضيقًا يُظهر ساقيه السمينتين و"تيشيرت" مُجعَّدًا، وكان لديه شعر بني قصير كالذي يمتلكه فتيان الكشافة.

قال العملاق بلهجة إنجليزية سيئة تشبه لهجة "يعقوب" الفرنسية:

- اسمي "جوران بيتكوفيتش". آسف، لا يُمكنني التحدث بالفرنسية بطلاقة.

كانت الغرفة تمثل نموذجًا مثاليًّا لغرفة الطالب؛ كانت طويلة وضيقة. على اليمين، تجد سريرًا مكونًا من طابقين وكنبة قديمة بجوار النافذة ومكتبًا خشبيًّا. ومن النافذة، رأى "يعقوب" الأضواء تتحرك صعودًا وهبوطًا على الطريق السريع من حيث أتى منذ قليل في سيارة مجنونة. كان "جوران" ينام بالسرير العُلوي، فجلس "يعقوب" بالأسفل وأخذ ينظر لذلك الشاب من "بلجراد".

كانت الحرب الكبيرة في البلقان قد انتهت منذ عامين، وهذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها "يعقوب" صربيًا على الطبيعة باستثناء مَن رآهم بالقنوات التليفزيونية.

سأله "يعقوب":

سمعت أنك من صربيا، صحيح؟

أجابه "جوران":

- معذرة؟

فسأله بالإنجليزية:

- هل أنت صربي الجنسية؟

أجابه "جوران" وهو يتثاءب:

- نعم، أنا من يوغوسلافيا, وإذا أردت الخروج من الغرفة من فضلك خذ المفتاح، ولا توقظني مرة أخرى هذه الليلة, حسنًا؟

عندما نزل "يعقوب" إلى الطابق السفلي، وجد "فريدة" هناك تتحدث مع فتاتين باللغة الإنجليزية. كان لإحداهما شعر طويل أسود وترتدي فستانًا كاشفًا عن كتفيها وبعض الأجزاء من ساقيها، بينما كانت الأخرى نحيلة الجسم وشعرها قصير أشقر ولا تتوقف عن الحديث.

نظرت "فريدة" ل"يعقوب" وقالت:

- اسمح لي أقدِّم لك "إيفا" و"ماركيتا" اللاتين وصلتا صباح اليوم من "براج". فتاتان جميلتان، أليس كذلك؟

سألته "ماركيتا" ذات الشعر الأسود:

- هل تتحدث الفرنسية؟

- نعم. أقصد قليلًا.

- إذًا لماذا يتحدث الجميع الإنجليزية هنا؟

فقالت "إيفا" بالإنجليزية:

- أنا أكره الفرنسية.

قالتها بصوت مرتفع جعل الجميع ينظر إليها بضيق.

فقالت "فريدة":

- وأنا أيضًا.

قال شاب أسمر ذو شعر طويل على هيئة ذيل حصان، ولديه خوذة موتوسيكل ظهر فجأة ليقطع حديثهم بسؤاله:

- لماذا؟

فردَّت "ماركيتا" بعينين لامعتين:

- هل أتيت بموتوسيكل؟

- نعم.

وأضاف الشاب بلهجة فرنسية بارعة جعلت "ماركيتا" تذوب:

- قطعت الطريق لمدة أسبوع.

- ومن أين جئت؟

- من بيروت، اسمي "أندريه"، وأعمل مُخرجًا سينمائيًّا.

لم يجد الطلاب أي بارات مفتوحة في هذا الوقت المتأخر من الليل. فانطلقوا إلى أول شارع مضيء رؤوه. لم تتوقف ضربات قلب "يعقوب" السريعة، فبينما كان يتمشى مع فتاتين من التشيك وفتاة هوجاء من إسطنبول وشاب ذي خوذة موتوسيكل، أصابه شعور بالهلع من أن تظهر فجأة العصابات العربية التي ذكرها "حسن" في السيارة منذ قليل.

كانت البارات كلها مُغلقة. وبعد عدة توسلات غير مُجدية من "ماركيتا" لأحد مقدمي المشروبات في أحد البارات- والذي كان مشغولًا بإحكام الأقفال على بوابة البار- قرر الجميع العودة إلى النزل، وقد كانوا بعيدين للغاية عنه. سار "أندريه" بصحبة "ماركيتا" في الأمام بفارق عشر خطوات تقريبًا عن باقي المجموعة، بينما تبادلت "إيفا" و"فريدة" بعض الأحاديث ذات مغزى

جنسي. فلم تريا أحدًا سوى اثنين من السُكارى من الشواذ ليسألاهما عن الطريق، وبعدما ذكر "يعقوب" أنه من إسطنبول، تعجب هؤلاء الاثنان وأخبراه أنهما ذهبا إلى إسطنبول الصيف الماضي! وأنها أجمل بلدان العالم، وعندما لمحت مجموعة الطلاب التائهين حديقة النزل عن بُعد، أشارت "فريدة" بيدها ناحية "ماركيتا" و"أندريه" اللذين سبقاهما ببعض الخطوات، وقالت:

- انظروا، لقد وجد هذان الاثنان طريقهما معًا.

ثم حدث فجأة شيء غير متوقع، فالتفتت "ماركيتا" وجرت نحو "يعقوب"، وضربته على فخذه وهي تضحك وقالت:

- تحرك إلى الأمام.

فهم "يعقوب" معنى هذه الضحكة التي كان من السهل أن تُفهم في كل البلدان وبجميع اللغات والتي تدل على أنها أعجبت به. فهو لديه ما يكفي من خبرة ليثق بغرائزه الذكورية؛ فهذه الغرائز عادة ما تنبهه قبل حدوث أي علاقة بينه وبين أي فتاة.

الفصل الخامس

في الصباح، حضر ثلاثي هادئ لتسجيل إقامتهم بنزل الطلاب.

كانوا فتاتين شقراوتين وفتى نحيلًا، يبدو عليهم التعب من أثر الطريق؛ فقد جاؤوا من جامعة "سراييفو" بالبوسنة والهرسك. كانوا يتحدثون الفرنسية بطلاقة، وهو الأمر الذي جعل "يعقوب" يشعر بالحرج، وعندما عرفوا أنه تركي، ابتسموا وقدموا أنفسهم إليه. ولذلك قرر "يعقوب" دعوة أصدقائه الجدد "عايدة" و"إلما" و"جواد" لتناول الإفطار.

في أثناء تناول الإفطار، اكتشف "يعقوب" أمورًا محزنة بخصوص أهل البوسنة والهرسك كما كان مُتوقعًا. أدرك أنهم ليسوا على استعداد للحديث عن الحرب التي ما زالت أجواؤها تُخيم على البلد؛ فكانت الحرب لا تزال حاضرة في أذهانهم لدرجة أنهم ليسوا بحاجة لبذل الجهد لتذكُّر تفاصيلها.

كان صمتهم ناتجًا عن فشلهم في إيجاد ألفاظ مناسبة لوصف ما حدث. ولذلك، قرر "يعقوب" عدم التطرُّق للحديث عن الماضي واكتفى بسؤالهم عن حاضرهم واستكشاف الإجابات من تعابير وجوههم. أخبرته ملامح وجه "إلما" بأنها كثيرة البُكاء، وأن "عايدة" ستذهب إلى لندن قريبًا بغرض إعادة بناء "سراييفو"، بينما علم بأن "جواد" قد أصيب بمرض في قلبه أثناء الحرب.

وعندها جاء "جوران" يتبختر بشعره المموج وقميصه المُجعَّد وعينيه الحمراوتين، فبدا شكله مُرعبًا. ربَّت على ظهر "يعقوب" وسأله عن رأيه فيه كرفيق غرفة.

وكذلك أخبره أنه لم يتمكَّن من إيجاد شريحة لإجراء مكالمة تليفونية لبلدته.

فجأة، انتابت الطاولة عاصفة وكأنها رياح البلقان الباردة، فبمجرد ما رأى الطلاب البوسنيون "جوران"، نظروا إليه في صمت عَكَس عدم قدرتهم على تصديق حجمه وشعره.

ففكَّر "يعقوب" في إلقاء نكتة لتهدئة الجو، ولكنه تراجع عن ذلك لأن الموقف لن يحتمل كوميديا ولأن لغته الفرنسية ستخذله. همس "جواد" بغضب للفتاتين بلغتهم الخاصة فوقفوا من جلستهم، وأخذوا صواني الطعام وذهبوا للجلوس في آخر الكافيتريا.

يمكنني وصف موقف "يعقوب" في تلك اللحظة؛ بالطبع لا يعرف ما يجب فعله، فقد جلس أمامه "جوران"، وبدأ يتحدث إليه عن مباراة ستُلعب قريبًا بين يوغسلافيا وأمريكا ولم يُبدِ أي اهتمام للطلاب البوسنيين. فكان له نظرة ساذجة تجعل الجميع يرق قلبهم لعدم تركه وحيدًا على الطاولة. وعلى الجانب الآخر، أدرك "يعقوب" بأسف أن كل دقيقة سيمضيها مع "جوران" ستجعله يبتعد عن الثلاثي.

الفصل السادس

وبحلول الظهر، كان هناك رجل فرنسي بعمر الثلاثين يُعاني مع أربعة وعشرين طالبًا من مختلف الجنسيات ليوضح لهم معلومات عن "فيميا"، تلك المُنظمة المسؤولة عن سفرهم.

تحدَّث الرجل مع الطلاب بلهجة فرنسية سلسة وواضحة لدرجة أن "يعقوب" فهمها دون أي صعوبات. قال لهم:

- في الملفات المُسلَّمة إليكم، ستجدون الجدول الخاص بالدراسة على مدار الأسبوعين المقبلين، وكذلك ستجدون معلومات كافية عن "لاروشيل"، المدينة التي سنتجه إليها غدًا، وذلك بالإضافة إلى خريطة لمدينة "باريس" لربما يريد أحد منكم القيام بجولة خلال إقامتكم بها، وكذلك توجد خريطة مُفصَّلة للمنطقة التي تسكنون بها فلن يجد أي منكم صعوبة في التوجه للمترو أو الذهاب لشراء السجائر. وأنا على أتم الاستعداد لمساعدة مَن يحتاج إليَّ منكم أو على الأقل لبذل قصارى جهدي لمساعدتكم.

كان "برونو" هو الشخص المسؤول عن توصيل الطلاب بسلام إلى مدينة "لاروشيل"؛ فكانت الترجمة التقريبية ل"فيميا" التابعة لقسم من أقسام وزارة الثقافة هي "مركز التدريب الفعَّال وطرق العمل"، وقد جاء الطلاب من مختلف البلاد؛ من إسطنبول، و"براج"، وبيروت، والبوسنة والهرسك، و"بلجراد"، والمغرب، و"كييف".

همس "يعقوب" في أذن "ماركيتا"، والتي بدت رائحتها جذابة:

- هل لاحظتِ شيئًا؟

- ماذا؟

- لم يُشارك أي طالب من الاتحاد الأوروبي.

- وما المشكلة؟

- يبدو أن ذلك البرنامج مُخصص لأبناء الطبقة الثانية.

- ومن هم أبناء الطبقة الثانية؟

- نحن ذوات أصول غير أوروبية حقيقية.

- هل هذا يهم؟

- لا يعنيني. فأنا لا أهتم بمهرجان السينما على الإطلاق، لقد جئت إلى هنا لأتجول وأسبح في البحر.

- حسنًا. سنبقى هنا حتى صباح الغد، فماذا ستفعل اليوم؟

- سأقوم بعمل جولة في المدينة. يمكنكِ مرافقتي إن أردتِ.

وهنا أصبح ذلك الشعور الذي انتاب "يعقوب" بخصوص علاقته ب"ماركيتا" أقوى، فمجرد مرافقتها له في جولته جعلته يشعر وكأنه ذاهب لتكوين عصابة سوداء كلون شعرها. كان "يعقوب" على علم بما سيحدث بعد أن توافق المرأة على مرافقة شاب إلى مكانٍ ما، فالبقية تأتي.

كان "جوران" صادقًا بشأن ما قاله عن عدم وجود أي شرائح تليفونية بمحيط النزل، حيث أعطت "ماركيتا" "يعقوب" إحدى الشرائح التي اشترتها من المحطة الشمالية قبل قدومها من "براج"، وبينما هي تسلمه الشريحة، قالت له شيئًا من شأنه أن يجعل كل مراهق تركي سعيدًا:

- ملامحك لا تبدو كملامح الأتراك.

- ربما.

قالها "يعقوب" بفرحٍ شديدٍ أنساه قوميته، وأكمل:

- والدي لديه أصول بلقانية، ولذلك تبدو ملامحي سلافية بعض الشيء.

- لا. لا تبدو سلافيًا أيضًا.

- إذا ماذا ترين؟

- لا أعرف. لا يمكنني التحديد الآن, سأخبرك عندما أعرف.

أدخلت مكالمة "يعقوب" السرور على أسرته؛ فبمجرد سماع صوته قادمًا من أقصى باريس، جعل صوت أمه يرتعش، واقتبس والده بعض الأشعار عن باريس، كما سأله أخوه المهووس بكرة القدم عن زي كأس العالم.

اتصل "يعقوب" ب"ليلى" أيضًا وأخبرته بأن الطقس غائم في إسطنبول وأنها منتظرة "خليل" الذي سيأتي لتناول فنجان شاي في المساء. انزعج "يعقوب" قليلًا عندما سمع ذلك. كان "يعقوب" على علم بأن صداقته ب"ليلى" تقوم على أرض صلبة، وأن تعلقهما ببعضهما بعضًا لا يُمكن وصفه بأنه علاقة غرامية بين رجل وامرأة.

احترم ذلك جدًّا، ولكن ما أزعجه هو سماع أن الرجل الوحيد الذي لم يستطع أن يواكبه ما زال بالجوار.

حذرته "ليلى" قبل إنهاء المكالمة:

- احترس من الفتيات الفرنسيات.

فرد "يعقوب":

- لسن فرنسيات فقط، فلديَّ العديد من التشيكيات والأوكرانيات والعرب أيضًا.

يبدو أن "جوران" قد اختار "يعقوب"، رفيق غرفته وأقرب أصدقائه، ليُكمل معه باقي الرحلة.

حضر "جوران" بينما كان "يعقوب" و"ماركيتا" يتجولان حول خريطة باريس. ولكن هذه المرة، كان "جوران" يرتدي "تيشيرت" أسود وحذاءً مناسبًا لقطع المسافات الطويلة. ربَّت على كتف "يعقوب" وابتسم وسأله:

- إلى أين سنذهب اليوم؟

في تلك اللحظة، جاء "جواد" و"عايدة" من خلال الباب الزجاجي للنزل، فنظر "يعقوب" تجاههما على أمل أن يتحدثا إليه، ولكن "جواد" مرَّ بجانبه دون النظر إليه، بينما اكتفت "عايدة" بالابتسام، وذلك أقل ما كان يأمل به "يعقوب".

وبحضور "فريدة" مرتدية نظارتها السوداء، أصبحوا أربعة أشخاص. بدت "فريدة" تحت شمس باريس الساطعة كقائدة حقيقية للهوجائيين، وبدأت حديثها معهم بسؤالها عن مكان "إيفا".

فردت "ماركيتا":

- لا أعلم. لم تحضر الاجتماع أيضًا، ربما لم تستيقظ بعد.

فابتسمت "فريدة" قائلة:

- حسنًا، سأذهب لأبحث عنها.

ثم قالت ل"ماركيتا" بصوت منخفض:

- كنت سأصبح أكثر سعادةً لو كان بصُحبتنا شاب وسيم.

- اهدئي، فلربما يأتي "أندريه" في أي لحظة، وأنا لست على استعداد لسماع أي حديث عن الموتوسيكلات.

الفصل السابع

لم تتوقف إثارة باريس باعتبارها أجمل مدن العالم من قبل العديد من الحكماء، بل ما زادها إثارةً هو استضافتها لكأس العالم بين أحضانها. أدرك "يعقوب" القادم من إسطنبول- تلك المدينة التي يعتبرها الكثير أيضًا أجمل مدن العالم- أن الفرنسيين ينظمون ذلك الحدث الرياضي باهتمام بالغ. فلا تجد محلًا لا يبيع التذاكر والأعلام والملابس الرياضية الخاصة بالبطولة، وكان مشجعو كرة القدم من مختلف الأجناس يجوبون الشوارع الرئيسية بالأعلام، مضيفين حيوية مختلفة لعاصمة الفن في القرن التاسع عشر. وبمرورك على الأرصفة التي سبق وأن مرَّ عليها "بودلير" ذات مرة، يُمكنك أن تتعجب من الأجواء الاحتفالية المنتشرة في المدينة. فكيف يمكن لشخص أن يشعر بالملل في كل هذه الأجواء الممتلئة بالهرج والمرج؟ انضم إليهم في المترو مجموعة من الكاميرونيين الذين ظلوا يغنون ويلوّحون بأعلام بلدهم ذات اللونين الأحمر والأخضر، كما رقص البرازيليون الذين رؤوهم في الشانزليزيه بطريقة صاخبة ومُبهجة. حاول "يعقوب" إقناع نفسه أن ما يراه حقيقيًّا وأنه ليس واحدًا من أحلامه الخادعة، فقد استقبلته البشرية جمعاء خلال رحلته الأولى خارج بلده العظيم والمأساوي.

استطاع "يعقوب" أن يختلس عدة دقائق، ويبقى بمفرده مع "ماركيتا". كانت المجموعة مُتعبة جدًّا عند وصولهم "حديقة لوكسمبورج" في أثناء غروب الشمس التي حرقت جلودهم طوال اليوم، وحلَّت مكانها رياح خفيفة تُبشر بحلول الأمطار.

اختفى "جوران" ليجمع بعض المعلومات عن مباراة منتخب بلده ضد منتخب الولايات المُتحدة الأمريكية، التي ستقام في اليوم التالي بمدينة قريبة منهم، وكانت "فريدة" بصُحبة "إيفا" عند البِركة التي يلعب عندها الأطفال بالمراكب غافلين عن العالم.

اعتقد "يعقوب" أنه لن يجد "ماركيتا" لكنه وجدها تحت شجرة البرقوق التي تُحرك الرياح أوراقها ببطء.

اتجه "يعقوب" إليها فقالت له وهي تخلع حذاءها:

- معدتي تؤلمني بسبب ذلك المطعم الصيني.

فوضع "يعقوب" الحذاء جانبًا ليفسح لنفسه مكانًا للجلوس بجانبها وقال:

- يا له من مطعم وقح.

ونظر إلى الحذاء، وهو يُحدِّث نفسه عن جمال الأقدام التي تملؤه ثم سألها:

- أيمكنني التفوُّه بالسباب أمامك؟

ابتسمت "ماركيتا" وألقت نفسها على الحشائش، فنظر "يعقوب" بعينين ساحرتين لقدميها وظهرها المُغطيين بفستان أزرق صيفي مما جعلها تلاحظ وتنهض فجأة وكأن أحدًا أزعجها. لا يمكن لأحد

أن يعلم إذا كانت هذه خدعة من الفتاة أم مجرد حادث بسيط.

الفصل الثامن

وفي اليوم التالي، اجتمع الطلاب في المحطة الشمالية لأخذ القطار المُتجه لمدينة "لاروشيل". لم يُعط "جوران" ل"يعقوب" فرصة للابتعاد عنه؛ فكان ذلك العملاق شديد التعلق ب"يعقوب" ومُصاحبًا له أينما ذهب. ذكَّره ذلك التطور السريع لصداقتهما برواية "فئران ورجال" ل"جون ستاينبيك".

لم يكن من العدل أن يستخف "يعقوب" بعقل "جوران"؛ فكان يُشبه بطل رواية "ستاينبيك" الحزين من الخارج، بينما يحمل داخله شابًا مراهقًا. وعلى كل حال، إنه ذاهب إلى الجامعة، ويستطيع أن يخبرك بأسماء جميع لاعبي الفرق ال 32 المُشاركين في كأس العالم، وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع أحد تحديد مدى عقلانيته. فأحيانًا ما يُبهرك بتذكره أدق تفاصيل حدث ما وأحيانًا أخرى يصدمك بأنه يحتاج لسماع الشيء ثلاث مرات على الأقل ليستوعبه. ربما كان "جوران" شديد الذكاء، ولكونه الوحيد من "بلجراد"، أعتقد أنه سيبقى وحيدًا.

وربما لذلك السبب تعلق ب"يعقوب" ذلك الشخص الوحيد الذي منحه الأمل، تمامًا كما هو الحال في الأيام الأولى من الخدمة العسكرية عندما يختار المرء رفيقه.

ربما كان "جوران" مُبهمًا بعض الشيء؛ فقد اعتقد أن "يعقوب" صديقه كما لو كانت مصائرهما واحدة بسبب تقاسمهما غرفة واحدة لمدة ليلتين وتجولهما في المدينة معًا، وحديثهما عن المخرج اليوغوسلافي "أمير كوستاريتسا"، ولم يُفكر أنه من الممكن أن يرفض "يعقوب" تلك الصداقة.

ومن ناحية أخرى، لم يرغب "يعقوب" في الابتعاد عن الطلاب البوسنيين بسبب "جوران". فلم يرغب في رؤية عملاق صربي في كل مكان يذهب إليه، كان ظهورهما معًا غريبًا؛ ف"يعقوب" متوسط الطول ذو ملامح رقيقة. كلما تخيل نفسه بجواره، جاء في مُخيلته الثنائي الكوميدي الشهير "لوريل وهاردي".

عندما تكوّن ثنائيًا مع أي شخص في فترة مبكرة، ستبقى هذه العلاقة في ذاكرتك كإحدى بقايا فترة المراهقة؛ لأننا نعتقد أن شريكنا هذا لا يقل أهمية لنا عن الاحتباس الحراري. وعلى سبيل المثال، لو كنت مراهقًا جذابًا للجنس الآخر، ستجد نفسك بحاجة إلى شخص يُكمل ذلك الانجذاب؛ فعادةً ما يهتم أي ثنائي ببعضهما بعضًا، فتجد لديهما وعيًا مشتركًا يمنحهما اليقين بتناغم شخصياتهما وانجذابهما لبعضهما بعضًا. إلخ.

يمتلك "ماركس" و"إنجز" ذلك الوعي، وبصورة أبسط، ستجد أن تلك الفتيات الصغيرات اللاتي يمشين في ممرات المدرسة يتعلقن بأذرع بعضهن لديهن الوعي نفسه أيضًا. مولانا "جلال الدين الرومي" و"شمس التبريزي" "ديليوز وجواتاري" "سايمون وجارفونكيل" "بيرت وإرني"، كل هؤلاء وأكثر لديهم الوعي نفسه بأنهم ليسوا مجرد ثنائيات بل هم صورة ناتجة عن تكوين شخصياتهم معًا.

فتلك الصورة الناتجة عن أي ثنائي حقيقي تكون أكثر أهمية عن غيرها؛ فالثنائيات الحقيقية تدرك ذلك جيدًا وتتصرف وفقًا له. فتجد أن تحركك في ثنائي يكون أكثر تميزًا من التحرك برفقة مجموعة مكونة من ثلاثة أو أربعة أشخاص، فيساعدك ذلك على الاختيار الدقيق بعيدًا عن الاحتمالات، وبناءً على ذلك الاختيار، سنحدد جيدًا مَن سيقف معنا في المواقف الصعبة (كانحراف القطار أو اختطاف من قِبل الإرهابيين الدوليين). وعندما يريد أحد معرفة مَن نكون فإنه ينظر أولًا إلى مَن يرافقنا. فنخبرهم نحن عن شخصية أصدقائنا كما يخبرهم أصدقاؤنا عن طبيعة شخصياتنا.

انزعج "يعقوب" جدًّا عندما دارت في رأسه كل هذه الأفكار. يعلم أن العديد يعتبره و"جوران" ثنائيًّا؛ فعندما يجتمع "برونو" بالطلاب ولم يجد "جوران" حاضرًا فإنه لا يفعل شيئًا سوى سؤال "يعقوب" عنه.

"أين "جوران"؟

" كيف لي أن أعرف مكانه بحق السماء؟".

لو كان الأمر بيد "يعقوب" لكان كوَّن هذا الثنائي مع "ماركيتا" أو "عايدة"، بدلًا من بطل رواية "فئران ورجال".

الفصل التاسع

تعرَّف "يعقوب" على "برونو" بشكلٍ أفضل في الأيام الأولى التي قضياها في "لا روشيل". كان رجلًا محبوبًا ذا شعر أبيض جعله يبدو أكبر من سنه الحقيقي. يرتدي "برونو" ملابس سوداء دائمًا بسبب إصابته بعمى الألوان منذ لحظة ميلاده.

وصف "برونو" ذلك ذات مرة وهو ينفض بنطلونه الأسود من الرمال: "كلما أردت ارتداء ملابس ملونة، لم أُوفَق في تنسيق الألوان، فيضطر أصدقائي للتعليق على ذلك".

كان والد "برونو" عاملًا بالميناء في "مارسيليا". قضى طفولته بين اعتصامات وإضرابات بسبب والده. يتذكر "برونو" عندما خرج والده من الاتحاد بسبب إغواء موظفيه، وعندما فقد وظيفته وأدار الجميع ظهورهم إليه. يتذكر كل هذه التفاصيل كما لو أنها حدثت بالأمس.

قرر أبوه تفريغ حزنه في إدمان الكحول، مما تسبَّب في مُعاناة والدته بسبب بطالة زوجها، ووحدته وتليُّف كبده بسبب الكحول، ونتيجة لذلك، ترك "برونو" المنزل بعد إنهاء المرحلة الثانوية وانتقل إلى باريس، وبعد أن عمل في عدد قليل من الوظائف الصغيرة، قرر أن لديه المزيد ليقدمه للناس بدلًا من تنظيف نوافذهم وطلاء أسوارهم، فانضم لمنظمة "فيميا".

وهنا سأله "يعقوب":

- ماذا يفعل والدك الآن؟

فأجاب "برونو":

- لا يزال عاطلًا عن العمل، وعلى الرغم من اعتماده على المعاش، فإنه مكسور نفسيًّا، وبالرغم من ذلك، ما زال يشرب الكحول ويقضي وقته مع رفقاء مصيره القدماء ويصوّت لذلك الفاشي "لوبان"، ويعتقد أن مشكلة فرنسا الوحيدة هي وجود الأجانب. هل تحب كرة القدم؟

- قليلًا، لماذا؟

- وأنا كذلك. ولكنني أرغب في أن تفوز فرنسا بالكأس؛ لأن هناك العديد من الأطفال ذوي أصول أفريقية وعربية، فلو نجحوا ستكون صفعة في وجه "لوبان".

جلس "يعقوب" و"برونو" على شاطئ المحيط ذات يوم بارد جدًّا بشهر يوليو. ذلك اليوم الذي بالطبع لم يوقظ بداخلهم أي رغبة للسباحة. كان المحيط الأطلسي مُظلمًا جدًّا تحت تلك السماء المُلبَّدة بالغيوم مما جعله غير آمن. ومع ذلك، ألقت فتيات أوروبا الشرقية بأنفسهن بين الموجات العالية.

أحبَّ "يعقوب" رؤية "ماركيتا" وهي تلاعب الأمواج، ووقفت الفتاة التشيكية بجانب "إيفا" ووقفت "عايدة" في المياه حتى بلغت رقبتها، بينما كسرت فتاة "كييف"، "سفيتلانا"، ذلك الصمت بصراخها

في أثناء اللعب مع الأمواج، فقد سبح الجميع في توائم من شأنه أن يثير شهوة القدوم على الحياة داخل الجميع حتى المتشائمين.

وحتى في موسم الصيف المزدحم، لم يتجاوز عدد سكان "لاروشيل" بضع مئات الآلاف، وانتشرت المباني التي تعكس الأذواق المختلفة منذ تأسيسها في القرن العاشر حول الخليج الذي امتلأ بالقوارب مختلفة الأحجام، وقد جعلت الجامعة والأسوار التاريخية والحوض المائي الهائل للمدينه شأنًا مميزًا. وكان "جان بول سارتر" قد قضى بعض سنوات دراسته بالمرحلة الثانوية بمدينة "لاروشيل"، فقد انتقل للمدينة بعد وفاة والده وزواج والدته للمرة الثانية عام 1917، وأصيبت المدينة جرَّاء الهجوم عليها عدَّة مرات لكونها قلعة البروتستانتينية في أثناء الحروب الدينية وموقفها بين فرنسا وإنجلترا ومشاحناتهم المُستمرة، وفي وقت لاحق، استطاعت المدينة تضميد جروحها واكتسبت هوية من مزيج تلك الحضارات. ومع كل عام جديد، كانت تقام العديد من المهرجانات الفنية والحفلات الموسيقية بالمدينة.

أخبر "برونو" الطلاب أنهم رغبوا في نقل تدريب العام الماضي لمدينة "كان" ولو لمرة واحدة، ولكن امتلاء المدينة بأبناء الطبقات العالية أحالهم دون ذلك.

ولكن هذه المرَّة، أعدَّت "فيميا" برنامجًا خفيفًا؛ فكان على الطلاب الاستيقاظ مبكرًا كل يوم مع صدى صوت "برونو" المُتردد بالأسفل في القاعة، ثم الاستعداد للنقاش في أثناء تناول الإفطار في المكان المُعتاد، وفي أثناء تلك المناقشات، يتحدَّث الجميع عن ثقافاتهم وتقاليدهم، وأحيانًا يُقدم أحد طلاب المدرسة الفنية بعض عروضهم؛ ففي اليوم الأول، شاهدوا فيلمًا قصيرًا عن عودة مراهق ذي موتوسيكل إلى مسقط رأسه بعد سنوات طويلة كان قد صُوِّر من قِبل "أندريه" ببيروت.

استغرق الفيلم وقتًا أطول بكثير مما كان يجب أن يستغرقه؛ بسبب المُخرج الذي أوقفه أكثر من مرة ليُعلق على عملية التصوير، ونوع الكاميرا المُستخدمة، وإلقاء حكاية مُضحكة عن عمه الممثل وهكذا.

أما بقيَّة اليوم، فقضاه الطلاب بلا قيود. فمنهم مَن ذهب إلى دور السينما لمشاهدة فيلم، ومنهم مَن قام بتأجير دراجات ومنهم مَن فضَّل السباحة في المُحيط، كما عزم بعض الطلاب على انتهاز فرصة هذه الرحلة لمدينة "لاروشيل" لممارسة الجنس؛ فبمجرد أن تحرَّك القطار، بدأت بعض المُغازلات، فأول مَن تألق في هذا الشأن كان "هشام" الذي قام بتوزيع بطاقات بريدية على الطلاب؛ ليُعرِّفهم على المكان الذي نشأ وترعرع فيه، فقد جاء "هشام" من مدينة "الجديدة" بالمغرب، وأمِل في أن تروق أشجار النخيل المطبوعة على الكروت للفتيات السلافية، فظل يقول لهن:

- يمكنكن زيارتي بالمغرب في أي وقت؛ فالطقس هناك دائمًا مشمس وحار، وبابي مفتوح لجميع الأصدقاء.

وذات مساء، تعكَّر مزاج "يعقوب" عندما رأى "جوران" و"ألما" يتمشَّيان على الشاطئ، حيث ظل "جوران" يُخبرها أشياء ويُلوِّح بيده، وهي تضحك وتغطي فمها بيدها كما هي الطريقة المُحترمة

التي تتبعها الفتيات المُسلمات في الضحك. ففي الواقع، ووفقًا للكتيّبات المُوزعة على الطلاب، كان إعطاء فرصة لتلاقي الحضارات المختلفة هو أحد أهداف "فيميا"، فبوضعها هدفًا كهذا، كانت المُنظمة في أوج مستويات التفاؤل نظرًا لوجود بعض الطلاب المُنتمين لدول مُعادية لبعضها بعضًا ولن يغيّروا وجهات نظرهم. ولكن "برونو" اعتقد أن في مثل هذه الأجواء المُناسبة ستحل المشكلات، ولكن ذلك الهدف لم يكن كافيًا لراحة "يعقوب" تجاه علاقة "جوران" ب"ألما"، فقد رأى نظرة "جواد" ل"جوران" منذ اللحظة الأولى التي وصلوا فيها "لاروشيل". لاحظ "يعقوب" تلك النظرات للمرة الأولى في أثناء مشاهدتهم للمباراة في تليفزيون النزل.

كان نزل الطلاب بمُلحق الجامعة المُخصص لمَن يأتون للتدريب الصيفي. كان ذلك المبنى المُكوَّن من أربعة طوابق هو محل إقامة الطلاب المحليين، ببنائه الصلب وجدرانه الخرسانية الأكثر حداثةً وبرودةً من المباني الأخرى في المدينة، وقد منحوا كل طالب غرفة خاصة به، واحتوت كل غرفة على دولاب خشبي وسرير وحوض.

كانت أبواب الغرف المُطلة على المحيط عندما تفتح تطل على صالة طويلة مُضاءة باللون الأزرق الناتج عن أضواء الفلورسنت. أقام الفتيات والفتيان في الطابق نفسه، وكانت المراحيض وأماكن الاستحمام مشتركة وتوجد في نهاية كل طابق. وبما أنهم ذهبوا خلال فترة الإجازة الجامعية، فكانوا هم الطلاب الوحيدين في المكان. نادرًا ما كانوا يلتقون مرَّة كل حين الطلاب أصحاب البشرة السمراء المترددين على المكتبة في هدوء. كانوا أبناء أفريقيا ذوي الطباع الخجولة والأعين المُشرقة والذين من الصعب التحدُّث إليهم.

ذات مساء، كان "يعقوب" بمفرده مع "جوران" في غرفة مزدحمة بكراسي بلاستيكية ومُضاءة بواسطة التليفزيون، وكان "جوران" يتفاعل مع كل هجمة لفريقه قريبة من المرمى الأمريكي ملوحًا بيديه نحو الشاشة ذات السبع وعشرين بوصة قائلًا:

- هيَّا! هيَّا! هيَّا!

وعندما انضمَّ "يعقوب" للتشجيع، صاح الاثنان مع كل فرصة ضائعة، وعندما ظهر "جواد" عند المدخل مع بداية الشوط الثاني، فهم الجميع- ما عدا "جوران" الذي كان رمزًا للسذاجة- أنها ليست بشرة خير. مشي "جواد" ببطء ناحية الضوء الشاحب القادم من التليفزيون عندما كان الفريق الأمريكي على وشك أن يُحرز هدفًا، وصاح بقوته في وجه "جوران":

- هيَّا! هيَّا! هيَّا!

لم تبدُ صيحات "جواد" كصيحات "جوران" بل كانت أعنف وكانت نبرته مخيفة، وعندما أضاع لاعبو المنتخب الأمريكي الكرة خارج المرمى، اتجه "جواد" ناحية الباب واختفى في الظلام الذي أتى منه.

ولهذا السبب كان "يعقوب" قلقًا على "جوران".

انتهزت "عايدة" إحدى اللحظات النادرة التي لم يكن فيها "يعقوب" بصُحبة "جوران" وسألته:

- لماذا تصاحب هذا العملاق الغبي؟

- لست أنا، بل هو مَن يحرص على صداقتي. - لا بُدَّ وأنه شعر منك بالمحبَّة، فهو لا يفارقك أبدًا. - أنتظر ذلك اليوم الذي سيتركني فيه ويجد صديقًا غيري. فكل ذلك بسبب القدر الذي وضعنا معًا في غرفة واحدة في الليلة الأولى. - التمس العذر ل"جواد". - أتفهَّم الوضع. - أنت لا تفهم شيئًا، ولكن التمس له العُذر.

الفصل العاشر

منذ ذلك اليوم، أصبح "جواد" موضع اهتمام من قِبل "يعقوب"، فظلَّ يراقبه أثناء تناول الإفطار أو في الاجتماعات الصباحية، وحتى إن رآه في أحد الشوارع، كان ينظر إليه ويراقب تصرفاته. كان وجه "جواد" مألوفًا بالنسبة ل"يعقوب"، فقد بدا كأصدقائه في الجامعة الذين اعتاد أن يلاعبهم الشطرنج ويتناول معهم الشاي، كما كان ل"جواد" شعر أسود يُمشطه على أحد الجانبين، وعينان لامعتان رقيقتان عندما يكون هادئًا، وكان يرتدي جاكيت أصفر لا يخلعه أبدًا.

أراد "يعقوب" أن يتذكر "جواد" من الصور المُخزنة في ذاكرته منذ أول لقاء جمعهما. كان هناك فرق بين "جواد" الذي لم تكن له رغبة في التحدث عن ألمه ورغبته في نسيان ما حدث له بإدراك حزين، وبين ما هو عليه اليوم. لم يكن الفرق ملموسًا بدرجة تجعلك تلاحظه على الفور، ولكنه جعل أعين المراهقين البوسنيين تنمو بشكل أعمق. ومن الواضح أن وجود "جوران" يُسبب له ألمًا لم يستطع أحد أن يتخيله، فكان "جواد" دائمًا صامتًا ومتوترًا. لم يكن صديقًا لأحد سوى "عايدة".

يحضران الاجتماعات الصباحية معًا ثم يختفان في الشوارع المُتبقية من القرن التاسع عشر.

قرر "يعقوب" التحدُّث مع "برونو" في هذا الشأن، فوجده ذات صباح وهو يُغرق الكرواسون في القهوة على الطريقة الفرنسية. وعلى الرغم من عدم تمكنه من اللغة الفرنسية، فإن "يعقوب" تمكَّن من إيصال مخاوفه عن "جواد" و"جوران" إلى "برونو". كان "برونو" مستمعًا جيدًا، لم يرفع نظره عن "يعقوب" حتى انتهى من كلامه ومعاناته مع تلك الأفعال، ثم اعتدل في جلسته وتنهَّد.

لوَّح "برونو" بيديه على الطريقة الفرنسية وقال:

- كان يجب علينا معرفة أن ذلك سيحدث.

فقال "يعقوب":

- لا يزال هناك شيء يمكننا فعله.

- إنها غلطتي، لقد حذروني من حدوث هذا، ولكنني كنت مُتفائلًا جدًّا، وسأبلغ عن خطئي ل"فيميا".

خشي "يعقوب" من أن يتحول الأمر إلى اعتراف، ولجهله بالمدى الذي سيصل إليه "برونو" في لوم نفسه، قرر "يعقوب" البحث عن أصل المشكلة مثل أي مسلم حقيقي لا يمتلك تقليد الاعتراف المتعارف عليه في المسيحية، فوضع يده على كتف "برونو"، وبدأ في تكرار جمل بعناية في محاولة للتأكد من عدم ازدواجية معنى أي منها.

تحدَّث "برونو" مع "يعقوب" قائلًا:

- أنا مع "جوران" وسأعتني به. كل ما أريده منك هو الاعتناء ب"جواد" وحده، فلربما نحن قلقون بشكل أكثر من اللازم، وعلى كل حال، مرَّت ثلاثة أعوام على الحرب وعلى حدِّ علمي أن ليس كل البوسنيين يعتبرون الصرب أعداءً لهم.

- حقًا؟ أيوجد منهم مَن يتفهَّم الأمر ولم يعتبرهم أعداءً لهم؟

- نعم. كان يوجد العديد من الصرب المقيمين ب"سراييفو" أثناء التفجيرات، ورفضوا مغادرة البلاد حتى لا يتركون جيرانهم بمفردهم. - حقًا؟ من الصعب جدًّا فهم بعض الأمور.

فُتح باب المطعم وجلس "جواد" و"عايدة" على إحدى الطاولات البلاستيكية. وضع الجرسون القهوة أمامهما ونظر إليهما بعينين مُحدقتين كعادته عند رؤية الأجانب. كانا يتناقشان، ظلَّت "عايدة" تتحدث بحماس، بينما ظل "جواد" صامتًا. ظلَّت "عايدة" تتحدث وتتحدث إلى أن أحبطها صمت "جواد". وبعدما صمتت هي الأخرى، أصبح وجود الاثنين كالظل المُنعكس من أشعة الشمس بالجهة المقابلة.

الفصل الحادي عشر

مارس "يعقوب" الحب مع "ماركيتا" في اليوم الرابع. كل ما حدث كان مُتوقعًا، ولكن لم يتمكن أحد من إيقافه. هل كان "يعقوب" السبب في حدوث ذلك أم أنها خدع الفتيات؟ لم يعرف "يعقوب" السبب.

كان يومًا دافئًا من أيام شهر يوليو الذي ذكَّره بأيام إسطنبول. بعد انتهاء الاجتماع الصباحي، انطلق الجميع ناحية البحر ما عدا "جوران" الذي عاد للنزل لمشاهدة مباراة منتخب بلاده، بينما كان "يعقوب" يكافح لحل مشكلة مُحرجة؛ لأنه نسي أن يُحضر أمواسًا للحلاقة ولم يعرف من أين يأتي بأي منها فنظر إلى لحيته الطويلة بحُزن؛ فبالنسبة لشخص تعلَّم اللغة الفرنسية من إحدى الدورات من السهل عليه أن يكتب مقالًا بلغته عن "ألبير كامو" على أن يسأل أحدهم عن مكان لبيع الأمواس باللغة الفرنسية!

عند الظهيرة، وبينما كانا ينظران إلى شمس المحيط الساطعة، مسحت "ماركيتا" بيدها الصغيرة على خد "يعقوب" وقالت له:

- أتعلم أن اللحية الطويلة تناسبك؟

قررا الذهاب إلى السوق، وبينما كانا يتمشيان بين الضفة والمدينة، لاحظ "يعقوب" جمال "ماركيتا" الأخَّاذ ذلك اليوم. كانت ترتدي بلوزة مُنمَّقة مع طوق من الدانتيل تاركة أكتافها عارية، وجيبة قصيرة تصل إلى ركبتيها، فكانت تقلب حال "يعقوب" رأسًا على عقب عندما ترتفع قليلًا، وفجأة قضبت "ماركيتا" وجهها وانحنت وأمسكت ب"يعقوب" جيدًا بيد واحدة، وبالأخرى خلعت فردتي حذائها، وعقدت رباطيهما ببعضهما بعضًا ووقفت على أصابع قدميها، وعلقتهما على رقبة "يعقوب"، وقالت له وهي تضحك:

- لقد منحتك هذه الميدالية!

وحينها، مرَّ بجوارهما اثنان من الدراجين القادمين بسرعة ناحية المحيط، فضم "يعقوب" "ماركيتا" بين ذراعيه برفق وكأنه يحميها. وفي تلك اللحظة، أخفض "يعقوب" رقبته الثقيلة بسبب الحذاء ليُقبِّل "ماركيتا".

كانت رائحة "ماركيتا" كريهة. انتشرت من عنقها إلى فخذها بصورة متزايدة تكاد تقتل "يعقوب"، وقد ملأت رائحة "ماركيتا" تلك الغرفة بطابق الفتيات وكأنه عطر قوي.

عندما أدرك "يعقوب" أنه لن يستطيع التوقف عن ذلك، قام ليخرج من الغرفة، ولكن "ماركيتا" منعته عن طريق مسك ردفيه بكلتا يديها، فكان ذلك مُربكًا لشاب مثله. كان خائفًا من أن يجرح مشاعرها بتراجعه فكان يتراجع ببطء خوفًا من أنه إذا تراجع سينقضي كل شيء انتظر حدوثه منذ أربعة أيام. لذلك أخذ يطلب منها أن تسامحه بينما كان يُقبِّلها. أراد "يعقوب" أن يهمس في أذن

"ماركيتا" بكلمات عاطفية قذرة وهو يُقبّلها من جبينها وحتى كاحليها. فمَن يدري، ربما لو كان يستطيع التحدُّث بالفرنسية لفعل ذلك!

مارس "يعقوب" و"ماركيتا" الحب مرتين. شعر فيهما "يعقوب" وكأنه يُحلِّق فوق المحيط. ما يجعل ممارسة الحب جميلة أنه يُنظف رءوسنا من ملايين الأفكار التي تجول بلا جدوى في عقولنا، فيعيد الجسد اختراع ممارسة الحب في كل مرة. انتابت "يعقوب" سعادة عند إدراكه أن كل مشكلة واجهته خلال الخمس وعشرين سنة من حياته انتقلت لنقطة بعيدة في آفاق المحيط بفضل ذلك الاختراع.

استيقظ "يعقوب" على شخص يصفع وجهه. كانت "ماركيتا" تحاول الوصول لزجاجة المياه البلاستيكية بواسطة رأسها بسبب وجود رأس "يعقوب" الثقيل على صدرها الذي حالها دون فعل ذلك، وفي النهاية تمكَّنت من وصول الزجاجة لشفتيها. استقام "يعقوب" ونظر إلى وجهه فوجده ورديًّا؛ بسبب الحرارة وممارسة الحب.

قالت "ماركيتا" بابتسامة تنم عن عدم صبرها:

- أسمع صوت "إيفا" و"فريدة" بالخارج، فقد عاد الجميع من الشاطئ ولا يجب أن يراك أحد هنا، ومن المؤكد أن الفتى الصربي قد اشتاق إليك كثيرًا.

كان "جوران" جالسًا على مقعد في الحديقة واضعًا رأسه بين يديه، كان حزينًا جدًّا. يمكنك تشبيهه بالمنحوتات القديمة للمحاربين التي كانت تزين المعابد القديمة، ولكن هذه المرَّة كان "يعقوب" مسرورًا لرؤيته. وضع بضعة نقود في الماكينة المُقابلة لمكتب المعلومات، وأخذ علبتين من الكوكاكولا وجلس بجواره. كانت عينا "جوران" مغرورقتين بالدموع.

قال "جوران" بلهجته الإنجليزية الضعيفة:

- لقد أحرزوا هدفًا في الوقت بدل الضائع، وأضعنا هدفًا مثل الحمقى وتم إقصاؤنا من البطولة. لا يمكنني تصديق ذلك!

كانا ينظران إلى أشجار الزيتون البري المُحيطة بالنزل، وإلى الأسفلت الذي بدأ من حيث قلَّ نمو الأشجار، وإلى الدراجين المجانين الذين مرُّوا بجوارهم من وقت لآخر، وبنظر "يعقوب" إلى وجه "جوران"، وجعه قلبه. فكَّر"يعقوب" فيما تفعله "ليلى" في هذه اللحظة. فربما تكون جالسة بين جبال الأوراق في الجريدة التي تعمل بها، أو تُناقش كاتبًا في بعض التعديلات الطفيفة، أو تدخن بشراهة وتفكر في القيام بالتسوّق الذي تفعله بعد انتهاء العمل.

تخيل مقر عمل "ليلى" كعالم ممتلئ بدخان السجائر والعديد من الرجال المتجولين يفكون رابطة عنقهم. فجاءت إلى ذهنه صورة ابتسامة المرأة التي مرَّت بالعديد من الاضطرابات، كانت الشمس في طريقها للغروب متجهة للشرق لتعكس الضوء على شعر "ليلى" البني.

كان "يعقوب" يقع في حب المرأة التي يستطيع أن يُمارس الحب معها.

لذلك من الطبيعي أنه في حالة حب مع "ماركيتا" الآن.

الفصل الثاني عشر

لم يملك "يعقوب" فلسفة عن الحب ليُقدمها لنا؛ فعلى الرغم من أنه دائم التعميم، فإن كل نظرية يأتي بها تنتهي بالضياع؛ لأن كل امرأة جديدة تخلق عالمًا جديدًا بالنسبة له.

دخل حياته ثلاث نساء قبل أن يتعرَّف على "ليلى". انكشف الغطاء الجنسي للمرة الأولى له مع فتاة تُدعى "ندرة" اعتاد رؤيتها في الإجازة الأسبوعية بالحي الذي كان يعيش به. استغرب "يعقوب" - الذي كان قد بدأ حينها دراسته الثانوية - أن واحدة في مثل عمرها تمتلك اسمًا قديمًا كهذا، ثم اكتشف أن تلك اللقاءات صباح يوم السبت لم تكن من قبيل الصدفة؛ فكان ل"ندرة" أبوان منفصلان، واعتادت المجيء كل إجازة لرؤية أبيها.

وفي تلك الأيام، كان جسد المرأة كالأرض الغامضة بالنسبة ل"يعقوب"، فكي يصل إلى جسد امرأة حينها، كان أشبه تمامًا بإمكانية سفره لبلد أجنبي. كانت لديه أحلام تأخذه لمدن بعيدة وأحلام أخرى تأخذه للمس جسد امرأة، وغالبًا ما كانت هذه الأحلام مُتشابكة وتصيبه باليأس.

يقف خياله عند نقطة أو أخرى، فلم يكن لدى المدن التي حلم بها أي أسماء، وحجبت النساء اللواتي حلم بهن وجوههن عنه، ليس لأنهن اخترن أن يكن غامضات أو خجولات، بل لأنهن لم يكن لديهن وجود من الأصل. لم يجد سوى الفراغ المُظلم الذي أحلَّ محل وجوههن في مُخيلته ولم يكن لديه أي خبرة لملء هذا الفراغ.

وبالنسبة لأولئك الذين يتساءلون عن "ندرة"، نأسف لذلك ولكننا سننتقل إلى الفتاة الثانية.

دعونا نقول فقط إنه في يوم من الأيام، تحوَّلت لقاءاتهما إلى مواعدات غرامية بريئة وقبَّلا بعضهما بعضًا مرتين قبل أن تنتقل عائلة "يعقوب" إلى حي آخر.

اندهش الفتى كثيرًا أن هناك مَن سمح له للدخول لذلك العالم الغامض. كذلك دعونا نخصص بعض الكلمات للحديث عن طعم الفراولة المُصاحب لشفتيها، لذلك لم يكن هناك المزيد من الأخطاء في هذه القصة التي تلاشت بمرور الوقت.

القصة الثانية التي يعتبرها "يعقوب" بمثابة الخطأ لا تستحق أن ينظر لها من هذا الجانب؛ ففي سنوات لاحقة، سيقابل "يعقوب" الفتاة في متحف أو حديقة، حيث يأخذ الآباء أولادهم ويدرك أنه لم يعد غاضبًا من ناحيتها بعد الآن. كانت مشكلة "ميلتم" أنها لم تكن حساسة بالدرجة الكافية، فمن الطبيعي أن فتاة بعمرها تجد راحة في احتشام "يعقوب" بعد انفصالها عن أحد أعضاء فريق كرة القدم، فإن لم يبدأ صديقها السابق في إرسال الزهور إليها، لربما لم يواجه "يعقوب" آلام الإهمال التي واجهها بعد رجوعها لصديقها. كان الألم ثقيلًا على عاتق "يعقوب" لدرجة أنه ظل فترة طويلة لا يُفكر في أنه أقام أول علاقة له مع "ميلتم". ومَن يعلم؟ فربما بعد عدة سنوات عندما يقابل "يعقوب" الفتاة في الحديقة سيلاحظ خطوطًا تحت عينيها ويجد فيهما الحيرة نفسها، ويكتشف أن تلك الفتاة الصغيرة منتظرة دورها للعب على الأرجوحة وسيصبح سعيدًا.

وفي المحطة الأخيرة قبل وصولنا ل"ليلى"، كانت هناك فتاة تكبره ببضعة أعوام. كانت "عائشة" تمتلك حسًا من النضوج الذي جعل "يعقوب" يشعر وكأنه بالغ أيضًا.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها أنه مع امرأة وليست فتاة، ولكن أحد الجوانب السلبية أن "عائشة" كانت قبيحة، ليس عدم اهتمام أو تشعُّث ولكنه قبح واضح. تفوَّقت في المحادثات الخاصة بالفلسفة الألمانية والجدلية الألمانية ومدى تأثير "كانط" على رواية اليوم، ولكن بالنسبة لفتى يبلغ من العمر ثلاث وعشرين سنة، هل هذا هو الطريق لدخوله لأسرار العالم؟ من أين كانت تأتي تلك الفتاة القبيحة المرتدية أحذية الجيش والمشغولة ببثور حب الشباب؟ وخاصة في الوقت الذي ينبغي للمرء فيه أن يمتطي جواد العشق.

سأل "يعقوب" تلك الأسئلة لنفسه وكره صدقه في الإجابة. وبذلك أصبح "يعقوب" لا يُطاق سواء من جانب الفتاة أم من جانبه هو شخصيًّا.

وفي أحد صباحات شهر أكتوبر، وعندما أعطى الخريف علاماته الأولى لحلوله المدينة، انفصل "يعقوب" و"عائشة". من على مقعدهما في الحديقة ذاك اليوم، استطاعا رؤية القرن الذهبي، والمساجد التي تزين المدينة، وجسر "جالاطة". تبادل "يعقوب" معها حديثًا عقلانيًّا وظلت كل كلمة من كلماتها بمثابة سباب في أذنه.

ولكن قصته مع "ماركيتا" منحته الفرصة لتحقيق أحلام العالمين؛ منحته جمال جسد المرأة، وسفره إلى دولة أجنبية (لكونها أجنبية)، وعندما يُمارس الحب معها، يشعر وكأنه يتغلب على مصيره مرتين؛ فهي امرأة بإمكانه أن يجد سعادته معها، ومدينة أجنبية يستطيع أن يُقبِّل جلدها ذا الرائحة المميزة لليالٍ متعددة، وهي فتاة في العشرين من عمرها. من خارجها، كانت فتاة يتسبَّب جمالها في إعياء الرجال، ومن داخلها هي فتاة من "براج".

والآن، دعونا نتطرَّق إلى دردشة "يعقوب" في كافيتريا "لاروشيل". تلك المحادثة التي لم تسِر في الطريق الذي أراده "يعقوب"، حيث أراد "يعقوب" معرفة المزيد عن الرئيس التشيكي "هافل"، ولكن كل ما استطاع معرفته أنه بعد وفاة زوجته تزوج من فتاة تصغره سنًا.

لم تقرأ "ماركيتا" رواية ل"كافكا" من قبل، فلم تستطع إخبار "يعقوب" إذا كان وصفه لشوارع "براج" صحيحًا أم لا. قضت "ماركيتا" طفولتها في قرية بالقرب من المدينة، وكانت سعيدة جدًّا أنه بعد سنوات من القمع السوفييتي سُمح لهم أخيرًا بتناول الهامبرجر والكوكاكولا، ومشاهدة أشرطة الفيديو، وكل ما حاول "يعقوب" القيام به هو الاستماع إليها وفهمها؛ فعلى كل حال، سيحاول أي شخص فهم فتاة ذات نغزات جميلة.

الفصل الثالث عشر

قرَّر "يعقوب" الابتعاد عن "جوران" بعدما ازدادت الرومانسية بينه وبين "ماركيتا"، وفي كل مرة يمارسان فيها الحُب، كانت "ماركيتا" تملأ حياته أكثر وأكثر، وبذلك لم يتبقَ أي مساحة ل"جوران".

أصبح جسد الفتى الصربي العملاق حملًا ثقيلًا يمنع الفتى المُحب "يعقوب" من التمتع بالحُب، فأراد وضع حد لعلاقته به، وتمنى أن يجد طريقة تمكِّنه من فعل ذلك دون أن يؤذي مشاعره. ولنبقى منصفين، كان "يعقوب" طيب القلب مقارنة بغيره، حاول أن يُلمِّح له أن طريقهما مختلف، وأن كل ما يريده هو "ماركيتا".

ترك "يعقوب" و"ماركيتا" النزل في الأيام الأولى بعد ارتباطهما دون إخبار "جوران". ذهبا لمشاهدة الأفلام من دونه، ولم يجلسا معه على الطاولة أثناء تناول العشاء. استخدما طرقًا قاسية لإبعاد شخص ما، وبمرور الوقت، استطاعا تدمير كل أواصر الصداقة التي بنياها على مدار الأسبوع الماضي.

عادة ما يبدو أي ثنائي مرتبط بصورة جميلة، ولكنَّ ثمة شيئًا غير سار بدا عليهما- لم نمتلك اللفظ الصحيح لوصفه- ولكن في كل مرة نراهما فيها نشعر بها. لنسأل أنفسنا:

ما الشيء الذي من الممكن أن يُعكِّر صفو عصفورين مُحبين؟ ولماذا يتركان دروبًا من الوحل خلفهما أينما حلَّا؟

دعونا لا نتسرَّع في الحُكم، فهي ليست مجرد غيرة نضمرها إليهما، لقد شعرنا بالإهمال ليس إلا؛ ففي كل مرة يلمسان بعضهما بعضًا أو ينظران إلى بعضهما، نشعر بالغربة.

لمَّحا إلينا أن جنة الله على الأرض قد خصصت من أجل اثنين فقط والبقية ليس لهم الحق فيها. فمن الأفضل ألا نلومهما، ربما نفعل الشيء نفسه غدًا، ولولا أن "ماركيتا" كانت غير صبورة لأخذ "يعقوب" وقتًا أطول في إقصاء "جوران" من هذه الجنة، ولكن "جوران" لم يفهم أيًّا من هذه التلميحات، فكلما قابلهما، لم يُعرِ تصرفاتهما انتباهًا وتدخَّل في أحاديثهما، وأحيانًا كان يُحضر "إلما" ويتحدث إليها عن فيلم يمكن لأربعتهم الذهاب لرؤيته.

قالت "ماركيتا" ل"يعقوب"، بينما كان "جوران" يشتري التذاكر:

- افعل شيئًا.

- ماذا تريدين أن أفعل؟ - أنت سبب وجوده معنا دائمًا. لا أعرف كيف ستتعامل معه لكن ما أعرفه أنني لن أتحمَّله أكثر من ذلك.

عندما استدار "يعقوب"، رأى "جوران" حاملًا التذاكر وبجواره "إلما"، وعلى الرغم من احتفاظ "جوران" بتلك النظرة المتفائلة المُعتادة، فإن وجه "إلما" كان أكثر حُمرة من لون التذاكر.

شعر "يعقوب" بالأسى عندما رأى على وجه "إلما" أنها فهمت حديثهما، وأدركت أن اللحظة التي لا مفر منها قد حانت.

تنهَّد "يعقوب" وقال:

- "جوران"، علينا أن نضع حدًا لكل هذا.

- حد لماذا؟ للأفلام؟ - لا. بل لك أنت، فإنك تأتي معنا إلى كل مكان. - ماذا تقول؟ - انظر يا "جوران"، أنا و"ماركيتا" نود أن نكمل طريقنا معًا، وأنا مُتأكد من أن "إلما" لديها الرغبة في البقاء معك بمفردك. - لا. أنا سعيد لكوني...

وقبل أن يُكمل "جوران" جملته، أدرك ما يُلمِّح إليه "يعقوب" وصمت، فرأى "يعقوب" وجهه مُسودًا بصورة مُرعبة.

وقال ل"يعقوب":

- حسنًا. افعل ما تريد. أراك بعد الفيلم.

- لم تفهمني جيدًا. لن تراني بعد الفيلم أيضًا. - كل ذلك بسبب الفتاة؟ - لا يا "جوران". الأمر ليس كذلك.

- لا إنها هي السبب، أي نوع من الأصدقاء أنت؟

- أنا صديق جيد.

قالها "يعقوب" وهو يغلي من داخله، وأكمل:

- ولهذا السبب وافقت أن نخرج معًا، ونبدو ك"لوريل وهاردي".

أومأ "جوران" برأسه وتمتم:

- "لوريل وهاردي".

- لا يا "جوران"، هذا ليس ما قصدته.

- فهمت ما تقصده جيدًا يا "يعقوب". ربما تتفاجأ ولكنني أحيانًا أتفهم بعض الأشياء. اطمئن لن تراني مُجددًا. شعر "يعقوب" وكأنه يخون شخصًا ما بسبب "ماركيتا" للمرة الثانية، ولأكن صادقًا، إنني لا أعرف إذا كانت هذه العلاقة الغرامية القصيرة بمثابة خيانة ل"ليلى" أيضًا أم لا. فربما نكون بحاجة لنظرة سريعة على الماضي، وتحديدًا على "ليلى" لنتأكد من حُكمنا.

الفصل الرابع عشر

كان أول لقاء يجمعه ب"ليلى" منذ عامين في أحد المؤتمرات. في تلك الفترة، كان لدى "يعقوب" هوس بحضور المؤتمرات، فكلما سمع عن مؤتمر يجذبه، ذهب إليه فورًا، وفي يوم لا يُنسى بشهر مارس، عبر "يعقوب" من "كاديكوي" إلى إسطنبول لحضور مؤتمر عن التصوُّف الإسلامي، وفي أثناء جلوسه بالقارب، أدرك أنه لم يرتدِ الملابس المناسبة، وعندما وصل القارب للجهة الأخرى، بدأت الأمطار في السقوط وهبَّت عاصفة باردة دمرت كل ما في طريقها.

وصل "يعقوب" المؤتمر شبه متجمد، ووجد القاعة الصغيرة شبه فارغة، وتعرَّف على المُتحدث من كتبه وأحاديثه في التليفزيون. فلديه صوت رقيق يذيب النفس من الداخل، وقد أضافت المقاعد المريحة شعورًا بالراحة ل"يعقوب" وأخذت أجفانه تثقل وتثقل، وبسبب جلوسه أمام المُتحدث، كان من الصعب عليه أن ينام، وبعد صراع مع أجفانه، كان على وشك النوم ليُفاجأ بكوع حاد يوقظه.

كانت امرأة في الثلاثينيات من عمرها، ولها شعر بني تجلس بجواره. كانت تصغي باهتمام للمتحدث وهي تعض قلمها، فكانت لا تبدو كشخص بإمكانه أن ينغز مَن لا يعرفه. وبعدها استدارت المرأة وابتسمت للشاب الصغير الجالس بجوارها. فتسبَّبت تلك الابتسامة المميزة والحكيمة في غضب "يعقوب"، وعندها، تمنى "يعقوب" أن تموت تلك المرأة أو أن يُنسف المكان بأكمله من قِبل مُتطرفين إرهابيين أو تأتي كرة نارية عملاقة عبر الباب وتحرق الجميع. يحتوي العالم على بعض الناس الذين لا يستطيعون مشاهدة نقاط ضعفهم. وببساطة، كان "يعقوب" واحدًا منهم.

وعندما انتهى المُتحدث من حديثه، رفع "يعقوب" يده، وتوالت أسئلته واحدًا تلو الآخر. حاول تكوين أسئلة طويلة كمحاولة منه لنسيان غبائه الذي طغى عليه منذ دقيقة؛ فبدأ يطرح كل ما يعرفه عن العلاقات بين الصوفية وفلسفة "سبينوزا"، والصوفية والسيميائية، والصوفية والنساء حتى بدا المُتحدث مُتحيّرًا.

كان "يعقوب" مُدركًا أن كرامته أهينت بشكل كبير مما أجَّج نيران الغضب بداخله، وعندما جلس أخيرًا، شعر بالإجهاد والذل، وعندما انتهى المؤتمر، اندفع "يعقوب" بقوة ناحية السُلم حتى أوقفته إضاءة قوية أمام البوابة، فنظر إلى أعلى ووجد شعاعين من البرق يصطدمان ببعضهما بعضًا على مسافة بعيدة، وكان لا يزال بالخارج إلى أن ابتلت ملابسه فتراجع إلى الداخل مرة أخرى. وحينها، هبط المزيد من المستمعين وتجمَّعوا على الطاولات في الطابق السُفلي حتى ينتهي المطر، وكانت المرأة من ضمن الموجودين على إحدى الطاولات، وكانت تتحدث إلى رجلٍ ملتحٍ. أدارت رأسها ولمحت "يعقوب".

قالت المرأة ل"يعقوب":

- لقد كُنت مُبتلًا عندما أتيت إلى المؤتمر، لو خرجت الآن ستموت حتمًا بالالتهاب الرئوي.

كان صوتها ذا نبرة حنونة. ألقى "يعقوب" نفسه على الكرسي الذي أحضرته له المرأة، وقلّب الشاي الذي أحضره له الجرسون شاعرًا بالحُمى المُتصاعدة ببطء في أصداغه. كان يشعر بالمرض يسري في جسده. لم تكن المرأة تتحدث مع ذلك الرجل عن التصوُّف بل عن ارتفاع أسعار الإيجار. كان ذلك الرجل يعمل مُصورًا، وقد قررت ابنته تأجير مكانها بسبب التحاقها للدراسة بالجامعة.

- إنه أمر مثير أن يهتم شاب في مثل سنك بالتصوُّف.

عندما أدرك "يعقوب" أن هذه الجُملة مُوجهة إليه، انزعج وعطس. ابتسمت المرأة وأعطته منديلًا أخضر اللون أخرجته من حقيبتها، وأعقب ذلك برق خفيف ورعد أقل حدة عن ذي قبل.

كان ذلك المبنى عبارة عن منزل قديم تم تجديده، فإذا نظرت بدقة سترى مياه الأمطار متدفقة عبر الجدران، وكانت الكافيتريا الموجودة في المدخل لا تزال مُحتفظة بآثار السُكان القدامى؛ فكان يوجد مزيج لطيف من الروائح بما فيها التفاح وشاي "التليو" والرطوبة.

وقد حضرت المرأة إلى المؤتمر بصُحبة صديقها المُصور الصحفي بقسم الفن والثقافة بالجريدة التي تعمل بها، وكان من المفترض أن يُغادرا على الفور بعد أخذ صورتين لولا ظروف الطقس، وظلَّ المُصور يذكر أنه مُتأخر على شيء ما.

كان من الصعب تحديد ما أثَّر على "يعقوب"؛ فعلى الرغم من جمال المرأة المُميز، فإنها كانت مُتعبة بعد انشغالها طوال اليوم حتى تلاشى مكياجها. في الواقع، لم تكن في قمة تألقها، فلربما عكس وجه "يعقوب" حماقته، وربما كانت واحدة من النساء اللاتي لا يحتجن إلى بذل الكثير لجذب من حولهن، مما أثر على "يعقوب" وجذبه إليها. وقريبًا ستعمل غريزة الذكور، ويفحصها بنظراته من رأسها لقدميها.

كانت المرأة ترتدي تنورة بنفسجية تصل لركبتيها وحذاءً أسود يحمل آثار الطين، كما ارتدت جوربًا رقيقًا من شأنه أن يُغطي تلك المساحة المكشوفة من قدميها.

ولكنه لم يفعل.

ثم أتى من الخارج صوت بوق سيارة تنتظر، فقامت المرأة وارتدت معطفها.

وقالت:

- زوجي ينتظرني بالخارج. أين تسكن؟

في طريقهما إلى السيارة، قدَّم كل من "يعقوب" و"ليلى" نفسه للآخر. كان "خليل" رجلًا وسيمًا بوجهه الذي يُشبه التماثيل وشعره الأبيض، وحتى في ضوء المساء الخافت، بدت عيناه الزرقاوان مُشرقتين كالمصباح، وكانت لديه نظرة قوية ذات مغزى لم تتغير حتى إذا ابتسم؛ فبدت كأنها منحوتة على وجهه منذ زمن فات.

ماذا فعل "يعقوب" في تلك السيارة؟

استمع "يعقوب" إلى حديث الزوج والزوجة. كانا يتحدثان عن الإضراب عن الطعام في السجون، وأصدقاء زوجها في ألمانيا، وأبيها الذي يزداد خرفًا.

كانت المرأة تتكلم بطريقة تجعلك تفكر في تلك المنازل القديمة بالقرب من مضيق البوسفور، في حين أن لهجة الرجل كانت قريبة للللهجات الشرقية مما جعله أكثر غموضًا. بدا ذلك المزيج من أصواتهما وصوت مسَّاحات الزجاج الأمامية كأغنية ما قبل النوم. لم يعد "يعقوب" قادرًا على مقاومة نداء النوم وغط في نوم عميق.

وجد نفسه يدور في كوخ درويش، حيث كان يدور في الاتجاه نفسه الذي تدور فيه الأرض، وكان الضوء الإلهي الذي يأتي من النوافذ من بعيد يُضيء ذلك المفكر المُنعزل الجالس في زاوية الكوخ، وكان وجهه مُحبطًا ويصرخ في "يعقوب".

استيقظ "يعقوب" على صوت "خليل" وهو يسأله:

- هل تحب أن تنزل على الطريق الساحلي؟

بينما كان يسير في الطريق المؤدي إلى منزل والده، ورد إلى خاطر "يعقوب" سؤال عن كيفية وجود مكان ما في عالم مُختلف تمامًا يُحبه البعض، ولكنهم لا يقدرون على العيش به بسبب انعدام الأمن به وجُبنهم.

على سبيل المثال، والده الغارق في وحدته وفقره في غرفة الجراحة الصغيرة التي لا ينتمي إليها، ووالدته التي تقضي كل صباح في تقشير البطاطس بهدوء، وهي جالسة بجوار النافذة التي تتدفق منها أشعة الشمس، ولا حتى الكلمات المُتقاطعة التي حلها والده، ولا صور الزهور اليائسة التي قطعها من المجلات ولصقها على حائط غرفته، ولا رائحة التبغ الحزينة التي لم تغادر غرفة الجراحة الصغيرة. لم ينتمِ أي منهما لذلك العالم.

كان المطر قد انتهى تقريبًا. والقمر يُحاول أن يلمع من بين تلك السحب فوق المدينة شبه النائمة. بدأت أفرع الشجر ذات البراعم تهتز مع الرياح الشمالية المُدمرة، حيث صعد "يعقوب" المنحدر وشعر بالبرودة والحزن في عظامه.

وعندما فتح بوابة الحديقة التي أصدرت ذاك الصديع الذي تصدره منذ آلاف السنين، شعر "يعقوب" أنه يُريد رؤية "ليلى" مرة أخرى.

الفصل الخامس عشر

لقد تسلل "يعقوب" إلى حياة "ليلى" بصبر جم.

كان يتصل بها عدة مرات في الأسبوع، ويدعوها لحضور الندوات ويعزمها على فنجان من الشاي بمطعم صغير، ويسألها عدة أسئلة تخص العالم الذي يتأكد من انتمائها إليه. وهكذا، أصبح قادرًا على جمع معلومات عامة عن "ليلى"؛ فقد سطر خفية في عقله سنوات دراستها بالجامعة، وماضيها السياسي وسنوات نفيها في ألمانيا.

شعرت "ليلى" براحة كبيرة لم تشعر بها منذ فترة طويلة في أثناء حديثها مع "يعقوب"- فربما اعتقدت أنه درويش شاب بسبب تعرفها عليه في مؤتمر عن الصوفية- في الواقع، لم يكن "يعقوب" مثل بقية أقرانه؛ فقد كانت وحدته من طراز قديم، كأنه خُلق ليُنصت في عالم أقسم الجميع فيه على الكلام طوال الوقت، ومن ناحية أخرى، كانت ل"ليلى" تلك الخبرة الحياتية التي تمكِّنها من معرفة قدرها في أعين مَن ينظر إليها. وبمرور الوقت، ازداد إعجاب "يعقوب" بالفتاة المُتحررة المُقاتلة وذكرياتها المثيرة التي راقت ل"يعقوب" كثيرًا. عادة ما نحب هؤلاء مَن نشعر معهم بأننا على طبيعتنا. وقعت "ليلى" في حُب شخصية "ليلى" التي تظهر عندما تكون برفقة "يعقوب".

تمامًا مثل أن ممارسة الزوجين للجنس لا تدل على أنهما يحبان بعضهما البعض، وانفصالهما لا يعني النهاية المُطلقة. وهذا النوع من العلاقات يدوم عن طريق تحسين شكل العلاقة. كان المصير الذي يربط "خليل" و"ليلى"مؤلمًا جدًّا وقويًّا جدًّا، لدرجة أنه كان من المستحيل عليهما أن ينفصلا تمامًا. والآن أصبحت مغامرتهما المُشتركة التي بدأت منذ عشرين عامًا تواجه نهايتها؛ فالحياة لديها القدرة على سحق وتدمير أقوى المشاعر، ولكن ذلك لم يُغير حقيقة أن هذين الاثنين لا يزالان رفيقين من سنوات الجامعة، فكانا كالحمامتين المُحلقتين في سماء واحدة جنبًا إلى جنب.

لا يمكننا تأكيد إدراك "يعقوب" لهذا الأمر في الوقت الحالي.

والآن دعونا نتحدث عن الندبة التي وجدها "يعقوب" على جسد "ليلى"، بينما كانا على وشك ممارسة الجنس. بدأت هذه الندبة من تحت ثديها الأيمن وامتدَّت حتى سُرتها، ومن اللحظة الأولى التي رأى فيها "يعقوب" الندبة، عرف أنها ستكون بمثابة الحاجز الذي لن يتمكَّن من اجتيازه.

ذات مساء، وفي أثناء عودته من الجامعة، قرَّر "يعقوب" زيارة "ليلى"، فوجدها وحيدة وحزينة. كان ابنها برفقة "خليل" في تلك الليلة، وقد انتبه "يعقوب" للتليفون المُنكسر في زاوية الغرفة. لم يستطع "يعقوب" أن يسأل "ليلى" لماذا فعلت ذلك؛ فتلك هي المرة الأولى التي يراها فيها بائسة. لم يكن لديها أي روايات لتحكيها تلك الليلة، بل أخبرت "يعقوب" أن بإمكانهما تصفح ألبوم الصور، وأن لديها "كونياك" ونبيذًا.

كان "يعقوب" يتطلع لرؤية صور "ليلى" بشدَّة؛ لرغبته في رؤيتها عندما كانت في مثل سنه.

عندما أحضرت "ليلى" الألبوم، فكَّر "يعقوب" في لعبة على أمل أن يُسعد "ليلى" قليلًا؛ ففي هذه المرة سيروي هو القصة وستصغي هي. أراد شيئًا واحدًا فقط من "ليلى"؛ ألا تمنحه أي دليل يخص الصور، وبعدها سيقارنان القصص المؤلفة من قِبل "يعقوب" بالقصص الأصلية التي ترويها كل صورة ويتبادلان الضحكات معًا.

وعلى الرغم من أن الفكرة لم ترُق كثيرًا ل"ليلى"، فإنها وافقت حتى تترك ل"يعقوب" فرصة الحديث للمرة الأولى منذ تعارفهما.

وعلى الرغم من استعداد "يعقوب" جيدًا للعبة، فإن الصورة الأولى في الألبوم أدهشته. لم يجد أمامه العالم الأبيض والأسود الذي توقعه، حيث كانت الصور المُلونة مُنتشرة بالفعل في تلك الأيام وهو ما أدهشه. كان يأمل أن تلهمه تلك الصور القديمة ذات اللونين الأبيض والأسود. ولكن بدلًا من ذلك، وجد "ليلى" مرتدية فستانًا أزرق، وشعرها أقصر قليلًا، وبشرتها أغمق قليلًا. كانت ابتسامتها ملائكية على ذلك الجسر، برفقة "خليل" وبعض القرويين.

وهنا قال "يعقوب" وهو يفحص الصور كعاملٍ بأحد المعامل:

- هذا هو البحر الأسود، كنتما هناك لتنظيم العُمال، كما أنكما استمتعتما وسبحتما أيضًا.

بعدما انتهى من كلماته، نظر "يعقوب" مُباشرة ل"ليلى" ليرى ردة فعلها على كلامه.

وللأسف، كانت "ليلى" مُمثلة بارعة؛ فقد ابتسمت له ابتسامة غامضة. ثم انتقل للصور المأخوذة بالميادين. كانا أمام جامعة إسطنبول، في خِضم مُظاهرةٍ كبيرةٍ.

كانت هذه الصورة حيَّة لدرجة جعلت "يعقوب" يشعر وكأنه يسمع صوت الطلاب المُحتشدين في الساحة.

- كنتِ تشاركين في تلك المُظاهرة للاحتجاج على قمع الشباب المتقدم. وبطريقة أو بأخرى، كانت معدتكِ تؤلمكِ منذ الصباح الباكر، ولهذا السبب ظهرت على وجهكِ ملامح الإعياء الواضحة في الصورة.

وبينما كان يتحدَّث، شعر "يعقوب" أن بإمكانه الشعور ببرودة الثلوج التي تغطي الأشجار في الصورة. وفجأة سُمعت طلقة نارية ورأى الجموع تتفرق؛ فبحثت عيناه عن "ليلى"، وعندما لم يستطع إيجادها، رجع بعينيه إلى آخر مكان وجدها فيه وتتبع سيرها. ولكن جموع الناس كانت متلاصقة ذراعًا بذراع، لدرجة عدم قدرتك على زحزحتهم.

أردف "يعقوب":

- كان الوشاح الذي ترتدينه في هذه الصورة من صُنع أحد جيرانكِ، فلنقل إنها الخالة "خيرية". إنها تحبكِ حقًا، ولكنها لا تفهم ما الذي يدفعكِ للتورُّط بمثل هذه الأشياء.

ثم فتح "يعقوب" عينيه ليجد نفسه في ساحة ميدان "با يزيد". شعر أن لديه شيئًا يفعله أو بالأحرى مُهمة عندما رأى تلك الوجوه التي بالجوار. بدا الجميع وكأنهم ينتظرون منه شيئًا. شعر بالضوء الذي رآه في صورة "خليل" وكأنه يسري بداخله، وعندما نظر إلى تلك البركة الموجودة بالميدان، وجد عندها رجلًا ملتحيًا يُغطي وجهه وشعره أسود كالفحم، وعندما نظر إلى الجمع المُحتشد حوله، أدرك أن ذلك الرجل هو "خليل" قبل عشرين سنة. وفجأة سمع صوت طنين في أذنيه وأصبحت الأشياء أمامه غير واضحة، وأصبحت الأصوات والأشياء غير مفهومة، فهم وهو خائف أن ذلك الفضاء الذي كان به يتوازى مع عالم آخر.

وهنا سألته "ليلى" مُبتسمة، وهي تعيد الألبوم لمكانه:

- ماذا بك أيها الدرويش؟ لقد أصبحت هادئًا.

عندما نظر "يعقوب" إلى "ليلى"، وجد تلك الفتاة الشابة التي كانت موجودة بالميادين. لمست الفتاة شفتي "يعقوب" بيديها لتنظفهما من بواقي قطع الشيكولاتة الصغيرة.

تعامل "يعقوب" مع الموقف سريعًا وجذب الفتاة من يدها. قبَّل أصابعها بدءًا من أصغر إصبع، ثم انتقل في حركة بطيئة إلى شفتيها، واحتضنها وألقاها على الكنبة. اتجهت يداه المرتعشتان إلى ثديها الأيمن، وعندما سقطت سُترتها وظهرت تلك الندبة، أدرك "يعقوب" إدراكًا تامًا أنهما لن يمارسا الحُب أبدًا.

لا، لم يكن الأمر غريبًا. وعلى النقيض، فقد أصبحت تلك الندبة جزءًا لا يتجزأ من جسدها مثل ما تلائم الأنف الكبير أو الأيادي الكبيرة أي امرأة. فربما كانت المشكلة كالآتي؛ أن الندبة حوَّلت جسد "ليلى" إلى شيء لا يُقدَّر بثمن في عيني "يعقوب". حاول تخيُل ما يوجد وراء هذه الندبة وهو ما أخافه. فربما كان يوجد غُرف استجواب ودورات تعذيب أدت إلى هذه الندبة، ولهذا السبب وجد نفسه غير جدير على منحها الحُب، فلن يستطيع نزع هذا الغشاء بعيدًا عن عقله. تركها وجلس على الطرف الآخر من الكنبة وأخذ يبكي.

قالت له "ليلى" وهي تبتسم وكأنها تحدث ابنها: - هيَّا! دعنا نذهب إلى السرير، فعلينا الاستيقاظ مُبكرًا.

الفصل السادس عشر

على الرغم من أنها الساعة الحادية عشرة مساءً، فإن "لاروشيل" لا تزال مُشرقة.

والآن مرَّ أسبوع منذ افتراقه عن "جوران"، وبعد مشاهدته فيلمًا في المهرجان. أحب "يعقوب" الجلوس على أحد المقاعد على الشاطئ ومُشاهدة المُحيط، وعندها شعر بتعب يوم طويل، أخذ يُحدِّق في سطوع السماء الصافي وتوق إلى رؤية الليل الذي بدا وكأنه لن يأتي. ومثل باقي المُدن التي تتقاسم خطوط العرض نفسها مع "لاروشيل"، كان منتصف الليل بالكاد يُغطي المدينة بالظلام.

وها نحن بصُحبة "يعقوب" مكسور القلب الذي اكتشف أنه كان مُخطئًا بشأن "ماركيتا"؛ فعلى كل حال، انحدر "يعقوب" من أصولٍ صارمةٍ ومُحافظة تؤمن بأن الحُب هو وعد من طرفين. وبالنسبة له، كانت لحظة مشاركته ل"ماركيتا" خاصة جدًّا لدرجة أنه تمنى أن تصبح هذه العلاقة بمثابة ولو ذكرى صغيرة في حياتهما قبل أن ينسيا تلك اللحظة.

لدينا حقيقة أخرى حزينة، وهي أن "يعقوب" اتصل ب"ليلى" بعد ساعتين بعد قيامه من رفقة "ماركيتا"، وبعد جلسة مُتعبة للبحث عن الروح.

أخبرها "يعقوب" وهو يجهش بالبُكاء:

- لقد حدث أمر فظيع.

ثم حكى لها كيف قابل "ماركيتا"، ووقع في حُبها فسألته "ليلى":

- وماذا يعني ذلك؟

- إنه أمر فظيع، لقد خدعتك.

فبدأت "ليلى" تضحك في التليفون. لم تكن غضبانة أو منزعجة، بل اكتفت بالضحك، وبسبب ضحكاتها، لم يعرف "يعقوب" ماذا يفعل، وبدأ يطمئن "ليلى" بإخبارها أشياء تثبت تأدبه.

فقالت "ليلى" وهي تحاول كتم ضحكتها:

- أنا عند الكوافير الآن، سنتحدث في وقت لاحق على أي حال، وأنت حاول الرجوع دون خسائر.

نظر "يعقوب" إلى المحيط وتمنى أن يمر الليل سريعًا، ويمحو نظرة الحُزن المرسومة على وجهه. وذلك لأن عند لقائهما هذا الصباح، أوقفته "ماركيتا" وأخبرته بعض الكلمات التي انحرفت من النصف المفتوح من نافذة غرفته إلى زرقة المحيط غير الموثوق فيها. أخبرته أن الوقت الذي قضياه معًا كان جميلًا، وكان لا بُدَّ وأن ينتهي؛ لأن ذلك هو الأسبوع الأخير في المهرجان وبعدها سيفترق الجميع، وسيكون من الأفضل ألا يرا بعضهما بعضًا من الآن فصاعدًا.

فتعتقد "ماركيتا" أنه عندما تتحول العلاقات المؤقتة الدولية لعلاقات جدِّية، تصبح الحياة أصعب؛ فقد حاولت إنهاء علاقتها بعالم نباتات بلجيكي العام الماضي، ولكن الأمر لم يكن سهلًا على الإطلاق؛ فظل يُرسل باقات الزهور إلى "براج" لعدة شهور، وعندما لم يجد ردًا، قرر تهديدها.

لم ترغب "ماركيتا" تكرار التجربة نفسها مع رجل شرقي. أخبرته "ماركيتا" هذا الكلام ببرود وعدم اكتراث للحال الذي سيُصبح عليه "يعقوب" بعدما يُغادر الغرفة.

فسألها "يعقوب" وهو يُحاول بصعوبة تخيُّل عالم النباتات البلجيكي:

- ألا توجد أي طريقة ترجعك عن ذلك القرار؟

- أوه. يا عزيزي، للأسف لا توجد، فليس لديَّ أي استعداد لارتداء الحجاب.

ومن ناحية أخرى، كان المهرجان يُوشك على الانتهاء، ولم يتبع الطلاب العرب البرنامج وكرَّسوا أنفسهم لمشاهدة كرة القدم والبنات السلافية، وقد انضم إليهم "جوران" الذي فقد الأمل من مصاحبة "يعقوب"، وقضوا أوقاتهم في مشاهدة كرة القدم والسباحة مع الفتيات ولعب الكرة.

شاهدهم "يعقوب" تحت شمس المحيط التي رفضت المغيب. وضعوا شبكة المرمى على بُعد عشرين مترًا من خط الساحل، وتألف أحد الفرق من المراهقين المحليين، بينما تألف الفريق الآخر من العرب والأوكرانيين و"جوران" الذي شغل مركز حراسة المرمى بجسده الضخم. لم يقل أي شيء عندما وبخه الآخرون لعدم قدرته على إنقاذ الأهداف، وفجأة، اكتشف "يعقوب" أن هناك قلبًا يُمكن كسره تحت ذلك الجسد العملاق، وشعر بالغثيان حيال وجوده في ذلك العالم كما شعر بتأنيب الضمير.

يجب أن يعلم "يعقوب" جيدًا أن "سارتر" كاتب "الغثيان" قد قضى بضع سنوات من شبابه بمدينة "لاروشيل"، وبالتأكيد أنه قام ببعض الأبحاث في مكتبة الجامعة، وربما كانت لديه أحلام يقظة عن ذلك المُفكر وهو طالب في مرحلة المراهقة، وهو يتمشى بطول الساحل في يوم صيفي ويُقابل الأطفال وهم يحاولون عبور الصخور. لا أعلم لماذا ولكن تروقني فكرة تخيُّل "سارتر" الصغير وهو جالس بجوار "يعقوب"، ويستمع لمشكلته مع "ماركيتا" وهو يلعب بحصاة صغيرة في يده. وفي الوقت نفسه، سيسمح العملاق "جوران" بمرور هدفين أو ثلاثة وستقترب الشمس من الأفق بصورة أكبر، وسيلاحظ "يعقوب" نقاش "جوران" مع زملائه العرب. ثم ستغرب الشمس تاركة وراءها منظرًا خلابًا وستنتهي المباراة بحلول الظلام، وبعد مرور عشر دقائق، أتى "جوران" مبتلًا وجلس بجوار "يعقوب"، فقد قفز في المياه مثل باقي رفاقه بعد نهاية المباراة.

قال "جوران" وهو يبحث عن شيء ما في حقيبته:

- هؤلاء العرب صاخبون جدًّا، وسينتهي الأمر بي إلى قتل واحد منهم.

وبعد مزيد من التفتيش، أخرج "جوران" من حقيبته سيجارتين من سجائر ال"جيتان" الفرنسية، وأعطى واحدة ل"يعقوب".

كان المراهقون العرب يسخرون من "جوران" ومن تحركاته في المباراة من على بُعد، وعندما اهتز واقفًا، فرُّوا كالطيور؛ وعلى الرغم من أن "يعقوب" اعتاد رؤية الحزن على وجه "جوران"، فإن هذه المرَّة كان وجهه مُبتهجًا.

قال "جوران" ل"يعقوب" وهو ينفخ دخان السجائر بعيدًا:

- "إلما" تحبني.

- هل صرحت لك بذلك؟ - أنت تعلم جيدًا أن الفتيات المسلمات لا يصرِّحن بشيء. ولكنني أرى ذلك.

كان "جوران" في حاجة إلى صديقٍ ليتحدَّث إليه، ويشاركه فرحته المُتفجرة، ويتظاهر عليه قليلًا. ولكن، منذ أن قالت "ماركيتا" تلك الكلمات، تراكمت الغيوم فوق رأس "يعقوب"، فلم يكن لديه القوة للتعامُل مع قصص حب الآخرين، وقد فهم العملاق الصربي ذلك وأبقى فرحته لنفسه.

فعلى الرغم من ذكائه المحدود، فإن لديه غرائز قوية. قد لا يفهم لماذا يشعر "يعقوب" بالإحباط، ولكنه يعلم أن كلماته ربما تتسبَّب في جعله ينزف، وبحزن شديد كحزن أهل دول البلقان في أثناء فترة الحرب. سارا ببطء ناحية المطعم الذي يتناولان فيه الطعام كل ليلة.

الفصل السابع عشر

بحسب معايير الجمال التي وضعتها مجلة الأزياء، لم تكن "إلما" صارخة الجمال. كانت طويلة جدًّا، ولم يكن لديها الأناقة التي تعوّض ذلك، وتمشي بطريقةٍ كأنها مولودة منذ خمس عشرة دقيقة. شعرها المُجعَّد المُمتد حتى خصرها فوضوي الشكل، والميزة الوحيدة التي لا يُمكن إغفالها هي تعبيرات وجهها، كانت تنظر إلى العالم بعيونٍ دامعة، ربما وُلدت بها وربما اكتسبتها من آلام الحرب.

وبالنسبة ل"جوران"، كانت تلك العيون هي السبب في تدميره، وبفضل خيالاته، وجد طريقًا لربط ماضيه بماضي الفتاة. كانا في العُمر نفسه، وكلاهما قد ذهب مع عائلته في إجازة إلى شواطئ الدلماس قبل عشر سنوات، فلربما أقاموا في فنادق مُجاورة، وكلاهما تذكَّر تلك السيدة الألبانية التي كانت تبيع الآيس كريم، وتشغِّل الأغاني المنتشرة حينها.

كما كان ابن عم "جوران" يعيش في "سراييفو" قبل الحرب، وتحديدًا في "بريكا"، المقاطعة نفسها التي عاشت فيها "إلما" وعائلتها.

وبالتالي لا يوجد أدنى شك في أنهما خلقا لبعضهما بعضًا.

قبل نهاية المهرجان بأيام قليلة، وبعد تناول العشاء، قاما بدعوة زملائهم الأتراك ليسيروا معًا، وكانت وحدة "يعقوب" قد ازدادت أكثر فأكثر. لم يعُد يُشارك في أي نشاط خوفًا من مُقابلة "ماركيتا"، وبدلًا من ذلك، كان يستأجر دراجة من مركز المدينة ويقودها دون وجهة معينة تحت الشمس، وهكذا عرف كل شوارع مدينة "لاروشيل"، ولكن الألم الذي أصاب قلبه لم يزُل، كلما التقيا في المطعم حيث يتردد الطلاب أو في مصعد النزل، نظرت إليه نظرة تؤلمه.

كانت نواياه حسنة وبذل قصارى جهده للتفهُّم، فكان يُبرِّر أنها تتصرف كذلك حتى لا تمنحه أي أمل، ثم حاول أن يتكلم مع نفسه ويأخذ في الاعتبار الاختلافات الثقافية بينهما، وانتهى إلى أنه يُحاكي رجل الأناضول الذي يعتبر أول امرأة يقيم معها علاقة هي شريكة حياته، وهكذا أتيحت له الفرصة لمعرفة كيف يمكن لشرايين القلب أن تتشابك مع همسات العقل وتقود الشخص للهُراء.

كان كما لو أنه ابتلع حفنة من الحصى؛ فيشعر بالغثيان حقًا.

بينما كان يتمشى بصُحبة "جوران" و"إلما"، رأى ظلال شخصين تحت الأشجار. كانت الشوارع ممتلئة بالناس؛ لأن فرنسا تشهد مباراة الكأس.

قاد المراهقون السيارات وهم صابغون أجسادهم بعلم البلاد، وكانوا يستمعون إلى الموسيقى المُبهجة، كما امتلأ الشاطئ بمشاعل البهلوانات، وعندما جاءت الكشافات على وجه الشخصين المُختبئين تحت الأشجار للحظة، لمح "يعقوب" وجه "ماركيتا"، وتعرَّف على البلوزة التي كانت ترتديها في المرة الأولى التي مارسا فيها الحُب معًا. كانت جالسة على المِقعد بجوار الظل الآخر، ثم سحبت ذلك الظل من شعره ناحيتها وقبلته في الظلام، ومع كل خطوة كان يقتربها "يعقوب"

ناحيتهما، يُدرك أنه سيشهد قبلة ليس لها نهاية. كان الظل هو خيال "أندريه"، وكان الموتوسيكل الخاص به اللعين بجوار المِقعد.

كانا يُقبلان بعضهما بحميمية جعلت "يعقوب" ينظر بعيدًا، وقد لاحظ أن إحراجه هذا يُشبه ذلك الإحراج الذي انتابه عندما رأى مشهدًا رومانسيًّا في فيلم مع والدته عندما كان طفلًا. ولكن ما رآه لم يتحول إلى ألم في وقتها. فهناك مسافة كبيرة بين العين والقلب؛ فكان يحتاج للوقت حتى يحترق قلبه لما رأته عيناه.

وكان من الممكن أن يذهب وكأن شيئًا لم يحدث. إذا لم يتواجد "جوران" لمشاهدة ذلك، فلا أحد يُحب أن يراه الناس في مثل هذه المواقف المُحرجة، حيث نشعر بالذل والحماقة. لا يوجد رجل يُفضل وجود شخص رابع في الغرفة عندما يكتشف خيانة زوجته له مع غيره. إنها بمثابة رصاصة، لا أحد يمكنه سرد مثل هذه الأشياء إلا بعد التصالح معها، فعندما نكتشف خيانة شخص ما لنا في وجود شهود آخرين، فإننا نحاول أن نرى الموقف من خلال أعين الجميع، ونحاول أيضًا معرفة ما يفكرون به.

في الواقع، إنها لحظة لا تتطلب التعاطف، ولكن لا نستطيع إيقاف أنفسنا، فنفكر في الأسئلة التي تجول خواطرهم:

كيف انتهى بنا الحال مع شخص كهذا؟ حسنًا لقد حدث الأمر، ولكن كيف لم نتمكن من اكتشاف خيانته لنا؟ ربما ثمة شيء خطأ بداخلنا؟ أهو ضعف؟ أم عمى؟

أم عدم كفاية؟

وبطبيعة الحال، نفقد وجهة نظرنا؛ فنصبح مشغولين باكتشاف وجهة نظرهم حتى نفقد وجهة نظرنا نحن، ثم يبدأ الغضب في التصاعُد، فيبدأ عقلنا الحائر في تكوين العداء تجاه الشهود. والأسوأ من ذلك أنه كذب وافتراء؛ فعادة ما يشعر البشر بفرحة طفولية عند اكتشافهم تعرض شخص ما للخيانة.

ومن حظ "يعقوب" أن الشخص الذي شهد تلك الخيانة معه هو "جوران"، ولأن "جوران" لا يمكنه التفكير في أمرين في وقت واحد، فقد اكتفى بالغضب. ذلك الغضب إضافة إلى طعم الحب الذي ذاقه "جوران" مؤخرًا دفعه لزيادة غضبه، وبالكاد استطاع "يعقوب" و"إلما" إيقافه عن ضرب هذين اللذين يُزعجان صديقه.

وحتى بعدما عادوا أخيرًا إلى نزلهم، ظل يخور مثل الثور، واضطرت "إلما" لتهدئته وإقناعه بالجلوس، واضطر "يعقوب" لشراء البيرة من المُوزع لتهدئته. ولكن النظرة التي كانت على وجه ذلك العملاق الصربي لا توحي بأنه سيهدأ بكلام معسولٍ أو زجاجة من البيرة. كان غضبه كبيرًا جدًّا لدرجة أن شعور "يعقوب" نفسه بدا غير ذي صلة مقارنة بغضب "جوران"، وعندها جلست "إلما" بجانبه ونظرت إليه بإعجاب، وفجأة فهم "يعقوب" هذا المشهد؛ فأدرك أنه يعرف القليل عن "جوران" على الرغم من ارتباط "جوران" الشديد به.

جذب "يعقوب" زجاجة البيرة من يد "جوران" وقال له:

- هيَّا يا "جوران". أخبرنا عن نفسك.

- لماذا؟ - أقصد كيف كانت حياتك في يوغسلافيا؟ ماذا يعمل والدك؟ - ليس لديَّ أب. - أوه. أنا آسف. - لا عليك. أنا لا أتذكره جيدًا، فقد توفى وأنا صغير. - حسنًا، كيف كان والدك؟ - كان شخصًا مهمًا في أثناء فترة تولي المارشال "تيتو"، وكان يعمل لصالح الحكومة. - موظف حكومي؟ - شيء مثل هذا. لقد مات وأنا في الثالثة من عمري، وبفضله لم يكن لدينا أزمات مالية ولكن عندما اندلعت الحرب، أرسلتني أمي إلى موسكو عند عمي لدراسة السينما. - هل كنت هناك وقت الحرب؟

- نعم.

قالها "جوران" وهو يشعر بالحرج من "إلما". لقد كنت أدرس السينما هناك، ومؤخرًا أتت أمي إليَّ ثم عدنا إلى "بلجراد" منذ ثلاثة أشهر.

- وماذا تفعل في "بلجراد" الآن؟ - أقضي فترة الإجازة. وعندما تبدأ الدراسة سأعود مُجددًا إلى روسيا. - وكيف حال المدرسة معك؟ - لا أعرف.

قالها "جوران" وهو يضحك بعصبية.

- صعبة قليلًا، ما زلت في المرحلة الأولى، شرائط أفلام، أنواع كاميرات وإضاءات، لا يمكن لعقلي أن يستوعب كل هذا. هل يمكنك إعطائي البيرة؟

أعطاه "يعقوب" إياها وعمَّ الصمت. كانت "إلما" تنظر إلى الأشجار المُترنحة بسبب الرياح.

أصبحت الليالي معدودة في "لاروشيل" الآن. في غضون وقت قليل، سيرحل الجميع، كلٌ إلى وجهته، وعلى الرغم من معرفتهم لبعضهم بعضًا لثلاثة أسابيع فقط، سيحتضن هؤلاء المراهقون بعضهم في محطة القطار وكأنهم أصدقاء منذ زمن طويل، وسيتبادلون العناوين وأرقام التليفون.

وبعد عودة "يعقوب" إلى إسطنبول، سيشعر بالارتباك. فلربما يذهب ليشتري كُتبًا لتحسين لغته الفرنسية، ويقرأ أخبار خارج البلاد بحماس، وربما يُرسل بعض البطاقات البريدية من "جراند بازار" أو "برج الفتاة" لبعض العناوين التي أخذها في المحطة، وربما يقوم أحد المراهقين العرب بإرسال بعض الصور الجماعية التي أخذها. ولكن لن تتمكن أي صورة منهم في محو تلك الأيام التي قضاها في "لاروشيل" من ذاكرته، ثم يستعيده مصير عائلته ويُصبح غير قادر على مغادرة بلاده مرة أخرى.

نظر "يعقوب" إلى "جوران" و"إلما" الجالسين بجوار بعضهما. اثنان فرقتهما الحرب وجمعهما المحيط، يا لجمالهما الأخاذ تحت الضوء المتسلل من باب النزل، ولكن قبل أن يستمتع بأفكاره،

ظهر خيال شخصين في الظلام. في الواقع، كان الخيال لشخصين ملتصقين فبدوا وكأنهما شخص واحد ذو رأسين.

اقترب الوحش ذو الرأسين ليتضح أنه "ماركيتا" و"أندريه"، فكان يضع ذراعه حول خصرها وكانت تضع رأسها عند عنقه، وعندما سأل "يعقوب" نفسه كيف سارا معًا بهذا الوضع، شعر بحفنة الحصى التي تؤجج معدته بالغثيان مجددًا.

عندما دخلا من مدخل النزل ووجدا "جوران" و"إلما"، تصرفا كما يتصرَّف أي زوجين عند رؤية زوجين آخرين، فقاما بالتلويح لهما. كان هناك تفاهم وتواطؤ وطرب في هذه التحية؛ فكانت بمثابة قصيدة عن الليل وما منحه إليهما.

كان الزوجان اللذان سيكونان في أوج عاطفتهما تحت ملاءات السرائر في غضون خمس عشرة دقيقة يباركان زوجين آخرين سيفعلان الشيء نفسه.

قبض "جوران" على يديه ونظر ناحية الظلام حيث كان "يعقوب"؛ فأصغر إشارة منه الآن ستكون كافية ليفعل "جوران" ما كان سيفعله عند المقعد على شاطئ المحيط.

ولكن "يعقوب" لم يكن هناك. وهبَّت رياح المحيط حيث كان واقفًا منذ لحظات.

الفصل الثامن عشر

دعونا نتخيَّل "يعقوب" في ظلام الليل، يقود درَّاجته على الطريق الذي يربط مركز المدينة بالشاطئ، ودعونا نتغافل عن سؤال كيف ذهب إلى هناك أو أين وجد دراجة، فلنأخذ المشهد كما هو، قد يصبح الأمر لطيفًا، وإذا كان لا بُدَّ أن تعرف، فإنه سافر عن طريق ركوب السيارات المارة على الطريق مجانًا، واستأجر الدراجة من محل ما.

ولاستكمال المشهد، كان القمر ساطعًا بالأعلى؛ فبالكاد نستطيع سماع تقدُّم الدراجة على الأسفلت، وكان "يعقوب" يرتدي السُترة المُقنَّعة التي وضعتها له أمه في الحقيبة. فكان يبدو كهؤلاء الأطفال المشاركين في نهاية فيلم "إي. تي" E.T، وكأن العجلات ستُقلع الآن وتطير ناحية القمر المُكتمل بحركة بطيئة.

ولكننا لسنا في حاجة لهذا المشهد الآن. ولا يزال بإمكاننا أن نُفكِّر أن هناك شيئًا يموت بداخله، ويؤلمه. فربما ينقسم الشباب في حد ذاته إلى مراحل، وهناك لحظات مُعيَّنة تنتهي فيها مرحلة وتبدأ أخرى؛ فتتراكم هذه المراحل وتحملنا لمرحلة البلوغ. يمكننا تشبيهها بمراحل التصوف التي ربما تروق ل"يعقوب"، حيث يقترب الشباب من مرحلة البلوغ بالطريقة نفسها التي تمر بها روح الدرويش عبر مراحل حتى تصل ذات يومٍ إلى السماوات العُليا وتحقق الوحدانية، ولكننا لا ينبغي أن نسلم لهذا التشبيه لأن هناك فرقًا؛ فالوحدانية التي تنتظر الدرويش هي هبة من الطريق الذي اتخذه طواعية، ولكن مرحلة البلوغ هي مسألة اختيارية سواء أردناها أم لم نردها، وكلما اقترب المرء منها، تأتي كل مرحلة بانفصال وكل انفصال تصاحبه معاناة.

ولأن الحياة مُغرمة بالمُفاجآت، فلا أحد يعلم متى ستحل عليه الانفصالات. يمكن أن يحدث أي شيء في أي وقت، ونصبح نحن غير ما كنا عليه في السابق، فننظر للعالم من منظورات مختلفة. لا نواجه الأوجاع أو الأفراح نفسها.

تصبح روحنا مُغطاة بقشرة زائفة، وتصبح الأشياء التي نتجنبها أقل إيلامًا، ويستمر بريق الأشياء التي تمُدنا بالفرح في التضاؤل أيضًا.

والآن، يركب "يعقوب" دراجته التي حصل عليها بطريقة أو بأخرى على طول الساحل، ولن يُكرر ضيقه هذا عندما يتعرض للخيانة في المرَّة المقبلة.

باتباعنا نمط التفكير المذكور سابقًا، يمكننا أن نجزم أنه لن يشعر بسعادة مثل التي شعر بها عندما خلعت "ماركيتا" حذاءها ووضعته حول رقبته، ولكن "يعقوب" يدرك تمامًا مشاعره الآن، حيث ينتابه حُزن ناجم عن الرياح التي تهب في وجهه، وإجهاد يُسيطر على ساقيه، ورغبة قوية في البُكاء نتيجة الألم المُتزايد في قلبه.

دعونا نتوقف هنا ونشاهد انحراف الدراجة بعيدًا. والأفضل من ذلك، دعونا نترك هذا الشاب الصغير الذي يقود بسرعة كالمجنون يمر من جانبنا حتى يصغر حجمه ويختفي في الطريق

السريع، وعندها، سيصبح نقطة يمكننا تخطيها، ولاحقًا، ستختفي هذه النقطة وسيمضي "يعقوب" قُدُمًا بالسرعة نفسها ناحية سن البلوغ. مرحلة بلوغه، نعم. فمثلما قرأ في قصيدة ذات مرة عندما كان برفقة "ليلى" أنه من المستحيل قهر الوقت.

الفصل التاسع عشر

كان يوم الثاني عشر من يوليو عام 1998 يومًا لطيفًا على الجميع. تم تنظيم حفل وداع للطلاب الذين شرَّفوا "لاروشيل" من خلال إقامتهم به خلال الثلاثة أسابيع الماضية، وقد أقيم الحفل على متن قارب كان يرسو على رصيف الميناء المُقابل للسينما، ونتيجة لذلك، ومنذ صباح ذلك اليوم، انشغل "برونو" وعدد من رفاقه في التجهيز لذلك الحفل الذي سيُقام مع غروب الشمس.

انزعج "برونو" كثيرًا لعدم قدرته على التفرقة بين الأضواء الملونة التي تزين سطح السفينة فقط، ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك فقط، بل وجد أن عليه أن يُناقش قبطان القارب بشأن اختيار الطعام الذي سيُقدم في البوفيه وكذلك الموسيقى التي سيتم تشغيلها خلال الحفل، مما جعله يشعر بالملل. لم يكن "برونو" قادرًا على تحمُّل مثل هذه الأعمال، ولو كان الأمر بيده، لأبقى نفسه بعيدًا كل البُعد عنها.

وقد لعبت مباراة نهائي الكأس بين فرنسا والبرازيل دورًا مهمًّا لجعل اليوم أكثر تميزًا؛ فكانت الدولة بأكملها تتابع المباراة بشغف ترقبًا للنتيجة.

وهو الأمر الذي دفع "برونو" ورفاقه للتفكير في تغيير موعد الحفل، ولكنهم تراجعوا عن فكرة التأجيل، فلم يشتمل الحفل على أي مدعوين من الجانب الفرنسي أو البرازيلي، علاوة على أنه لم يكن مُتوقعًا أن يُفضِّل أحد كرة القدم على الفن.

- لديَّ إحساس بأن ثمة شيئًا سيئًا سيحدث الليلة.

استدار "يعقوب"، الذي كان يراقب الغروب على سطح القارب، ناحية الشخص الذي تفوه بتلك الكلمات ليتفاجأ بأنها "عايدة"، التي كانت ترتدي فستان سهرة أحمر اللون، وكان شعرها المُجعد الأشقر منسدلًا على أكتافها العارية، لم يكن فستانها طويلًا إلى الحد الذي يُغطي ركبتيها، كاشفًا بذلك عن ساقيها اللتين تبدوان وكأنهما نهران بلقانيان ينتهيان عند زوجٍ من حذاءٍ عالي الكعب، وطلت أظافر قدميها ويديها باللون الأحمر. وفي تلك الليلة، وبعد أن قضتْ سنوات الدراسة دون أن تلفت الأنظار إليها، أجبرت الجميع على الوقوع في حبها ذات ليلة موسيقية.

فسألها "يعقوب":

- ما الذي يدفعكِ لتقولي هذا؟

- "جواد" يُتمتم منذ الصباح، لا يُفكر بالخير تجاه صديقك العملاق "جوران"، كما أننا تناولنا بعض كؤوس البيرة في المساء، أخشى أن يكون سكران، ولن يتمكن من التخلص من آثار المشروب. - وبرأيك ماذا يجب أن نفعل؟

- لا تسئ فهمي. فأنا أعرفه منذ أن كنا في المدرسة الثانوية، فهو لن يؤذي أي شخص، ولكن بسبب بعض الحوادث التاريخية التي لا تعلم عنها شيئًا ولن أتكلم عنها، تسببت في جرح عميق في

روحه. مثلنا جميعًا. هل تفهمني؟ هل أتحدث ببطء أكثر؟

قال "يعقوب" وهو يحاول أن يُجاري لغتها الفرنسية المندفعة.

- لا أفهمكِ جيدًا.

- يجب فقط أن تعرف أن هناك أكثر من ثلاثمائة امرأة حملن وذهبن إلى الغابات المحيطة ب"سراييفو" لإجهاض ما بأرحامهن، وذلك بسبب اغتصابهن جميعًا خلال الحرب، فلن يتمكنّ من حمل رائحة مَن دنسوهنّ، وبعضهن متن بسبب النزيف الداخلي. - أعتقد أنني قرأت عن ذلك. - حسنًا. كانت شقيقة "جواد" الكبرى واحدة من تلك الفتيات اللاتي توفين؛ فعندما اندلعت الحرب، لم تتمكن من مغادرة البلاد، فأخذوها إلى مُعسكر الاعتقال. - شيء فظيع. - وكذلك فالبقاء تحت الحصار لفترة طويلة لديه آثار سلبية على أرواحنا، ويحاول "جواد" التعامل مع كل هذه الأمور. - ولكن ما ذنب "جوران" إذًا؟ فهذا الطفل المسكين لم يكن موجودًا في البلاد وقت الحرب. - أعرف. فقد أخبرتني "إلما" بهذه المعلومة. في الواقع، لم يعد الكثير من الناس يحمل العداوة لسكان "سراييفو" هذه الأيام، فلدينا جيران صرب نراهم باستمرار. الجميع منشغل بأعماله، البعض فقط يكره هؤلاء القتلة كما هو حالنا، ولكن "جواد" لا يمكنه التحدث معهم، فهو بحاجة لمزيد من الوقت حتى تشفى روحه. - نعم. فهو في موقف صعب جدًّا. - هناك شيء آخر. - ماذا؟ - "جواد" يُحب "إلما"، فقد وقع في حُبها سرًا منذ اللحظة الأولى، ودائمًا يقول إنها هي التي منحت حياته معنى، وكان يكتب لها خطابات على ضوء الشموع في أثناء القصف، وكان يعيش حالة الحُب بمفرده إلى أن تأتي اللحظة المناسبة التي يُصارحها فيها، وعندما تأكدنا من مجيئنا إلى هنا، اعتقد أن ذلك هو أنسب وقت لإخبارها على شاطئ المُحيط الأطلسي. - لقد ساء الوضع جدًّا. - إنها المرَّة الأولى منذ انتهاء الحرب أراه في هذا المأزق. لقد كانت تجربة غريبة بالنسبة له. - ولكِ كذلك؟

قالت "عايدة" وهي تمسك سيجارة كسيدة ممتلئة بالأنوثة ليشعلها لها "يعقوب":

- الأمر ليس مُعقدًا بالنسبة لي؛ فأحد أجدادي ذو أصول صربية، وربما لذلك يُمكنني التعامُل مع الأمر ببساطة، وكذلك لن يؤذي ذلك الفتى العملاق "جوران" أحد حتى لو أراد ذلك. يمكنك رؤية ذلك في عينيه.

نظر "يعقوب" إلى الدخان المُكثف الخارج من سيجارة "عايدة" وقال:

- نعم أرى كذلك.

فقالت وهي تنفخ دُخان السيجارة بشكل مُهذب:

- لا أعتقد ذلك. هل تودُّ الرقص؟

لُعبت واحدة من أغاني "فرانسيس كابريل" على سطح القارب المُمتلئ. كان يُغني: "أحببتك، وأحبك، وسأظل أحبك دائمًا". كان يغني هذه الكلمات الرقيقة بطريقة تجعل مَن يسمعها يشعر وكأنه

يسمعها للمرَّة الأولى، وفي البداية، كان "يعقوب" و"عايدة" أول مَن تواجد في حلبة الرقص، وتدريجيًّا وبحلول الظلام، امتلأ القارب بسعادة الطلاب.

كان هناك "عز العرب"، ذلك المغربي الذي على استعداد أن يقع في حب جميع الفتيات. كان طويلًا، ونحيفًا، وفخورًا ببشرته الداكنة. يرتدي بذلة رمادية ويلمع مثل بذلته تمامًا، وعندما بدءوا في تشغيل الأغاني التي تبعث التفاؤل، اقترب برقصة تشبه حركات الثعبان ووقف بين "يعقوب" و"عايدة" مُكونًا شكل مثلث.

فكانت هذه هي طريقته في إخبارهما ألا أحد سيأخذ أحدًا بمفرده هذه الليلة، وعلى طريقة الرجال المحترمين، ابتعد "يعقوب" ببطء عن "عايدة"؛ فكان للمغربي الحق في تجربة حظه مثل باقي الأشخاص.

وفي طرف القارب، كان يوجد بار، وكان الجرسون رجلًا كبيرًا، مثل "سانتا كلوز"، وقد حاول بذل كل ما في وسعه ليختلس الأموال من الطلاب.

بعد خمس دقائق من الضجيج قضاها "يعقوب" في الطابور المُزدحم، تمكَّن من الحصول على كأس من النبيذ الأحمر، ثم صعد إلى سطح السفينة واتكأ على السور الحديدي، وقد حوَّلت الأضواء، التي وضعها "برونو" بطول القارب، المكان إلى ديسكو صغير، مما جعل قرابة السبعة أو الثمانية أزواج يستمتعون بالرقص على أنغام الموسيقى تحت السماء الجميلة المُظلمة.

فإذا رأيتهم، ظننت أن الشباب جنس آخر يشاركنا الكوكب. جنس بريء ليس له ملامح، يحملون الصليب نفسه على عاتقهم، ويؤمنون بالمُعجزات نفسها، ويتبعون الوصايا العشر نفسها، ويبقون أسرى المذاق الحلو للرغبات الدنيوية والشك في وجود الإله؛ فكانوا على شفا قرن جديد ينتظرهم بوحشية، وهم غافلون عن المشكلات التي سيجلبها. والآن، حان الوقت لسماع أغنية "مانو نيجرا" الشهيرة "مالا فيدا" التي قاموا بتشغيلها خصيصى لهم. ل"يعقوب" من "أوسكودار"، ول"هشام" من "الجديدة"، ول"إلما" من "سراييفو"، ول"برونو" من باريس وللفتاة الجميلة التي يُحبها وتعمل جرسونة في مقهى لقرابة الثماني ساعات يوميًّا.

والآن دعونا نستمع لتلك الأغنية.

الفصل العشرين

كل جيل يعتبر نفسه يقع بين جيلين.

والحقيقة أنهم على حق؛ فكل منا يُعتبر بمثابة الجسر الذي يربط بين ما يسبقه وما يلحقه، فهناك نسيج ما يضم الأجيال جنبًا إلى جنب بما يتوافق مع هذا المنطق، والذي ينتج عنه توارث الأعياد الدينية والثأر.

ويُمكننا ملاحظة أن هذه المفاهيم تتوارث من آبائنا إلى أبنائنا دون أن يتمكن شيء من إيقافها. تمامًا مثل ذلك الصمت بين "جوران" و"جواد" والذي نتج عما فعله أسلافهما على جسر "درينا"، ذلك الجسر الذي يقع بين البوسنة والهرسك وصربيا، ومثل الصمت الغريب على جسر "ملابادي"، وذلك الذي يُخيم على جسر البوسفور مؤكدًا المسافة بين قارتين وليس تقاربهما؛ فالجسور حالها حال الأجيال؛ دائمًا تحمل معنى مزدوجًا، فهي لا تربط شاطئين ببعضهما فقط، بل تفصلهما عن بعضهما بعضًا أيضًا، وكذلك الجسور التي تعي تمامًا قوة شيء لا يُمكن إغفاله يمر من تحتها، ألا وهو الوقت.

يمتلك الجيل الذي ننتمي إليه نصيبه من ذلك؛ فنحن نمثل جسرًا وجزءًا من جسر آخر في الوقت نفسه.

العلاقة الشبكية التي ذكرتها من قبل تستدعي ذلك، وعادة ما تتسبب حالة "التمركز بين شيئين" في الشعور بالعُزلة والهزيمة؛ فالأشياء الجيدة إما أن تكون حدثت وإما أنها على وشك الحدوث، ودائمًا يحافظ الأمل والحنين على الإيمان بحدوث تلك الأشياء الجيدة؛ لأن الوقت يحمل روحًا خاصة به، روح تذكرنا دائمًا بالمصير وتهمس لنا أننا نقترب ببطء من جسورنا، ولأن هذه الروح حقيقية جدًّا لكونها موضع ترحيب في أي وقت، فإننا لا نقدرها جيدًا.

أصبحت قيم الأجيال السابقة قديمة مهترئة؛ فنجد أن جدارًا تم هدمه في برلين بعد أن كان قائمًا، وتمثالًا لم يعد له أثر في موسكو، ومجلدات والدك الثلاثة العملاقة الموجودة في مكتبته لم يعد لها تأثير في النفوس، ولا يتذكرها أحد في هذا العالم.

أما نحن، فإننا نقف ونشاهد ذلك كله يحدث بأعينٍ حزينة ولكننا لا نملك من الشجاعة أو الطاقة لتغيير أي شيء، فهناك شيء ما يُخبرنا دائمًا بأن الوقت هو الذي يتجاهل هذا كله، أما بالنسبة لقيم الأجيال القادمة، فلم تتكون بعد، فعندما نبحث عنها على الإنترنت أو نجد عنها بعض الأدلة في مظاهرة ما في الهند، ندرك أنهم لا ينتمون إلينا على الإطلاق، وكأننا نرى علامات فصل الربيع الذي لم يأتِ بعد، ولكننا نحاول أن نأخذ نصيبنا من كل هذا.

كم نتمنى الحُرية لهؤلاء الشباب الصغير الذين يتوقون إليها لتكون خالية من الماضي والمستقبل، وتكون قادرة على الوصول إلى قلوبنا، وحتى إحساس الوحدة الذي ينتابنا نتيجة كوننا عالقين بين شاطئين يمكنه أن يكون مُريحًا بعض الشيء.

ومَن يعرف، فربما سيكون هذا هو شعور "يعقوب" وهو يتنقل من طابقٍ إلى آخر، حاملًا الشرائط في الإستوديو التليفزيوني الذي سيعمل به، بينما ستشعر "عايدة" بقليل من الحُزن والإحباط أثناء وجودها في لندن بعد اطلاعها على ما يلزم لإعادة بناء محبوبتها "سراييفو"، بينما سيحاول "هشام" أن يجد أملًا وهو بين أحضان أول فتاة سلافية يتمكن من دعوتها إلى بلدته المُحاطة بالنخيل، وفي مكانٍ ما مزدحم، وفي أثناء استقبال القرن الجديد برفقة المليارات من البشر سيكتشفون كم هم وحيدين، ولكنهم إخوة؛ فسيجدون أن هذه الأخوة ليس لها سابقة أو لاحقة، لكنها تنتمي فقط لجيلهم الحزين، لو اعتنوا بها، وأشبعوها، سيحافظون على أنفسهم من الوقوع في شعور الوسطية وسيتحولون لبشر حقيقيين.

سحب "برونو" "يعقوب" من ذراعه وقال له:

- تعالَ أعرفك على صديقتي.

كانت الفتاة مُتكئة على السور وفي يدها مشروب، ولها شعر أسود ينسدل على كتفيها وعينان سوداوان لامعتان.

قال "برونو" بنبرة فخر لم يستطع إخفاءها:

- شاركت "آن ماري" في فيلمين سينمائيين من قبل.

- حقًا؟ ما هما؟

فأشارت "ماري" بيدها وقالت:

- لم تشاهدهما من قبل، فكلاهما كانا فيلمين تليفزيونيين، وكانا جزءين صغيرين جدًّا.

عقَّب "برونو":

- لا تستمع إليها. إنها مُمثلة رائعة.

قالت "ماري" مُحاولة تغيير الموضوع:

- ذهبتُ إلى تركيا مرة واحدة.

- حقًا؟ أين ذهبتِ؟ - "كبادوكيا"، "جوريمِه". ومكان آخر لا أتذكر اسمه. - وهل أحببتِها؟ - لا لم أحبها، لأن المكان كان مُمتلئًا بالسُياح الفرنسيين.

فانفجر "برونو" في الضحك.

كانت الشمس تستعد للمغيب، والرقص على سطح القارب وقتها على أنغام أغنيات حديثة من شمال أفريقيا، وعندها حدَّث "يعقوب" نفسه:

"غدًا سينتهي هذا كله، وسيُصبح كل شيء وراء ظهري. وداعًا "لاروشيل". وداعًا "براج". وداعًا "سراييفو". وداعًا".

الفصل الحادي والعشرون

وجد "يعقوب" "جوران" جالسًا في صالة النزل يشاهد التليفزيون، حيث كان يُشاهد العرض الاحتفالي قبل بداية المباراة النهائية لكأس العالم. انعكس الضوء الشاحب المُنبعث من الشاشة على وجهه وأضاء ملامحه، وقد بدا النشيد الوطني البرازيلي المُبهج وكأنه يسخر من الحزن المُسيطر على تلك الصالة الفارغة، وعندما رأى "جوران" "يعقوب" قادمًا، ابتسم وأشار إلى أحد الكراسي ليجلس عليه، ومنحه زجاجة البيرة التي حصل عليها ثم اقتنى واحدة أخرى لنفسه. لاحظ "يعقوب" وجود العديد من الزجاجات تحت الكرسي، ومع كل وسائل الترفيه التي كانت مُستمرة على متن القارب، كانت وحدة "جوران" في تلك الغرفة الكريهة تمس القلب، وعلى كل حال، شكر "يعقوب" ربه أنه وجد "جوران" سليمًا، حيث شعر بالغرابة منذ أن تحدَّث إلى "عايدة".

قال له:

- هيَّا يا "جوران" سنذهب إلى القارب.

فانفجر "جوران" في الضحك فتطايرت البيرة من فمه.

- ماذا؟ هل أنت مجنون؟ المباراة على وشك أن تبدأ. أي قارب؟

- أعلم أنك تريد الوجود هُناك. - لا أريد الذهاب إلى القارب، أريد مُشاهدة المباراة النهائية. أعتقد أن البرازيل ستفوز. ماذا تعتقد؟ - "إلما" تنتظرك هناك. - لا تنتظرني. لقد تحدثت معها. - هيَّا يا "جوران". لا تتصرف كالصبية. - أنت مَن تتصرف كالصبية. هل تعتقد حقًا أنهم يريدونني معهم؟

لم يعرف "يعقوب" كيف يُجيب على سؤال "جوران"، وفي الوقت نفسه، انتهى الفريق البرازيلي من النشيد الوطني، وبدأ نشيد "لامارسييز". ضم "جوران" يديه على صدره وقال:

- أنا لست غبيًّا يا "يعقوب". أرى جيدًا كيف ينظروا إليَّ. اللعنة عليهم جميعًا. مجيئي إلى هنا كان خطأ من الأساس، كان يجب عليَّ البقاء في "بلجراد" ومشاهدة التليفزيون مع أمي وأخي.

فقام "يعقوب" وأطفأ التليفزيون أمام "جوران"، وعندما انطفأت الشاشة، أصبحت الصالة مُظلمة وهادئة، لم يكن هناك أي ضوء سوى ذلك الشعاع الخافت المُنبعث من المصباح الموجود بمدخل النزل.

صرخ "جوران" في "يعقوب":

- هل جننت؟!

وقام واتجه ناحية التليفزيون، فوقف "يعقوب" ليحول بينه وبين هدفه، وقف للحظة دون أن يعلم ماذا يفعل، ثم دفع "يعقوب" بذراعه الضخمة وأضاء التليفزيون، فدفعه "يعقوب" بكل ما يملك من قوة وصرخ فيه:

- مَن يهتم بما يريدون؟ "إلما" تنتظرك. أنا أنتظرك، وستذهب معنا.

فصرخ "جوران":

- ابتعد عن طريقي.

بدأ الاثنان في دفع بعضهما بعضًا. تفاجأ "جوران" بأن خصمه يبدو أقوى مما هو عليه؛ ففي كل مرَّة ردَّ فيها "يعقوب" الهجمة على "جوران"، كان يستشيط غضبًا إلى أن تحول الأمر إلى معركة، وكانا يتبادلان الشتائم بلغة كلٍ منهما الأم، حاولا ضرب بعضهما بعضًا. كانت قوة "جوران" في مواجهة تحمُل "يعقوب".

وأخيرًا، لَكَمَ "جوران" "يعقوب" ضربة مُبرحة جعلته يفقد توازنه وسقط على الكراسي التي أمامه. فارتطم رأسه بأحد الأركان، وارتعش قليلًا قبل السقوط على الأرض.

أصبح "يعقوب" الآن ساكنًا بلا حراك بين الكراسي، وعلى الرغم من الظلام الدامس، فإننا يمكننا رؤية ملامح الذعر الطفولي على وجه "جوران" الذي انطلق مسرعًا ليُضيء الأنوار. ستضاء مصابيح الفلورسنت في غضون خمس ثوانٍ، وعندما يعود "جوران" سيجد "يعقوب" مستفيقًا يدعك رأسه التي تؤلمه.

- سنذهب إلى القارب يا "جوران".

- لماذا لا تستسلم؟ كيف حال رأسك؟ هل أحضر لك الطبيب؟

وقف "يعقوب" مُسرعًا وهو يتأرجح قليلًا حتى استعاد توازنه، ثم أمسك بذراع "جوران" مرة أخرى، وأخذ يدفعه ناحية الباب.

- لماذا تفعل ذلك؟ لماذا؟

- ليس من أجلك أنت. بل من أجل "إلما" التي تنتظرك هناك وهي حزينة. - وماذا ستقول لهم؟ لقد أمسكت بالجزار الصربي!

كانت المسافة قريبة جدًّا بين النزل والرصيف، خاصة بالنسبة ل"يعقوب" الذي كان يسحب "جوران" ذا ال 110 كيلو جرامات أو بالنسبة ل"جوران"، المدفوع بقوة "يعقوب" العنيد.

مرُّا عبر بعض الأبنية الكئيبة، وبعض المنازل التي لا يعرف أحد عنها أي معلومات، وعندما وصلا إلى القارب، كانا في قمة الإنهاك، وعندها، رأى "يعقوب" "جوران" وهو يتغلغل وسط الحشود متجهًا إلى "إلما" ووقف معها لفترة دون أن يعرف ماذا يفعل إلى أن أخذته "إلما" من يديه، وهي مهمومة إلى حلبة الرقص.

كان الفصل الذي بدأ منذ ثلاثة أسابيع على وشك الانتهاء غدًا، إلى الأبد. فمَن يعرف كم المُعاناة التي سيتحمَّلونها لمواصلة قصة حبهم التي بدأت وازدهرت هنا.

الفصل الثاني والعشرون

كانت "عايدة" لا تزال برفقة الفتى المغربي. ذراعا الفتى حول ظهرها الآن. التقت عينا "يعقوب" بعينيها فلاحظ فيهما نداء المساعدة. ربما كان سبب وجوده هنا الليلة هو أن تقضي "عايدة" وقتًا جيدًا، وفجأة، انتابه شعور بالثقة واتجه نحو الوسيم "عز العرب" وربَّت على كتفه، ثم رقص مع "عايدة" لفترة طويلة دون أن ينطق بكلمة واحدة؛ فقد اعتبر "يعقوب" نفسه بمثابة الأخ الأكبر لها. سيحميها من الذئاب ويُعيدها إلى النزل. وجود أجمل فتيات الحفل بين ذراعيه دون إثارة أي شعور شهواني بداخله جعله يشعر بالفخر، وقد كان في حاجة إلى هذا الشعور في تلك الليلة.

- هل تريد أن تتمشى؟

كان الليل قد انتصف. وكان "يعقوب" دائخًا جرَّاء حالة السُكر بعد شربه النبيذ على معدة فارغة، وكانت "عايدة" تحرك يديها لتهوية وجهها وهي تبتسم ل"يعقوب".

لم يتمكن "يعقوب" من تذكر سوى القليل من بين كل هذه اللحظات المرحة؛ فتذكَّر رقصه بصوت عالٍ بصُحبة "جوران" و"إلما" على أنغام أغنية "بريجوفيتش".

لقد كانت لحظات رائعة من المرح لدرجة أن باقي الطلاب وقفوا ليشاهدوا جنون هؤلاء البلقان. وبعدها، لاحظ "يعقوب" أن "جوران" قد اختفى مجددًا، فنظر حوله فلم يجد "إلما" كذلك، فاعتبرها "يعقوب" إشارة جيدة. فإذا لم يأخذها هذا المعتوه "جوران" لمشاهدة المباراة، فسيكونان معًا على الشاطئ.

وفجأة، تذكَّر "يعقوب" وجه "جواد" عند مشاهدته لهما وهما يرقصان من الجهة الأخرى من سطح القارب؛ فكان وجهه مُستاءً وكئيبًا وهو ينظر إلى "جوران"؛ فقد جاء "جواد" كمنبوذٍ، كمسافرٍ مُطارد من قِبل الموت نفسه. جاء مع شقيقته من غابات "سراييفو". أغلق صفحة رغب الجميع في إغلاقها، بعد أن سبح في كوابيس من الصعب نسيانها ولو بعد مئات السنين.

ظل لمدة ثلاثة أسابيع يشاهد الأفلام، ويركب الدراجات مثلما يفعل الجميع، ولكنه كان جسدًا خاليًا من الروح في بلد جعله يعبّر عن تصرفاته في ضوءٍ مختلف.

كان "برونو" بجوار "جواد" يُلوّح بيديه بطريقة تدل على أنه يقول شيئًا فكاهيًّا، وكان "جواد" يومئ وكأنه يستمع، ولكنه في الواقع لم يرفع عينيه من على "جوران" دقيقة واحدة.

عندما تذكَّر "يعقوب" هذا، أصابه اضطراب شديد. جذب "عايدة" من يديها ناحية السلم. أراد أن يجد "جوران" ويضعه في أول طائرة متجهة ل"بلجراد" ويجعله يُقيم هناك إلى الأبد إن أمكن، ومن بين ملايين الخطوات التي خطوها من القارب إلى الرصيف، التقيا ب"أندريه" و"ماركيتا".

تقدَّمت "ماركيتا" خطوة، ورفعت كأسها لتحيّتهما.

- دعونا نشرب نخب العشاق الصغار. يا... قريبًا؟ ألا تستطيعان الانتظار حتى ينتهي الحفل على الأقل؟

فقالت "عايدة":

- سنذهب لنتمشى. كيف حالكما؟

- كيف حالنا؟ عظيم! رائع! فائق الحدود. ماذا يفوق هذه الكلمات؟

فقال "أندريه" وهو يشم رقبتها:

- هائل.

- لا أيها الأحمق، هائل أقل من فائق الحدود.

كان "يعقوب" يعلم جيدًا رائحة رقبة "ماركيتا"، فاستعاد ذلك الحزن الذي انتاب قلبه وعقله المُشوَّش قبل أسبوع.

ولكنَّ ثمة صراخًا انبعث فجأة من ناحية الرصيف، فهز أجفان الليل الساكنة.

قفز "يعقوب" وهرع ناحية مصدر الصُراخ، فرأى الاثنان في المسرح. كان "جوران" جالسًا عند المدخل جاثيًا على ركبتيه واضعًا إحدى يديه على الأرض والأخرى على قدمه، وكانت هناك نظرة اندهاش على وجهه وضَّحتها الأضواء المنعكسة من القارب، فكان ينظر إلى "جواد" بعين مُحدقة، وكانت "إلما" واقفة على بُعد أمتار قليلة ساكنة بلا حراك، وكأنها تمثال جميل، وكأنها تريد تخليد المشهد.

على الرغم من أن "جواد" كان عاقد العزم على أن يضربه مرة ثانية بالشيء الذي في يده، فإن جسده الضعيف توقف وارتعش، ثم ارتخت أصابعه وسقط من بينها شيء لامع، وبمجرد لمسها للأرض، أصدرت صوتًا معدنيًّا سيظل في آذان مَن سمعوه إلى الأبد.

جرى "يعقوب" مرة أخرى واكتشف أن ذلك الشيء هو سكين وأن هناك دماءً مُلطخة على شفرته. انضم كثيرون للمشهد؛ فكان "برونو" أول مَن جرى ناحية "جوران"، ثم تبعته "عايدة" و"فريدة" بالتنانير المزركشة التي تلوح من خلفهما وركعتا بجواره، كما ضج المسرح بأصوات الطلاب القادمين من القارب.

كتَّف "يعقوب" "جواد" من ذراعيه بكل ما يمتلك من قوة. لم يُقاوم "جواد" ولم يدفعه، ولم يحاول تحرير نفسه، فبدلًا من ذلك، بدأ بتمزيق القميص الذي كان يرتديه، عندما تطايرت الأزرار وانقطع القميص، ظهرت ندبة محفورة بطول صدره.

أخذ "جواد" يد "يعقوب" ومررها على الندبة. كانت مُجعدة ووردية كملمس جلد طفل رضيع. شعر "يعقوب" بأن أطراف أصابعه تلمس شظايا جرح تتسبب في شعورك به عند لمسه؛ تزامنًا مع

كونه تذكارًا لأهوال الحرب، وأخيرًا، رفع "جواد" رأسه وصرخ صرخة من قوتها تشعرك وكأنها أضاءت كل ما حولها.

وكأنها أخذت الإشارة من صرخة "جواد"، أضيئت ألعاب نارية مُصدرة أصواتًا عالية في السماء؛ فانعكست ألوانها على المحيط، وقد قبِل المحيط هذه الشعلات على مياهه وطوى جروحها بين طيَّات أمواجه؛ فأدى ذلك إلى انطلاق المزيد من الألعاب النارية وعقِبها اندلعت انفجارات صغيرة، وبدأ الناس في مغادرة منازلهم.

انطلقت الحشود الهائلة حاملة أعلامًا ذات ثلاثة ألوان لتملأ الشوارع في مسيرات، وكان من بينهم أطفال، ونساء حوامل، ورجال مسنون يدفعون زوجاتهم على الكراسي المتحركة، ومحامون، وسماسرة، ومتسولون، ومتنزهون.

ففي المباراة التي انتهت، منذ قليل، أحرز "زين الدين زيدان" اللاعب ذو الأصول الجزائرية هدفين تُوجت بهما فرنسا بلقب بطل العالم للمرة الأولى في تاريخها، فكانت جحافل الناس الذين لا يعرفون "يعقوب" و"عايدة" و"جوران" و"جواد" يسيرون بكل نشاط ويُغنون أغاني النصر، وهم في طريقهم لأكبر ساحات "لاروشيل".

وكأن الجنة التي ذُكرت في الكتب السماوية الأربعة هبطت على الأرض فأشرقت بها السماء.

الجزء الثاني

"ليلى"

الفصل الأول

في أثناء تسكعها في صباح يوم دافئ بشهر يوليو، اندهشت "ليلى" لكونها لا تشعر بأنها المرأة الأكثر سعادةً على قيد الحياة.

هل كان الصداع هو السبب الذي منعها من تحقيق السعادة؟ كانت قد تناولت كأسين من "الكونياك" في الليلة السابقة- فهي تحب شرب الكونياك في وحدتها، كما تناولت أكوامًا من الشوكولاتة الألمانية- تلك الكمية الفائضة من الشهر الماضي.

وفي بعض الأحيان، لم يكن كأسان من الكونياك كافيين لشعورها بالسُكر. نظرت إلى أشجار الليمون المُخبأة خلف ستائر التول وابتسمت.

فأدركت أنها تتقدم في العمر.

لم تشرب "ليلى" تلك الكمية التي تجعل "الكونياك" يُسبب لها صداعًا كهذا؛ فكانت الأخبار التي تلقتها تتطلب إقامة احتفال خرافي يستمر كألف ليلة وليلة، ولكنها لم تدع أي شخص ليشاركها هذا الاحتفال. كان الأمر شخصيًّا لدرجة أنه يصعُب ترجمته لشخص آخر، لذلك لم تفكر "ليلى" في مشاركة الأمر مع أي شخص.

فتحت "ليلى" النافذة وانتظرت رائحة الزعتر لتملأ غرفتها، ثم أغلقت عينيها، وحاولت استشعار السعادة التي تغمرها حينما تشتم هذه الرائحة؛ فدائمًا ما تبعث هذه الرائحة شعورًا بالسلام العقلي، والرغبة في الحياة، والثقة المُطلقة فيما هو قادم، ولكن ما أحسته "ليلى" في قلبها عندما لامست رياح الصباح بشرتها لم يكُن مؤكدًا لتلك المشاعر؛ فكل ما في الأمر أنها أحست بالراحة فقط. فكان الأمر أشبه بتخلصها للتو من أحد الأسنان المؤلمة. ربما لم تكن صبورة بدرجة كافية، حيث أرادت الاندماج مُجددًا في المجتمع، واللحاق بالسعادة التي تنتظرها.

هذه هي القصة؛ تحدثت "ليلى" إلى والدها بالأمس، وعلمت أنه قرر الانتحار.

كثيرًا ما يتحدث كبار السن عن الانتحار، خاصة وعندما يشكون من الإهمال الذي يقترفه بهم أبناؤهم؛ فالانتحار هو أكبر أداة يمتلكونها لاستعطاف الآخرين تجاههم، ولكن الخلط بين ذلك وبين الوضع الذي عليه "ليلى" الآن قد يسبب ضررًا كبيرًا.

كان والدها "فريدون سعيد" البالغ من العمر 68 عامًا، مدمنًا للكحول. سلوكه غير المتزن ملمح أساسي في حياتها منذ أن كانت طفلة صغيرة، فقد تركت بعض الأشياء التي شهدتها خلال تلك الفترة ندوبًا محفورة في طفولتها، وذلك بالإضافة إلى مُعاناته من مجموعة من الأمراض غير المُشخصة، فقد كان يُهاجم كل مَن ينصحه بضرورة الذهاب إلى الطبيب، ويسبب المعاناة لكل من حوله جرَّاء خليط الأمراض العقلية التي لديه. باختصار، كان رجلًا بغيضًا وبالتأكيد سيكون موته بالنسبة ل"ليلى" كإشراقة الشمس في فصل الشتاء.

الساعة الآن السابعة والنصف صباحًا. جلست "ليلى" على حافة سريرها، وهي تنظر من النافذة؛ فهي لا تحتاج أكثر من الوقوف لرؤية المسجد البعيد، والملعب المُقابل لشقتها، واللون الدائم التغيير لسور المستشفى. وربما لن يحجب رؤيتها قليلًا سوى أغصان الليمون. وعندما تجد نفسها جاهزة لبدء اليوم، تذهب لتوقظ "دينيز". يحاول الفتى إغفال أحلامه؛ فتحتاج هذه العيون أن تكون مستيقظة قليلًا ونقية مما يحيط بها وجاهزة للبحث عن سيارة والده في غضون نصف ساعة.

لن يكون "دينيز" شابًا وسيمًا؛ لأن الصفات التي كان من المُفترض أن يأخذها من والده أخذها من والدته والعكس صحيح، فبدلًا من أن يُولد بعين زرقاء كتلك التي يمتلكها "خليل"، وُلد بعين خجولة كتلك التي تملكها "ليلى". وبدلًا من أن يأخذ أنف "ليلى"، فقد أخذ أنف والده الروماني، وكذلك أخذ الجبهة الصغيرة من والدته والحاجبين الملتويين من والده. فنستطيع القول إنه أخذ كل ما لم يرُق لوالديه في وجوههما، ولهذا السبب، تعتبر "ليلى" أن وجهه هو أثمن شيء في الوجود؛ فعندما تنظر لوجهه، تشعر وكأن الطبيعة ترسل لها رسالة.

عقدت العزم على تربية ابنها على أنه طبيعي، فأخذت تصلي كل ليلة ألا يتحول ويُصبح جميلًا جدًّا، أو حساسًا جدًّا، أو موهوبًا جدًّا؛ لأنها تعلم أن بلادها قاسية تجاه الأصالة، كانت ترغب في الاعتدال لابنها، حتى وإن كانت ستصبح بذلك أنانية.

بدأ "دينيز" باللعب بقطعة من الزُبد المُغلف الموجودة على المائدة، وبمجرد ملاحظتها لحركاته الطائشة، بدأت "ليلى" في السخرية منه؛ فأحنى رأسه وضحك ضحكة مكتومة، تسببت هذه الضحكة في هزة بداخل "ليلى". ربما لأنها ذكرتها بأبيها المتوفى الآن "فريدون سعيد". فكلما ضحك، كان يُشبه جده، اندهشت "ليلى" لكونها لم تلحظ ذلك الشبه من قبل، واعتبرت أن هذه هي إشارة أخرى من الطبيعة، فبدأت السعادة التي كانت على الأبواب في الاقتراب قليلًا.

ثم انقطع حبل أفكارها عندما سمعت صوت بوق سيارة "خليل". أخذ "دينيز" الحقيبة التي ظل يرتب فيها بدقة فائقة لعدة أيام وانطلق ناحية الباب.

كان من المُفترض أن يذهبا في رحلة أبوية للمشاركة في معسكر الشباب الذي يستضيفه الاتحاد الوطني للعاملين بمجال التعدين. سينام "دينيز" في خيمة، ويصطاد الحشرات، ويأكل من السمك الذي يصيدانه بأنفسهما، وقد كان "خليل" في عُجالة لبدء الرحلة لدرجة أنه لم يصعد إلى المنزل لتناول كوب من الشاي، لم تندهش "ليلى" لعلمها أن "خليل" شيوعي حقيقي، ومجتهد في تنفيذ المهام المطلوبة منه حتى أصغرها؛ ولذلك أحبه جميع مَن حوله، فهو لم يباغت أحدًا أبدًا.

لوَّح "دينيز" بيديه ليُودع والدته، ثم أغلقا الأبواب وانطلقت السيارة. ظلت "ليلى" تراقب السيارة حتى اختفت عن الأنظار.

الفصل الثاني

هناك دائمًا لحظة تقع بين ركوب المرء سيارته وبدء تدوير المُحرك والتحرُّك بها. عادَة ما يستغلها البعض في ضبط المرايا والمقاعد، والبعض يفعل هذا كله، بالإضافة إلى التفكير في اليوم التالي؛ فالسيارة هي تلك المسافة المُغلقة التي تفصل بين المنزل الذي تركناه والعالم الذي ينتظرنا. تخلق هذه اللحظة شعورًا بالبينية؛ لذلك نفكر في أشياء لم نعتد التفكير فيها من قبل، وفي بعض الأحيان، ينضم راديو السيارة لتلك المُحادثة التي تدور بين المرء ونفسه، فلا يُمكننا تخمين ما الأغنية المقبلة أو أي واحدة ستؤثر فينا؟!

ولتتجنب حر يوليو الخانق، فتحت "ليلى" نافذة سيارتها فتحة صغيرة وبعدها فتحت الراديو واندهشت مما سمعته. "سماعي" عجم لآلة الساز تنبعث من مُكبرات صوت الراديو لتملأ السيارة.

كانت النوتة الموسيقية رقيقة جدًّا كمياه نهر البوسفور. تصرفت "ليلى" وفقًا للاتجاهات الممنوحة للسائقين الذي يجدون أنفسهم غارقين في مياه مضيق البوسفور.

انتظرت "ليلى" حتى ملأت الموسيقى سيارتها تمامًا. لم تفتح النافذة إلا بعد تأكدها من أن الموسيقى لم تعد تحتمل، وتركت نفسها تحت رحمة الذكريات الوافدة تمامًا كأمواج مياه البوسفور.

تُعتبر "ليلى" مُستمعة مُخلصة للموسيقى التركية الكلاسيكية، ومع ذلك فهي تحب أيضًا الموسيقى الشعبية. حيث تحتفظ في منزلها بأعمال "روحي سو"، و"فيسيل" المتبقيين من أشياء "خليل" بالمنزل. في بعض الأحيان، تنظفهما من الأتربة وتُبقيهما جاهزين لأي احتفالات كبيرة لا تعرف لها وقتًا محددًا. ولكن كان بداخلها صوت منذ طفولتها يُخبرها بألا تفقد الأمل؛ فكان ذلك الصوت يُطمئنها أن العالم سيغير مساره ذات يوم وسيمنحها أشياء تستحق الاحتفال.

دائمًا ما كانت تؤمن "ليلى" بهذا الشيء منذ طفولتها وحتى عندما كانت تتلقى أخبارًا سيئة من وطنها عندما كانت في منفاها بألمانيا؛ ففي تلك الأيام، كان ذلك البصيص من الأمل يحمل ظلال الأصدقاء الذين لقوا حتفهم والكرامات التي أهينت، ولكن بغض النظر عن ذلك، فهي تُعتبر ناجية بفضل الأمل. هو يعرف جيدًا كيف يتحمَّل امرأة تشكَّل شبابها عبر التاريخ.

وهكذا تنفض المرأة غبار الأسطوانات، عندما نلمس سطح أسطوانة، فلا نلمس الموسيقى التي بداخلها فقط، بل نلمس أيضًا الوقت الذي استمعنا فيه إلى هذه الموسيقى، وتلك الشخصيات التي اعتدنا أن نكون عليها، والعالم كما كان في ذلك الوقت. هذا هو ما تعكسه علينا تلك الأسطوانات القديمة، وهذا هو الحنين، فهو ليس مجرد اشتياق إلى الأيام الخوالي فقط، بل هو اشتياق لما كنا عليه في تلك الأيام.

أخذتها الموسيقى في جولة إلى الماضي، فتذكرت أمسية مُضاءة بضوءٍ خافتٍ، ضوء لا يُمكنه إضاءة شيء سوى مداخل الأبنية. جلست "ليلى" تستمع إلى تلك المقطوعة الموسيقية التي ملأت الغرفة.

"ليلى" التي لم تتجاوز حينها الثمانية أعوام من عمرها، والتي كانت بعيدة عن شؤم المرض الذي لم يحل على منزلهم بعد، حيث لم يكن والدها ذلك الفوضوي ولم تكن أمها تعاني شبح الموت بعد. جلست "ليلى" على مائدة المطبخ ترسم الدلافين وتستمع إلى الموسيقى.

ولهذا السبب، كلما سمعت "ليلى" الموسيقى التركية الكلاسيكية، شعرت وكأنها في المنزل.

وفي ليلة من ليالي شهر أبريل لعام 1981، ركبت "ليلى" و"خليل" قاربًا صغيرًا من "إيفالي". في الواقع، يمكن وصفه بشكل أكثر دقةً أنه كان قارب تجديف، بمُحرك صغير في خلفه، ومن المُثير للاهتمام أن القارب كان يُسمى "كُن مُمتنًا"؛ فاعتبرتها "ليلى" رسالة، ربما كان يجب عليهما أن يكونا مُمتنين لما هما عليه.

كان يجب عليهما أن يكونا مُمتنين لكونهما حُرّين غير مسجونين كالعديد من أصدقائهما، ولأنهما قادران على التنفس. ربما كانت هذه فكرة صبيانية، ولكنها بالتأكيد مريحة في ظل ظُلمة تلك الليلة.

كان القارب يتحرك ببطء ناحية "ميتيليني". يفصل بحر "إيجه" الساكن الماضي عن المستقبل. لم يدخنا، ولم يتحدثا، ولولا أنهما كانا مضطرين لما كانا تحركا أيضًا.

كان يرافقهما اثنان آخران. كان الرجل القصير السمين الذي يوجه القارب يُدعى "جمال"، وعلى الرغم من شعره الضعيف، وبطنه الكبير، فإنه بدا شابًا بفضل النظرة التي في عينيه. كان يتصرَّف بعفوية تجعلك تشعر وكأنه جاء هنا عن طريق الخطأ، والفتاة الشابة التي تحدِّق باتجاه الجزيرة تدعى "بهار"، وعلى النقيض، لم تكن "بهار" هادئة ك"سيمال"، بل كانت متوترة وحذرة، فكأنهما تقاسما دورهما في الحياة بينهما.

مع اقتراب القارب من ميناء "ميتيليني"، أصبحت تركيا بعيدة أكثر فأكثر؛ فكانت خطة "ليلى" و"خليل" أن ينتقلا إلى ألمانيا بعد قضاء بعض الوقت في تلك الجزيرة، وكانت هناك مفاجأة تنتظرهما في المنزل الذي سيقيمان فيه؛ فقد جهز رفاقهما في الجزيرة وليمة على شرفهما، لم تنسَ "ليلى" أبدًا كل ما تم فرشه على مائدة العشاء الزرقاء، فكان يوجد جُبن من "أورفة"، وبقلاوة من "عنتاب"، و"حبوب البحر" من إزمير، وبالطبع كحول "تكيرداج"، وكأنما تمثلت بلدهما بأسرها أمامهما على المائدة.

كان يمكنهما رؤية أضواء "إيفالي" من نافذتهما. يقيمان في منزل يوناني أبيض مكون من طابقين وله رائحة العسل، وكان صوت الراديو الخافت يرافقهما في المنزل، ومن أمامهما، كان وطنهما الذي تركاه وراءهما دون أي ضمان يسمح لهما بالعودة، وبجوارهما كان يوجد رفاقهما الذين حاولوا منح ليلة مريحة على الأقل لهؤلاء المغتربين، ولاحقًا أدركت "ليلى" السبب الحقيقي وراء هذا العشاء، لقد كان احتفالًا؛ لأن هناك أشخاصًا آخرين جاءوا إلى هذه الجزيرة في الأيام التالية، ودائمًا توجد مأدبة في انتظارهم.

ارتفعت الكؤوس بنخب "إيفالي" القريبة- ليست قريبة جدًّا- وأضوائها البعيدة- ليست بعيدة جدًّا- وتم تشغيل مقطوعة "نهاوند".

لقد كانا على شفا الحقيقة التي أخافتهما، ولكن في أثناء استماعها لل"نهاوند"، شعرت "ليلى" وكأنها في وطنها. ربما كان الأمر غريبًا بعض الشيء ولكنه كان كذلك.

قادت "ليلى" سيارتها ناحية الجسر. ساعدت تلك السماء الزرقاء على التنبؤ بأن الجو سيكون حارًا جدًّا. كانت حركة المرور تسير ببطء شديد.

كانت المرة الأخيرة التي سمعت فيها "ليلى" صوت أبيها في تمام الحادية عشرة ليلة أمس، وقد كان سكران فلم يستطع التحدُّث جيدًا. ثم أدركت "ليلى" أنه تناول كمية كبيرة من الحبوب ليموت.

تباطأت "ليلى" وأفسحت الطريق للشاحنة التي خلفها، وكان مذيع الراديو يتحدث عن كأس العالم، وعلى الرغم من عدم إلمامها بكثير من المعلومات عن الطب، فإنها استطاعت افتراض أنه لن يستغرق وقتًا كثيرًا لتختلط الحبوب بالدم، وأنه من الممكن أن يكون "فريدون سعيد" قد مات بالفعل منذ ست أو سبع ساعات.

ذلك الرجل الذي ألقى بظلاله القاسية على طفولة المرأة الجالسة بمقعد السائق قد لفظ أنفاسه الأخيرة.

حاولت أن تتخيل جسده الخالي من الحياة، فربما كان مستلقيًا على فراشه مالئًا الغرفة بموته، وعندها لحق الصمت، الناتج عن الموت والذي يُخيم على المنزل بمدينة "كانديلي"، ب"ليلى". ومع رنين في آذانها، عبرت "ليلى" الجسر متجهة ناحية الصحيفة، حيث لم تكن "ليلى" مُتأكدة إذا كانت هي التي في السيارة أم هو مجرد جسدها.

ولكن ماذا اعتقدت؟ ماذا؟

ربما كان "فريدون سعيد" يحتال على "ليلى" فقط ولم يأخذ تلك الحبوب، لقد كانت تلك الفكرة واضحة وضوح الانفجارات الكبيرة أو ضوء إشارة المرور الموجودة في نهاية شارع ممتلئ بالأشجار، فربما كل ما أراده هو أن تأتيه "ليلى" وتقضي حياتها معه، وكأن الخمس وثلاثين عامًا الماضية لم تكن. فمن المحتمل لو زارته الآن بمنزله في "كانديلي" في تلك اللحظة، لوجدته يجلس بملابس النوم المُخططة ويشاهد التليفزيون؛ فتسبَّبت فكرة أن هذا العجوز يُحاول خداعها في شعور "ليلى" بغصة في قلبها. وبذلك فقد اليوم كل سحره، إذا عاد والدها، الذي جعلها تتعرَّض للتلاعب العاطفي عبر السنين، من جديد بمحاولاته لأخذ روحها رهينة، فإن أفضل ما يمكنها فعله هو الصمت، وحينما يدرك أن خطته قد فشلت، كان سيبعث نفسه من جديد.

يبرع الآباء في جعل أبنائهم بائسين، ولكن "فريدون سعيد" كان متفردًا في هذا الأمر، فلم يكن مدمنًا للكحول ومضطربًا عقليًّا فقط، بل كان ملاحقًا للنساء، ووكيلًا للعقارات الذي اكتشف مؤخرًا كيفية الوقوع في مشكلات مالية، فقد كان أفعى لا يمكن التنبؤ بها، ومن المثير للاهتمام أن اختلاط كل هذه الأشياء معًا جعلته ساحرًا إلى حدٍ ما؛ فقد كان شخصًا يمكنك الحديث معه أحاديث مثيرة، بينما أنت في رحلة طويلة المسافة.

نشأ "فيريدون" في ضواحي مدينة "كومكابي". كان جد "ليلى"، الذي لم تره أبدًا، مقامرًا ماهرًا، وقيل عنه إنه سمع بولادة ابنه بينما كان يلعب القمار ولم يُحرك ساكنًا إلا بعد أن أنهى اللعب؛ فكان تلقيه خبر ولادة ابنه كتلقيه خبر أن لديه ورقة لعب تحمل رقم 7 من فئة القلب الأحمر.

كان "فريدون سعيد" طفلًا ذكيًّا؛ فعندما أدرك أنه بهذا المُعدل سيصُبح خادمًا على أقصى تقدير، لم يبذل سوى القليل ليتقرَّب من والده، بل سلك طريقًا خاصًا به، فهذا الطريق لن يحرره فقط، بل سيجعله واحدًا من أنجح وكلاء العقارات بالمدينة.

كان أسوأ ما قدمه "فيريدون" لأبنائه هو الشعور بالثقة من داخلهم؛ فكانت العبارة التركية الشهيرة "لا تثق في أبيك في هذا الزمان"، دائمًا مضحكة وغير مفهومة بالنسبة ل"ليلى". مُضحكة لأنها تعني أن كل طفل يثق في والده دون قيد، وغير مفهومة لأنه سهل للغاية أن تُسقط أي أب من منزلته المقدسة.

إن الحالة المُسماة ب"الأبوة" لا تجعل الشخص يُعتمد عليه، ومع ذلك، فإن الحاجة للثقة مثل الأخطبوط الذي ينشر أذرعه في كل مكان، فبعض هذه الأذرع تتغذى على الخوف، والبعض يتغذى على الولاء، والبعض الآخر يتغذى على الحُب، ومن أجل أن يموت الأخطبوط، يجب قطع أذرعه واحدة تلو الأخرى، كما يجب ضرب الرأس إلى أن يثبُت دون حركة.

لم يكن "فريدون سعيد" مريضًا، لذلك اتّبع الخيار الثاني، فقد قتل ثقة ابنته برجمها بالحجارة، لقد كان ذلك كثيرًا جدًّا لتحتمله "ليلى" التي حاولت مرارًا حُب أبيها بطريقتها الخاصة، ولكن "فريدون سعيد" كان رجلًا يرد حب المرأة بلعنها، حتى لو كانت المرأة المعنية هي ابنته.

ولهذا السبب كانت "ليلى" سعيدة بوفاته؛ فهذا الموت بمثابة السيف الذي يقطع العُقدة المستعصية صعبة الفك التي تربط علاقتهما.

الفصل الثالث

توجد "ليلى" الآن في مقهى بحي "نيشان طاشي" نحو الساعة العاشرة والنصف صباحًا؛ ذلك لأن السيارة التي كانت تقلها لمقر عملها غيّرت مسارها واتجهت لشوارع "شيشلي". كان الجو في المقهى هادئًا جدًّا؛ فقد كان فارغًا باستثناء شابين يرتديان زيًّا رسميًّا ويقرآن جريدة "فاينانشيال تايمز"، بدا من شعرهما المصفف، والبروش المعلق على صدورهما، وأحذيتهما وكأنهما قادمان من فيلم مافيا. المروحة تدور فوقهما، ولكنها تدور بحزن؛ لأنها تعلم أن فائدتها تنحصر في تقليبها لصفحات الجريدة، وكانت الجدران مُغطاة بملصقات تابعة لعروض البرودواي القديمة، ولسبب من الأسباب، شعرت "ليلى" بالرضا حيال جلوسها في هذا المقهى الذي عادَة ما ينشغل بالنساء الهاويات في "نيشان طاشي". ربما لأن تنفس الهواء دون أي ذكريات يُهدئ من روحك.

قدَّمت "ليلى" طلب إجازة مرضية. إن أسوأ شيء في العمل هو أنه يتحول ببطء ليصبح ضرورة جسدية، فعندما نعمل بانتظام، نظن أننا الأشياء الوحيدة التي تمنع العالم من الانهيار، فكما أن لو كل مكالمة تليفونية لا نجيب عليها في وقتها، أو كل اجتماع لم نحضره يعني أن كوكبنا العتيق يقترب خطوة من النهاية الحتمية، نهاية العالم، ولو تخلينا يومًا عن العمل، فإن العالم سينهار بسهولة تحت تأثير الجفاف، أو انبعاث الطاعون من القبور لمهاجمتنا، ولهذا السبب نملأ الباصات في الصباح.

وبناءً على ذلك، نعمل لمدة عشر ساعات يوميًّا ونتحمَّل سخافات رؤسائنا، وكأننا نحن قلب الآلة العالمية، قلب القوة. هذه الحقيقة البسيطة هي ما تنعكس على أجسادنا القلقة لتجعلها تمتلك جمالًا فاخرًا، وإذا توقفنا في أي وقت، يكون توقفنا لنرى ماذا غيَّر غيابنا في العالم، ونكون كلنا أملا في رؤية أننا تركنا فراغًا بغيابنا. نريد ذلك لنُبرّر سبب وجودنا، ولكن في الحقيقة، تلك المسافة التي نتركها صغيرة جدًّا وعابرة مثلها مثل حياة ذبابة تم التقاطها من برطمان مربى. يبدو أن الأمر كما لو أن الذبابة لم تكن أبدًا في المربى، وأن أصابع القدر لم تلتقطها أبدًا.

وبما أننا لم نعتد على الموبايلات في عام 1998 كما نحن الآن، فإنه من الطبيعي أن تتفاجأ "ليلى" من صوت الرنين المنبعث من حقيبتها. كانت أخت "ليلى" هي المتصلة لتخبرها أنها تحاول الوصول لأبيها منذ الصباح.

- متى كانت آخر مرة تحدثتِ فيها إليه؟ يبدو الأمر غريبًا أن يخرج في مثل هذه الساعة.

- ربما يكون نائمًا. لقد تناولنا الكثير من الخمر ليلة أمس.

- هل عاد للشرب مجددًا؟

- أعتقد ذلك. - ربما يجب. عليكِ الذهاب للاطمئنان عليه.

كانت "ديليك" تصغر "ليلى" بثمانية أعوام وتعيش مع زوجها في "بورصة"، كانت قلقة جدًّا لأن والدها دائم الجلوس في المنزل لا يجيب على اتصالاتها، وكانت غاضبة حيال موقف أختها غير

المفهوم تجاه هذا الأمر، فربما تفترض أن أختها عديمة الإحساس ولا يمكنها تحمل المسؤولية وعلى كل حال، لم تستنفد "ديليك" حبها لأبيها بعد. ربما لأنها كانت تدرس بالخارج ولم تشهد ما كان يفعله بالمنزل، فلم ترَ أبدًا "فريدون سعيد" وهو يضرب والدتها أو وهو يحاول أن يضع رأسه المخمور في الفرن، وعندما تحدثت "ليلى" عن هذه الأمور في خطاباتها، فعلت ذلك بعد تصفية أغلبها. فنشأت "ديليك" في هذه الشرنقة الآمنة بعيدًا عن كل هذه الدراما العائلية.

ومن ناحية أخرى، كانت "ليلى" تشعر بالجرح لأنها تحاول مواجهة كل شيء بمفردها لتُبقي أختها بأمان، التي لم تكن قادرة على إخفاء مشاعر الحب تجاه والدهما، والمضحك في الأمر أنها تشعر أنها تُلام الآن على ذلك من قبل أختها.

- أعتقد أنه فصل التليفون. سأتصل بكِ فور أن أكلمه، لا تقلقي.

قالتها "ليلى" لأختها، وهي تدفع ثمن قهوتها للجرسون.

وفي تمام الساعة الحادية عشرة وثماني وعشرين دقيقة، كانت "ليلى" تتجول في شارع "فالي كوناجي". لم تتجول "ليلى" دون هدف هكذا منذ سنوات. وكانت الشمس تشتد لتوحي بحلول الظهيرة.

كانت قد اتصلت بالمنزل في "كانديلي" ولكنها لم تتلقَ ردًا، مما عزز فكرة موت أبيها لديها متماشيًا مع صورة أبيها في ذهنها؛ فكانت هذه هي المرة الأولى التي يفي فيها "فريدون سعيد" بوعده، وبينما كان التليفون يرن، كان جثمان "فيريدون" راقدًا على السرير في انتظار أن يكسر جيرانه الباب.

الفصل الرابع

جاء ارتقاء "فريدون سعيد" في مجال العقارات بعد عام 1955، تحديدًا في السادس من سبتمبر عام 1955، وفي العام نفسه، شهدت إسطنبول واحدًا من أكثر الأحداث دراماتيكية في تاريخها. فبعد أن جن جنون العامة بعد سلسلة من الاستفزازات والعصابات السياسية، خرَّبوا البيوت وشركات الأقليات، كانت تلك الصور الأبيض والأسود للثلاجات المُحطمة والملابس المُمزقة المنتشرة في "شارع الاستقلال" تشكِّل صورة حزينة، أحيانًا كانت تتخيل "ليلى" والدها في إحدى تلك الصور؛ تخيلته واقفًا أمام النفق في "كاراكوي"، مُتكئًا على الحائط، ويحاول التفكير في كيفية استخدام كل هذا لصالحه، فقد غيَّر هذا الحدث حياته تمامًا؛ لأنه بعد فترة وجيزة، غادر الأرمن، والروم، واليهود المدينة لعدم شعورهم بالأمان وتفرقوا حول العالم، وذلك بعد مقايضتهم منازلهم، ولم يجد وكلاء العقارات الشباب الأذكياء أي سبب يجعلهم لا يستفيدون من تلك العقارات التي سيرتفع ثمنها بمرور السنوات.

عمل "فريدون سعيد" البالغ من العمر حينها خمس وعشرين سنة مع الأشخاص المناسبين، وبعد أن استولى على منزلين، صنع لنفسه ثروة.

قضت "ليلى" طفولتها وسط طبقة الأغنياء الجُدد، فكانت حياة سيدة شابة مليئة بالطهاة، والخدم، والمربّيات، وكان أول شيء تفعله عند عودتها من المدرسة إلى المنزل هو أن تبحث عن الفستان الجديد الذي اشترته لها أمها، وإذا راق لها، كانت ترتديه على الفور وتخرج لتريه لجيرانها، ولكن إن لم يرُقها اللون أو الموديل، كانت لا تتحدَّث لأحد حتى وقت العشاء.

لم تكن سعيدة مثلما كانت في الحديقة تحت ظلال أشجار الكرز، فقد قابلت "خليل" في السنة الأولى، وعرفت حياة جديدة، وجرَّبت أشياء ذات معنى، فكانت قادرة على حب نفسها ليس فقط عندما كانوا يتحدَّثون إلى العمال في "البحر الأسود"، ولكن عندما كانت تشتم رائحة "خليل"، لقد كانت فخورة أنها تخلت عن أنانيتها، واتبعت مسارًا أخلاقيًّا مُثبتًا علميًّا، واقتنعت بأنها وضعت مسافة كافية بين حياتها وبين أسلوب والدها المخزي، وأنها كانت تصنع لحياتها قيمة عن طريق ملئها ب"خليل" والاشتراكية، ولكن مع ذلك، كلما تطرقت لمفهوم السعادة، كانت تتذكر تلك الفتاة المدللة التي كانت محبوبة من جميع أفراد المنزل.

كثيرًا ما تتذكر "ليلى" أمها وهي امرأة صغيرة. النساء الصغيرات دائمًا يعترضن على أكبر الاشتياق. فكانت هي الأيدي التي تحمل الحليب ل"ليلى"، والأقدام التي تحملها عندما كانت صغيرة، وكانت تجلس كل يوم بجوار النافذة لتراقب المارَّة، وكأنما هذه هي الطريقة التي تودِّع بها الوقت الذي يمر من بين يديها، فمثل أي امرأة صغيرة، كان أطفالها كافين لملء عالمها، وبالأمل الذي يملؤها، كانت تأمل في أن تحمي أولادها من مخاطر الحياة.

ولكن مَن كانت هذه المرأة الصغيرة؟

هل هي الابنة الصغرى لباشا عثماني الذي انحدر به الحال بعد قيام الجمهورية؟ تلك الطفلة لم تشهد العصر الذهبي لوالدها، بل كانت دائمًا تتذكره عجوزًا مهزومًا. أم هي الأم التي تمر من غرفة إلى غرفة بأناقتها الإسطنبولية القديمة؟

بالنسبة ل"فريدون سعيد"، كانت هي الطموح قبل كل شيء آخر.

كان "فريدون سعيد" وقتها رجلًا ثريًّا، ولذلك كان يتطلع إلى الحصول على شيء نبيل في حياته، حتى لو لم يكن هو نفسه نبيلًا، فيمكنه أن يوحي بذلك، وهو السلاح الذي يمكنه من خلاله تخويف التجار القرويين وزوجاتهم خلال تناول الطعام في "ماركيز". سلاح يزين شعر امرأته في كعكة أنيقة، تتحدث بعض الكلمات الفرنسية بشكل عفوي في أثناء حديثها، وتمتلك شعرًا أشقر اللون في مؤخرة عنقها والذي من شأنه أن يجعل أصحاب الأرض المتدينين يتنهدون شوقًا، وعندها سيشعرون بتفوق "فريدون سعيد" ويدركون أنه صعب المنافسة.

تزوج "فيريدون" و"زوهال" في حفل زفاف فخم قبل عامين من ولادة "ليلى".

أقيم حفل الزفاف في الفندق الرائع بمدينة "بيوك آدا ". كلتا العائلتين اهتمتا بالاحتفال، كان أقرباء الراحل "حسين باشا" الذين لا يزالون على قيد الحياة من النساء الكبار اللواتي ما زلن يرتدين ملابس السهرة الخاصة بهن وقد بليت قليلًا بثقة عمياء، وينظرن بأطراف أنوفهن لأهل العريس من حي "كومكابي"، وعلى الجانب الآخر، تم تحذير أقارب العريس، فقد بذلوا قصارى جهدهم لتجنب أي موقف غير لائق.

تم وضع أبناء العم الذين شربوا النبيذ بسرعة على متن قوارب لإرجاعهم إلى إسطنبول مرة أخرى. وقع شيء واحد فقط لم يتمكن أحد من التنبؤ به، والذي تسبَّبت فيه واحدة من أبناء عمومة "حسين باشا" والتي كانت امرأة جميلة جدًّا، فنظرة واحدة منها كانت كفيلة لإثبات ذلك، أعارت تلك المرأة اهتمامًا مبالغًا فيه لشاب من عائلة "فيريدون"، وعلى الرغم من أن الشاب ذا البشرة البنية الجميلة أعجب بهذا في البداية، فإن اقتراب تلك المرأة منه وكأنها ستقول له شيئًا في أذنه ولعقها لشحمة أذنه لم يرُقه، وعندما فشلت محاولاته في التهرُّب من هذه السيدة، اضطر الجميع للتدخل ووضع العراقيل لمنع وقوع المشكلات، خاصة مع خطيبة ذلك الشاب التي كانت تشتعل من الغيرة في الجانب الآخر من الحديقة.

الفصل الخامس

دعونا نكون صادقين؛ لم تكن "زوهال" هانم، ابنة "حسين باشا"، سعيدة أبدًا مع "فريدون سعيد". في البداية، لم تكن هذه التعاسة ضارة، فقد لاحظت "زوهال" هانم أناسًا تعساء غيرها في مجتمع الأثرياء الجدد؛ فكان بعضهم فتيات قرويات صغيرات أجبرن على الزواج دون حتى أن يفهمن ما هن مقبلات عليه؛ فعلى الرغم من تعلمهن كيفية إدارة منزل وتحمل مسئولية أناس غيرهن، كان لا يزال بداخلهن جانبًا خفيًّا يشتاق لحياة ما قبل الزواج.

لقد توارثن أن عدم وجود الزوج هو أسوأ من اتخاذ أزواجهن عشيقة. ربما تشعر المرأة الذكية بالتفوق عليهن، لكن "زوهال" لم تفعل ذلك. فكل ما توارثته من عائلتها المُبجَّلة كان قواعد مملة. قضت عدة سنوات تمارس فيها المشي وهي واضعة كتابًا فوق رأسها، والعزف على بيانو متهالك في قصر عديم التدفئة، ولعل هذا هو السبب الذي جعلها تقع في الحب مع وغد مثل "فريدون سعيد" في المقام الأول، ولعل عدم اكتراثه بقواعد الإتيكيت هو ما سحرها.

فكان "فيريدون" يرتدي قميصًا أبيض، وحمَّالات حمراء، مع أحذية يركل بها الكلاب. فربما كانا يسيران معًا في حديقة القصر المهملة. وكانت الريح التي تفوح منها رائحة زهر العسل تداعب شعرها، وأشعة الشمس الحمراء تجعلها غير قادرة على الرؤية. فربما كانت هذه اللحظة العابرة هي التي خلقت حياة بداخلها أقنعتها أنها سيكون لها حياة جيدة معه.

وربما لم يكن الأمر كذلك؟

كان تعريف القرن التاسع عشر للسعادة، كما هو موجود في الروايات الأنثوية يمكن تطبيقه فقط على هؤلاء مَن لم يعبروا خطًّا معينًا، فعندما نعبر ذلك الخط، ونحصل على حصتنا من التجارب المؤلمة، نصل إلى مكان يتجاوز السعادة أو الحزن، فتلك الفتاة التي تنتظر الفارس الذي سيأخذها على الحصان الأبيض ربما تكتشف أنها لن تحب أن تقضي حياتها مع رجل يقضي الكثير من وقته برفقة حصان، وقد تدرك سندريلا أنها لا تمتلك أي شيء تحكي عنه مع شخص غبي لا يمكنه التعرُّف عليها إلا من خلال مقاس حذائها، ولكن إذا استطعنا أن نتعايش مع وضعنا الجديد وأن نتأقلم على أن نبتسم، يمكننا أن نحصل على صورة كاريكاتورية للسعادة التي تصورناها من قبل؛ فعلى كل حال، الرسوم الكاريكاتورية هي عبارة عن عمل جاد. كل واحد منهم يضخ الحكمة والفرح إلى حياتنا.

ولكونه رجلًا ذكيًّا، أعتقد أن "فريدون سعيد" يعلم جيدًا ما يريد. فمن المفترض أن يرتفع مثل الألعاب النارية وعندما يصل إلى ذروته، يضيء أمام أعين الجميع؛ فقد مضى العديد من الليالي الباردة، وفترات من الجوع فأراد أن ينتقم من كل ذلك، لذلك يمكن للعين الثاقبة أن تحدد نقطة ذروته بسهولة، وقد أجج الكوكايين حفلات العربدة الجنسية في مزرعته في منتصف الشتاء، وألقت النقود في مياه القرن الذهبي لإبهار السويديات الجميلات، وكانت المبالغ الطائلة من المال تسكت الفتيات الصغيرة ذات الخمسة عشر عامًا، وبدأ حبه للمقامرة الذي ورثه من والده يُدمر ثروته،

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك موجات جديدة تجلب أجيالًا جديدة من الشباب الحريصين على الثراء والحصول على الأراضي، وعندما بدأ معظم مَن ساعدوه في البداية في أن يديروا ظهورهم إليه؛ لأنه خانهم مع زوجاتهم، بدأ في تعزية نفسه بالخمر. لقد ظل يشرب حتى احمرَّت عيناه، وفسدت رئتاه، وكانت زوجته وبناته يشاهدنه وهو يتحوَّل لرجل عجوز ومتوحش.

السماء الآن واضحة وصافية، وتتدفق السيارات الملونة إلى الأكاديمية العسكرية عاكسة أهمية مبالغ فيها؛ فبعضهم لديه محركات ذات قوة حصانية مهوولة، والرادار وستة تروس أمامية.

كانت "ليلى" في المطبخ تشاهد العرض من النافذة لمدة عشرين دقيقة، لم تتذكر متى هي المرة الأولى التي تمنت فيها وفاة والدها، فهي لديها ذكريات مع رجل يأتي إلى المنزل عند الفجر، ويلعن والدتها حتى بدء صلاة الصبح. يمكنها أن تستحضر ذكرياتها مع رجل يختفي لعدة أيام. رجل ليس لديه أدنى فكرة عن الصف الذي يلتحق به بناته. لا يمكنك إيجاد ذكريات لأب تمنت ابنته وفاته.

الفصل السادس

كانت شمس أغسطس قد ارتفعت، والهواء الرطب يلامس أوجه الأناس المُتعبين. عندما اتصلت "ليلى" بالمنزل في "كانديلي" مرتين أخريين ولم تتلقَ ردًا، انتابها شعور بالحرية، فلم يعد لديها أب أو أم. هي الآن حرة مثل البالون الذي يفلت من أيدي أصحابه. في الماضي، كانت تحب مُناقشة "خليل" حول دور العائلة في حياة الشخص، وفي بعض الأحيان، كان يتوصل كلاهما لاستنتاج مفاده أن أفضل شيء يمكن القيام به في المجتمع في المستقبل هو انفصال الأطفال عن والديهم بعد انتهائهم من فترة الرضاعة ووضعهم في سرائر عملاقة، وبهذه الطريقة، لم نتمكن من معرفة عائلتنا، ولن نتعب أنفسنا بمشكلاتهم، وكذلك سنحافظ على أنفسنا من أن نصبح دمى في يد اثنين من الحمقى الذين لا يعرفون ماذا يفعلون بنا. وبما أنه لن يكون هناك مَن يُحسب له حساب، فيمكننا حماية أنفسنا من الأمراض التي تنتقل من جيل إلى جيل؛ فالأبناء الذين لا يمتلكون آباء، عليهم أن يكافحوا في حياتهم، ولم يكن على الفتيات أن يقلقن من أن تطغى عليهن أمهاتهن، ويمكننا قضاء وقتنا في القيام بأشياء أكثر إنتاجية.

وبالنسبة ل"خليل"، كان اللغز الأكبر في هذا الموضوع هو كيف يمكننا تجنب تكرار أخطائهم إذا كنا لم نشهد تلك الأخطاء من قبل؟ ألا يجب علينا أن نعرف والدينا جيدًا لنكون أفضل منهم؟

وكان طعن "ليلى" على كلامه هو أن معرفتنا لهم تعني أننا سنغفر لهم، فيمكننا أن نغفر للناس الذين نعرفهم جيدًا، فحتى "هتلر" المعروف بالقسوة لديه جانب ليّن يخرج وقتما يشاء. وقراءة الخطابات التي كتبها "أنور باشا" إلى زوجته ربما تجعلنا ننسى الهُراء الذي فعله في "ساريكاميش"، وحتى معجب البيتلز الأكثر تعصبًا يمكنه أن يتصالح مع "يوكو أونو" بعد قضاء خمس دقائق معًا، ولكن لن يتمكن أي من ذلك أن يمحو غرف الغاز، وتجمُد التسعين ألف جندي حد الموت، أو تصديق حقيقة أن البيتلز قد تم حله. الوقت الذي نقضيه مع آبائنا طويل جدًّا بغض النظر عما يسببونه لنا من أذى، فتظل هناك ذكرى أو اثنتان جيدتان معهم، ونستخدم تلك الذكريات لنبرر علاقتنا بهم، وكل ما نخسره، يبدأ في الانتقال من جيل إلى جيل، وكل ذلك بسبب أننا نغفر لهم.

وبتغاضيه عن هذا السؤال، تساءل "خليل":

- هل تؤمنين حقًا بما تقولين؟

- لا أعرف. ليس من الممكن دائمًا أن تتأكد من الأشياء.

انتهت علاقة "ليلى" بوالدتها بشكل مفاجئ، وتوفيت "زوهال" هانم تاركة وراءها أثرًا خافتًا، كقصيدة أحبتها، فقد كان موتًا هادئًا بلا عتاب، وفي ليلة من ليالي مايو ذات النجوم القليلة، وضعت "زوهال" الكتاب الذي كانت تقرؤه (قصائد جديدة للشاعر "ييتس") بجانبها على الأريكة الحمراء في غرفة المعيشة، وقال طبيب العائلة "إفتال بك"، ذلك الشاب اليوناني اللاجئ، إن سبب الوفاة هو نزيف دماغي نتيجة ارتفاع ضغط الدم، ولكن "ليلى" عرفت أن السبب الحقيقي للوفاة هو "فريدون

سعيد". سكره وبشاعته هما مَن تسببا في قتل والدتها، فبعد سنوات من العمل، نجح في قتل فرحتها بالحياة وجعلها تتمنى الموت.

كانت هناك فتاحة مظروفات بجانب جثة "زوهال" هانم. كانت جميلة وحادة، حصلت عليها من باريس. أمسكتها "ليلى" وجرت إلى "فيريدون" وهو محاط بأعين الطبيب والجيران الموجودين في الغرفة، وأوقفت ذراعاته القوية أفكارها، وسمعت "ليلى" نفسها تصرخ:

- لقد قتلتها. لقد قتلتها.

ثم نزلت عليها صفعة مفاجئة. لقد كانت قوة "فريدون سعيد" كافية لتدفع "ليلى" لوسط الغرفة، وهدأت الفتاة الآن، أصبحت لا تبكي ولا تصرخ، بل كانت تنظر إلى الفتاحة التي كانت تحملها واتجهت نحوه مرة أخرى. دار بينهما شجار قصير، وعن طريق الخطأ جرحت الفتاحة "ليلى" في بطنها. سالت الدماء منها، وهرع إليها الجيران، وبدأت رؤيتها تتلاشى، وعندما فتحت عينيها مرة أخرى، وجدت نفسها في سريرها ملفوفة بملايات ناعمة، فقد نجح "إفتال بك" في تضميد الجرح الذي بدأ من تحت ثدييها حتى وصل إلى أسفل بطنها.

وبعد ذلك اليوم، لم تستطع "ليلى" مسامحة نفسها ولا "فيريدون سعيد".

كان هناك الكثير من الأشياء التي لم تقدر على قولها لوالدتها؛ فبسبب كل نزواتها الطفولية، لم تجد الوقت الكافي لفهم والدتها.

لم تكن "ليلى" فضولية تجاه وحدة والدتها، وتجاهلت الحزن المحفور على وجهها، وشعرت أنها لم تحبها حقًا وأنها تؤلمها. كان هناك شيء ما بداخلها يُشعرها بالضيق كلما أحست أنها تقترب من والدتها، فقد راق لها أن تتجول في الشوارع بفستانها الجديد، أو أن تضحك في السينمات أكثر من الدقائق العاطفية المعدودة التي ستقضيها مع والدتها. والآن، مع تجولها في شوارع المدينة، أدركت أن ما أبقاها بعيدة عن والدتها هو الشعور بالخلود المحفور بداخلها، فقد سقطت ضحية ذلك الصوت الداخلي الذي ظل يقنعها أن حياتها لن تتغير ولن يشيخ أحد أو يموت.

الفصل السابع

ومع اقتراب صلاة الظهر، جلست "ليلى" على مقعد تحت فروع الأشجار في ساحة "مسجد تشويقية"، وكانت تشاهد الجموع التي أمامها وهي تشرب المياه، وكانت هناك تجهيزات لجنازة ما على بُعد مسافات.

ارتفع الزئبق داخل ميزان الحرارة ليدل على ارتفاع درجة الحرارة. كان هناك زوج من مشاهير التليفزيون فائقي الجمال يتعرَّقان في سترتهما السوداء والتي تُبيّن أن المتوفى كان شخصية مهمة.

ارتعشت "ليلى" عندما أدركت أن عليها حضور عزاء مماثل قريبًا؛ فعليها أن تنتظر وتمثل الحُزن على فراق "فريدون سعيد"، وهي تحترق تحت شمس أغسطس.

ربما تغيّر الرياح من اتجاهها في ذلك الوقت، ويتحد كوكبان في نظامنا الشمسي، وتبدأ في البكاء مثل طفلة صغيرة مجبرة للذهاب إلى السرير قبل موعد نومها، فمثلما يصعد العالم السلم في المرصد الملكي بجريبتش، أو كما يطلق شخصًا ما النار على صديقه بسبب عشيقته، أو كنيزك مشتعل يقترب من كوكبنا، ستلقي "ليلى" نظرة الوداع على القبر، حيث يرقد "فريدون سعيد". ليس من الصعب أن ندير ظهورنا إليه ونتجه نحو أشجار الحور.

ولكن بعد ذلك، بدأت الشكوك تتصاعد داخل "ليلى". لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتطرق فيها "سعيد" للانتحار، لقد كان "فيريدون" مستهلكًا تمامًا في هذا الأمر، لم يكن لديه أي ثبات أو أموال؛ فقضى عدة سنوات منتظرًا أن تعانقه التربة كورقة خريف متساقطة، وتدهورت حالته العقلية، وأصبح كبده مريضًا، بالإضافة إلى ذلك، كان يحتقر "ليلى"، كان يحتقر الأموال التي ترسلها إليه شهريًّا، والزيارات التي كانت تقوم بها لتسأل عن صحته، لم يكن "سعيد" من النوع الذي يسمح لهذه الرعاية دون عقاب، وبسبب أنه لا يمتلك شيئًا آخر، كان يستخدم الموت كقوة له.

فكرت "ليلى" في المكالمة التي دارت بينها وبينه أمس، وحاولت التوصل لأي شيء يُثبت أن ما حدث هو كابوس أو خدعة.

وللوهلة الأولى، كانت تبدو كأي محادثة عاديَّة بينهما؛ فمن عادته أن يتصل ب"ليلى" عدة مرات في اليوم عندما تضطرب صحته العقلية. أحيانًا كان يتحدث في أمور دنيوية تافهة مثل توقف البدَّال دون سبب، أو وصول فاتورة متأخرة، ولكن عادة ما كانت اتصالاته عبارة عن مشكلات، فبعد انتهائها من اجتماع طويل، ستعود إلى مكتبها وترى تلك الرسالة بالحماس نفسه "لقد اتصل والدكِ. وينتظر اتصالكِ به".

ولكن كلما تطرَّقت إلى تلك المكالمة التي استغرقت أربع دقائق وثلاث وعشرين ثانية وفقًا لبيانات "تورك تليكوم"، كانت تشعر بإحساس غريب بالواقعية.

فتساءلت "ليلى":

"هل ذكر "فريدون سعيد" شيئًا جديدًا؟ هل استخدم كلمة لم يسبق وأن استخدمها من قبل؟ ما الذي يُميّز تلك المحادثة عما سبقها؟".

كلما واجهت "ليلى" مشكلة صعبة، كانت تنتابها الشكوك بأن كل شيء هو أبسط مما هو عليه؛ فكانت تشعر وكأن حل هذه المشكلة يقف على بُعد خطوات ساخرًا منها. فربما كانت هي التي تربك نفسها بلا سبب، ولهذا تضيع في متاهة من الطرق المُتعرّجة والكلمات المُنمّقة، والأسوأ من هذا كله، أن كل شيء تعلمناه في الحياة لا يزعجنا إلا في أوقات كهذه، والكتب التي قرأناها، وتجاربنا، كل هذه الأشياء تجتمع لتخلق الفوضى في عقولنا وتجعل المشكلة تبدو غير قابلة للذوبان، وفي تلك الأوقات، تتمنى "ليلى" أن ترى العالم بأعين طفلة في الثالثة من عمرها؛ فكانت تعتقد أنها إذا نجحت سيختفي الضباب، وإذا استطعنا الاستماع إلى غرائزنا بدلًا من معرفتنا الثمينة، فسنرفع ستارة التحامُل من على أعيننا وسنرى العالم كما هو.

عندما يزول التراب الكامن على الأشياء قرابة الألف عام، يُصبح القلم مجرد قلم، والأنبوب مجرد أنبوب، ويمكننا بسهولة معرفة أي جزء من محادثة مدتها أربع دقائق أثر فينا أكثر.

وبعدها يأتي دور الصلوات، ويبدأ الحشد في أداء صلاة الجنازة، وترتفع الحرارة مما يجعل حتى الطيور الموجودة في الساحة ثابتة بلا حراك، وبرؤية ذلك، ينتهز القط المُحتال الفرصة، محاولًا الاقتراب من أي طائر ولكنه أيضًا يسقط ضحية الحرارة ويسقط على الفور.

الفصل الثامن

وعلى الرغم من عدم رغبتنا في الاستماع لتلك المحادثة التليفونية، فقد أجلناها لوقتٍ كافٍ، ولكن إذا أخذنا في الاعتبار أن "فريدون سعيد" على الطرف الآخر من المكالمة، فقد نسمع بعض الكلمات الجافة. برجاء تحملها.

كان المشهد العام كالآتي:

كان "دينيز" نائمًا بسلام، يحلم بالرحلة التي سيقوم بها مع والده صباحًا، وكانت "ليلى" مستلقية على الأريكة في غرفة المعيشة، وتقرأ كتابًا، وفي الخلفية، كان يوجد صوت معزوفات "جلين جولد". وفي التليفزيون، يُذاع كأس العالم.

كانت "ليلى" تنظر من حين إلى آخر إلى التليفزيون، لتلمح الشقراوات القادمات من الشمال، والأفارقة ذوات الرداء الأخضر، وكان الضوء الأصفر المنبعث من المصباح يُضيء الغرفة، وستائر التول ترفرف بطريقة تسمح لدفء الصيف أن يتغلغل من بينها. باختصار، كان كل شيء هادئًا، وسلميًا.

وفجأة رن التليفون، وأُضيئت الكشافات الأمامية للسيارات في الشارع، عاكسة أضواءها لتُضيء الممر لبضع ثوانٍ، ذلك المشهد الذي تعشقه "ليلى". تنهدت "ليلى"، ولاحظت أن الأكسجين بدأ في التناقص في الغرفة، مما جعلها تلحظ تنفسها. ولأنك عندما تشعر بضيق نفسك لا يمكنك فعل أي شيء آخر، فقد أسقطت كتابها، وبعدها لاحظت أنها ترمش بعينيها كل خمس ثوانٍ، واندهشت أنها تتمكن من فعل تلك الأشياء الصعبة؛ التنفس وتحريك جفونها منذ ولادتها، ولكن التليفون اللعين ظل مستمرًا في الرنين، كما لو أن درجة الحرارة لم ترتفع إلى 30 درجة مئوية، كما لو أن كل صوت يصدره لم يلدغ "ليلى" في قلبها، كما لو أن نيجيريا ليست على وشك الهزيمة بأربعة أهداف مقابل هدف.

- لماذا لا تجيبين على التليفون؟

وفقًا لسجلات شركة "تورك تليكوم" للمكالمات التليفونية التي جرت في الثامن والعشرين من يوليو لعام 1998، كانت هذه هي الطريقة التي بدأت بها المكالمة بين "ليلى" و"فريدون سعيد".

كان صوت "فيريدون" الممتلئ بالكحول يجعل "ليلى" تشعر وكأنها لا تزال طفلة، فكانت تشعر لو أن بإمكانها أن تلكمه ضربة في معدته تفقده القدرة على التنفس لفترة مؤقتة.

فقالت "ليلى" بصوت هادئ:

- كنت نائمة. و"دينيز" أيضًا نائم، وكان التليفون على وضع صامت. - كنتِ نائمة؟ أحقًا كنتِ نائمة؟ - نعم.

كان الصوت المنبعث من مؤخرة عنق "سعيد" المجروحة مزعجًا جدًّا، ولكنه ظل يتكلم دون الالتفات إلى هذا الصوت.

- يا لي من وغدٍ سيئ الحظ. - حسنًا يا أبي. من فضلك اذهب للسرير الآن. - لا لا لا. أنا حقًا وغد سيئ الحظ. لا أحد يريدني. تبًا لي. يجب أن أموت فقط، أنتِ تريدين أن أموت.

كان "فيريدون" الخيالي بالفعل ميتًا بالنسبة ل"ليلى"؛ فكانت ضربات قلبه تتسارع جدًّا لدرجة أن التنين نفسه لن يستطع إيقافها، وكان جسده الخالي من الحياة في انتظار الشياطين ليأتوا إليه. من يعرف! ماذا سيقول لهم من الهراء الذي سيسبب لهم الصداع! كانت "ليلى" حزينة بشأن هؤلاء الشياطين الذين بمجرد أن ينتهوا من إيصاله لمكانه سيتركون وظائفهم للأبد.

- اسمع يا أبي. "دينيز" نائم في الغرفة المجاورة، وأنا أيضًا على وشك النوم، ولست في حالة مزاجية تسمح لي بخوض تلك المحادثة الآن. سنتحدث صباحًا على أي حال. - لن تجديني هنا في الصباح يا طفلتي.

إذا كان لدينا مؤلف أكثر طموحًا هنا، فإنه سيغير المشهد، وسيرسم صورة مختلفة ل"سعيد"، سيأخذ الوقت الكافي لتصوير خيبة الأمل التي شعر بها "سعيد" وهو جالس ممسك برأسه بين يديه وهو يتحدث في التليفون الذي وضعه بين كتفه وذقنه متكئًا على مائدة المطبخ.

كما كان سيطرق هذا المؤلف لوصف أعقاب السجائر التي تسبح في أكواب الخمر شبه الفارغة، وينبعث منها الدخان تحت أضواء الفلورسنت، والتقويم المدرسي القديم الملصق منذ ثلاثة أيام، والراديو الموجود على الطاولة والذي لا يمكنك سماع صوته، وإيقاع صنبور الماء، وثقب النافذة الذي كان يستخدم للتهوية، والآن امتلأ بالصحف المُهلهلة، والشعور بالموت المنتشر في الأرجاء، والذي ساعد فيه صوت الصلوات على طول الطريق بمدينة "كانديلي". فمن شأنه أن يخلق هذا المؤلف جوًا ملائمًا من هذا كله بجملة واحدة ليؤكد أن الموت محيط ب"سعيد" من كل الاتجاهات.

لن يكون هناك مؤلف أكثر طموحًا من هذا. لا، مع الأخذ في الاعتبار أنه قد يتحدث عن الشعر الرمادي الذي لم يلمسه مشط خلال الأيام السابقة، واللحية الطويلة المُتشعِّثة، والبقع والشحوم التي تزين فانلته، وعلاوة على ذلك، فإنه كان سيشير إلى أظافر قدميه القذرة، وكان "سعيد" سيقرع الأرض بقدميه وهو متباهٍ بالأجواء البغيضة التي خلقها، وكان لا يزال يتحدث إلى ابنته، وبعد تسع ثوانٍ من الصمت، تنهدت "ليلى" بفرح وقالت له:

- حسنًا هذا يكفي. سأغلق الخط الآن. - كما تحبين. ولكن اعلمي جيدًا أنكِ ستجدين جثتي في الصباح. - لا يا أبي. على الأقل لا تفعلها الليلة. - لا أقول هراء. أنتِ تعلمين مثلما أعلم تمامًا أنني لا أستحق العيش بعد كل ما قمت به. لقد ابتلعت كل الحبوب التي وجدتها بالمنزل، والآن سأموت. هذا كل ما في الأمر.

ووفقًا لتسجيلات "تورك تليكوم"، هكذا انتهت المكالمة.

الفصل التاسع

وفي تمام الواحدة وأربع وعشرين دقيقة، بينما كانت "ليلى" متجهة إلى حي "حربية"، اصطدمت بشخص ما، على الرغم من عدم رغبتها في الاشتباك مع أحد حتى ولو كان مجرد نبات.

كانت المرأة ترتدي قميصًا مطبوعًا عليه صورة "تشي جيفارا"، ليست تلك الصورة الشهيرة التي يشرب فيها السيجار. يجب أن تكون تلك المرأة السمينة، ذات الشعر الأسود القصير في العشرينيات من عمرها، ولكن كان يوجد شيء غريب في وجهها يجعلك لا تركز مع أي شيء غيره للوهلة الأولى التي تراها فيها.

كانت جمجمتها تشبه السنجاب؛ فكان الأمر كما لو أنها تحولت بطريقة سحرية إلى إنسان، فكان لديها حلق ذهبي في أنفها به سلسلة متصلة بالحلق الموجود بأذنها، وفي وسط تلك الحشود وحر الصيف الشديد، لم تتمكن "ليلى" من تذكر أين رأت تلك المرأة من قبل. استغرق الأمر دقيقتين حتى وضحت الرؤية وتذكرت أنها هي الرسامة التي سبق وأن أجرت معها حوارًا صحفيًّا من قبل، ولكن خلال ذلك الوقت الذي استغرقته "ليلى" للتذكر، كانا قد احتضنا وقبلا بعضهما بعضًا، وقررا الذهاب لتناول عصير الليمون في بار "ديوان".

في الربع الأخير من القرن العشرين، كانت هناك أشياء أسوأ من التصادم مع شخص يتعرَّف عليك على الفور ولا تتمكن أنت من تذكره.

تمامًا مثلما تأخذنا هذه المرأة إلى بار "ديوان" لتناول الليمون.

فقبل كل شيء، لم يكن ذلك البار مشهورًا بالليمون. لم يُسبق وأن رأى أحد شخصًا يشرب أي سائل أصفر هناك، وعلاوة على هذا، فقد أخبرتها غريزتها الصحفية أن هذه المرأة مشهورة، فكان من الأنسب أن تتعرف إليها "ليلى" أولًا. كان هذا هو السبب أن تدفع "ليلى" رأسها كما لو كانت سيارة قديمة، ولكن بسبب قسوة الأيام على عقلها، لم تبدأ تلك السيارة في الحركة.

وبينما كانت "ليلى" عالقة بين النسيان والتذكر، كانت المرأة تتحدَّث:

- زرت بالأمس كنيسة "سانت أنطوان". كانت فارغة تمامًا في تلك الساعة المُبكِّرة، وكانت هناك حمامة بيضاء تحلّق تحت الجص. في البداية، لم أعرها انتباهًا فكانت مثل أي طائر آخر، ثم جلست على أحد المقاعد وصليت في هدوء، وكان يوجد شعاع ضوء يتخلل النافذة، فنظرت إليه وبدأت أفكر في الخلق، وبعدها اتجهت لإشعال شمعة للموتى، وفجأة. هبطت الحمامة متجهة إلى لهب شمعتي. يمكنني شم رائحة ريشها المحترق، كانت رائحته مثل رائحة خشب الصندل، بل أجمل منه، ثم وردت لي فكرة أنه ربما يكون ذلك الطائر هو "يسوع". كان يسير في قلبي بطريقة مستقيمة مثلما سار في بحر "الجليل"، وقد حرق ريشها ليشاركني آلامي.

وعندما أنهت المرأة حكايتها، كانت "ليلى" تحاول الحصول على منديل لتنظيف "الليمونادة" التي سقطت على ذراعها، وكانت اعتادت على لقاء أناس غريبي الأطوار منذ سنوات مما أعطاها الخبرة للتعامل معهم، فكان عليها أن تنصت كثيرًا وتتحدث قليلًا؛ لأن هؤلاء غريبي الأطوار الذين

اعتادوا الوصول إلى النجوم حتى في الصباحات المشرقة اهتموا بعوالمهم الداخلية حتى موتهم، ولم تنتابهم الشكوك مطلقًا في أن أكبر ما فعلوه للعالم هو خطبهم.

- لقد شعرت بالتنوير في تلك اللحظة. الشعور نفسه بالارتياح الذي أشعر به عندما أنتهي من لوحة، كما لو كنت لمست من قبل الروح القدس.

يمكننا تصنيف "ليلى" على أنها مستمعة جيدة؛ فهي التي تجري المقابلات في صفحات الفنون والثقافة بجريدتها. إن إجراء مقابلة شخصية لشخص ما لا يتطلَّب موهبة كبيرة بالنسبة ل"ليلى"، مجرد ابتسامة صغيرة، سؤال مدروس، ومظهر جيد، هو كل ما يتطلَّبه الأمر لتتفتح هذه النفوس المبدعة وتكشف عن سقراط الذي بداخلها. فإذا وثقوا في الشخص الذي أمامهم، سيتمكنون من إزالة الدروع التي تتكون من سنوات من الألم والتعب ويعودوا إلى طفولتهم، ومن ثم يمكنك التحدث إليهم عن اللوحات الواقعية للغاية، أو الصراع الكُردي، أو أنواع النبيذ المفضلة لديهم، أو جعلهم يقدمون لك وصفات سلطة رائعة.

إذا كان الشخص الذي تجري معه المقابلة لديه بالفعل عالم داخلي مشرق حتى إن أكثر المعلومات الدنيوية يمكن أن تكون في متناول اليد. يمكنك أن تسألهم عن مطعم السمك القديم في شارعهم، وسوف يستجيبون لك بآرائهم حول المحيط نفسه الذي جاء منه السمك.

وكذلك عن الندبات المغمورة بالمحيط.

ولأن كل شخص مبدع يحمل محيطًا بداخله، وكل محيط يحمل أشياء غير معروف أسماؤها وأشياء مظلمة في أعماقه، بالإضافة إلى سفينة بخارية كانت قد نزلت منذ سنوات، وبعض السفن التجارية، وأكياس من الذهب لم يمسَّها السلطان الذي طال أمده منذ قرون؛ فتصبح أخطر مهنة هنا هي الغوص في أعماق المحيط، فعندما نزور تلك الأعماق التي لم يمسّها ضوء الشمس، قد نواجه أشياء لم نتوقعها أبدًا، فقد يكون هناك كهوف ذات مداخل ضيقة وسفن فخمة ذات قاعات حفلات مدللة وثرية، بالإضافة إلى أبواب تفتح على كنوز جديدة، أو الفخاخ الجديدة التي قد نقع فيها، ولكنَّ هناك شيئًا واحدًا يمكننا أن نعرفه على وجه اليقين، هو أن المحيط يشمل كل هذه الأشياء بالقدر نفسه من الحب، فهو يهتم بمراكبه الشراعية الجميلة بالطريقة نفسها التي يهتم بها بالسفن التي تتأهب للحرب.

إن النسيان المظلم هو كل ما ينتظر السفن التي تحمل الأمل إلينا، والسفن التي ساعدتنا على إراقة الكراهية.

مع كل سفينة تنزل على سطح المحيط تتلقى ندبة أخرى، ولكن مع مرور الوقت يتلاشى ذلك كله.

الفنانون هم من يقعون في هذا الفخ، والذين لا يعودون أبدًا من ظلامهم. كل التفاصيل الصغيرة تدفعهم إلى وضع غير متوقع، ويخضعونهم للمساومة بين الرضا والألم الذي استمر منذ آلاف السنين. نحن، انطلاقًا من اليأس نطلق عليهم أسماء، لأننا لا نستطيع التوصل إلى كلمة أكثر ملاءمة. نحن نسميهم الرسامين والنحاتين والملحنين.

في الواقع هم الذين يبحثون عن الكلمات لإنقاذ أرواحهم من الفخ على فراش المحيط وشرح لنا جميع الكنوز التي تقع هناك، لكن كل ما توصلوا إليه هو الندوب التي تبقى على سطح المحيط بشكل مؤقت. ندبة بيضاء عليها رغوة؛ في الواقع نحن نغني أغنيتنا فقط، لنرَ فقط منظرها ونقرأ وصفها.

- كان شيئًا لم أشعر به في أحد المساجد أو الكنيس اليهودي. أظن أنني قد مُلئت بشعور الموت. كان الموت يخرج من مساماتي تقريبًا.

لم تكن "ليلى" في حالة مزاجية جيدة ذلك اليوم؛ لأن عقلها انشغل ب"فريدون سعيد" وما قاله، ولم تكن قادرة على الانتباه إلى ما قالته تلك المرأة، تلك الرسامة التي هي في الحقيقة شخصية حادة جدًّا ومعروفة على الرغم من مظهرها اللامركزي، فقد تذكرت "ليلى" أنها كانت فنانة شبه رمزية تتخذ من الخفافيش رمزًا لأعمالها، قد لاحظت عدم اكتراث "ليلى" بكلامها مما أحبطها وجعلها تريد إيذاءها؛ لأنها ترى أولئك الذين يكون خطأهم الوحيد هو معرفة كيفية الاستماع إليها كقضيب صاعق، تود أن تناقش الموضوع الذي لم تستطع مناقشته مع مالك السوق القديم والتخلص من الكهرباء التي تزعج جسدها، وإذا كانت غير قادرة على القيام بذلك، فإنها في البداية ستفاجأ ثم تغضب. لسبب ما لا يمكن تصوره أن يدرك أن الشخص أن الذي أمامه هو أيضًا لديه مشكلات خاصة به.

حاولت الفنانة تغيير مسار الحديث لتهدئة غضبها:

- ماذا فعلتِ بشعرك؟ - لا شيء حقًا. لماذا؟ ماذا حدث؟ حاولت "ليلى" النظر إلى انعكاسها في المرآة الموجودة على الحائط. - إذا كان شعري يبدو مثل ما يبدو شعرك، فلن أخطو خطوة إلى الشرفة حتى. أين زوجك؟ أنتِ متزوجة صحيح؟

الفصل العاشر

تزوجت "ليلى" مرة واحدة، ولا تزال متزوجة، من الناحية القانونية.

لم يفكر أي منهما في التوفيق بينه وبين الطلاق المليء بالكلمات الشاقة. كان هذا الفصل شيئًا شخصيًّا ينتمي بشكل خاص إلى الشخصين المتورطين في أنهما لم يسمح أي منهما للآخر بلمسه.

من ناحية أخرى، لم يكن الزواج جنة تنتظرهما في نهاية الطريق الشائك. كانت مشاركة منزلها ورائحتها مع "خليل" كل ليلة أمرًا مختلفًا عن الأزواج الذين يشعرون بالملل من رؤية وجوه بعضهم بعضًا.

قبل سنوات، مثل الكثير من البرجوازية الصغيرة، قاما بتوقيع دفتر ملاحظات ضخم وأعلنا أنهما يريدان "أن يكبرا معًا على السرير نفسه".

لقد كانوا أربعة أشخاص في مكتب السجل، فكان هناك صديقان برفقة "خليل" و"ليلى"، وموظف السجل ينظر إلى هذين الصديقين الشابين نظرات قلق وكأنه يشك فيهما، لكنهما كانا مبتهجين؛ فقد أصبحت قصة الحب بين "ليلى" و"خليل" أسطورة الشباب الثوري، حتى هؤلاء المُتحفظين تجاه تلك المواضيع كانوا يؤيدونهما، مُبرِّرين أنه من الصعب أن ينفصلا عن بعضهما بعضًا.

يعيش الحبيبان حياتهما ضمن دائرة التسامح هذه دون السماح لعلاقتهما بعرقلة عملهما؛ فسمعة "خليل" المحترمة ساعدت "ليلى" لتكون أكثر قبولًا في المجموعة، وإشراقة "ليلى" خفَّفت من وطأة "خليل" وجعلته يبدو أكثر إنسانية، وقد رأى أصدقاؤهما فيهما رغباتهم التي يتطلعون إلى تحقيقها دون أن يعلنوا ذلك، فكان الأمر مفيدًا لجميع المعنيين.

ومع ذلك، بقي جانب من شخصية "خليل" دائمًا مظلمًا، فكلما نظرت "ليلى" إلى زوجها، كانت تدرك أن هناك بعض الأشياء التي كانت مخبأة عنها، لكنها لم تعبر عن ذلك أبدًا بأي شكوى. ربما كان صمتها هو اعتقادها أن جمال "خليل" كان له علاقة بهذا الظلام.

كان "خليل" بداخله بئر مظلمة، ولكنه ينشر الخير للجميع، لم تكن هناك طريقة لمعرفة مدى عمق هذه البئر أو حيث تلقى المياه، لكن "ليلى" أدركت أنها إذا ما ضغطت عليه، وحاولت أن تعرف الإجابة عن هذه الألغاز، فإن سحره سوف يضيع، على الرغم من أن عالمهما كان مليئًا بالوقائع الباردة والخطر الحقيقي مع المظاهرات والمسيرات التي كانا جزءًا منها، فإن المحيط كان مضاءً بشكل خافت بمحبتهما.

أزالت "ليلى" كل الحواجز بينها وبين الرجل الذي أحبته، وكانت تأتمنه على كل شيء؛ فقد تجاهلت خطر الإذلال وأخبرته عن قصر عائلتها في "شيشلي"، والرسالة المرسلة من القصر الذي عثرت عليها في خزانة والدتها، وعن سائق والدها الخاص الخامل "لاظ محمد"، وعن المدن الأجنبية التي ستزورها خلال العطلة الصيفية، ومدرسة البيانو البوسنية، وعن تلك الليلة التي قرر فيها "فريدون سعيد" أن يغطّي المنزل بالسجاد الفارسي، وعن النساء المخمورات اللواتي يقرعن

أبوابهم بأول أضواء الصباح، ووالدتها التي تغلق الباب وتحبس نفسها في غرفتها بسبب هؤلاء النساء، وعلى الرغم من أن "خليل" لم يخفِ شيئًا على "ليلى" ووضع الخريطة ل"وادي بوتان" الذي نشأ فيه تحت أقدام "ليلى"، فإنه كان هناك شيء مفقود.

لا تزال هناك أشياء مجهولة عن "خليل".

أو ربما شيء واحد فقط. نجمة داكنة في "وادي بوتان"

الفصل الحادي عشر

كانت "ليلى" غريبة عن "خليل"، ليس في إطار ما فعله عندما انفصلا بل بسبب تلك البقعة السوداء في داخله، خلال علاقتهما، اعتبرت هذه البقعة وصمة غير منطقية، فكلما ابتعد "خليل" بعيدًا، فإن هذه البقعة سوف تقترب أكثر فأكثر وتنمو بشكل أكبر. كان مثل اعتلال العين المسبب للعمى وإعتام عدسة العين، ولكن على عكس الشكل القياسي لهذا المرض، فقد أثرت عينها على الجزء الداخلي من عدستها، لكن البقعة أوقفت "ليلى" عن النظر إلى الداخل.

بحثت عن طرق للوصول إلى داخل "خليل"، لم ترغب في مطاردته أو محاولة إجباره على ممارسة حياته، لم تظن أنها لن تنجح فحسب، بل إنها ستكون محرجة أيضًا للقيام بذلك. ربما يمكنها العثور على طرق أخرى للمس روحه. لم يكن لديها خطة أو بوصلة أو مركب شراعي، وهكذا أدركت أنها يجب أن تجد طريقًا لم يتم أخذه، وهو حل لم يتم اختباره من قبل.

إن النظر إلى صوره لم يساعد في شيء، فقد شتتوا خيالها، فتمعَّنت في صور "خليل" في المظاهرات وهو يضحك مع أصدقائه، لكنها لم تكن قادرة على الشعور بالمشاعر التي تم التقاطها في تلك الصور. في نهاية المطاف، لم تشعر سوى بشعور ضحل ثنائي الأبعاد.

في البداية، بحثت عن الإجابات في الأشياء التي تركها "خليل"، لم يأخذ الكثير معه عندما كان يغادر على أي حال. كتبه المحبوبة، لوحة الكتابة ومعظم ملابسه كانت لا تزال في المنزل. كانت "ليلى" تنظر إليها، تلمسها وتواسي نفسها بما تبقى. يمكنها احتضان سترة في الدولاب، خربشة في دفتر ملاحظاته أو الخزف الصيني الذي كسره عن طريق الخطأ. يمكنها فحص الفراغ الموجود بداخلها، لكن هذا لن يكون مختلفًا عن وضع لسانك، حيث كان السن الساقط لرضيعك الصغير، لمس الفضاء الفارغ نفسه مرارًا وتكرارًا لن يمنحها أي شيء سوى التذكير بسقوطها، لكن هدفها لم يكن الاشتياق إليه؛ ولا الشعور بوجوده، ولا قضاء ثوانٍ موجزة من الراحة، لا حلم ولا أمل.

بل أرادت "ليلى" أن تفهم "خليل".

فإن استطاعت أن تفهمه، يمكنها أن تنظر إلى ما يوجد خلف الستار الذي وضعه أمامه، وستفهم سبب هذا كله، ولكن بما أن الذكريات والممتلكات كانت بلا فائدة، فقد شعرت باليأس. هذا اليأس الملعون ظل يكبُر وتغلب عليها مرة واحدة في نهاية الأسبوع.

ويبدو أن السبب وراء ذلك هو أنه تم اختيار "دينيز" لفريق كرة السلة الذي ملأ المنزل بالزي الرسمي والأحذية والأساور وأغطية الرأس، والأسوأ، أن "دينيز" فوضوي؛ فكان عليه أن يقضي آخر خمس دقائق قبل كل محاولة يائسة للبحث عن بعض الأشياء المفقودة، على سبيل المثال، أنه في بعض الأحيان لم يجد حقيبته الرياضية الصفراء في أي مكان يمكن العثور عليه بسهولة، أو في بعض الأحيان كانت أحذيته الفاخرة تختفي، كما لو أن مثلث برمودا قد ابتلعها من بين غرفة المعيشة وغرفة نومه والحمام، سيتزايد بحث "دينيز" عن أشيائه في اللحظة الأخيرة، لكن هذا البحث الدائم كان دائمًا له نهاية سعيدة عندما يجد في النهاية ما كان يبحث عنه، لكنه لا يزال يجعل

"ليلى" و"دينيز" يشعران وكأنهما قرويان يحملان مشاعل ليذهبا إلى الغابة للبحث عن عجلهما الضائع.

ولكن عملية البحث هذه لم تكن مجرد بحث عن أشياء بل كانت مثل الغزل؛ ففي خلال بحثهما، يصبحان أكثر قربًا، ويثيران بعض المتعة والمرح، وسوف يتمتعان بحبهما لبعضهما بعضًا، ستشعر "ليلى" بأن حبها لابنها ينمو أقوى في كل مرة تبحث فيها وراء الدولاب، أسفل الأرائك، وعلى رفوف الكتب.

كما تمنى "دينيز" أن يستمر هذا البحث إلى الأبد؛ فهو يرغب في أن يذوب في دفء جسد والدته المتحرك. كان هذا هو طريقهما في الاعتراف بحبهما لبعضهما بعضًا، وهذا هو السبب في أن رؤية أمه التي فقدت عقلها بسبب فقدان واقي الركبة كانت بمثابة صدمة ل"دينيز".

كانا يستمتعان كالعادة، وهو الشيء الذي أربك "ليلى" فيما يتعلق بأهمية الواقي في لعبة كرة السلة، وكان "دينيز" منزعجًا وينفخ؛ لأنه تأخر على التدريب.

أمسكت "ليلى" بظهرها من الألم وسألته:

- هل يمكنك المغادرة من دونه؟

أجاب "دينيز" دون أن يلاحظ التوتر في صوت أمه:

- سيكون من الأفضل أن نجده.

- لا يمكنني تحمل أكثر من ذلك.

- تحمُّل ماذا؟

- كل هذا. كل شيء يضيع، والبحث عن واقي الركبة تحت الأريكة. كل شيء.

أشار "دينيز" إلى واحد من أرفف الكتب وقال:

- هناك.

- أذهب إلى العمل كل يوم، وأطهو كل ليلة، ووالدي يتصل بي، ومشاحنات الجيران بالطابق العلوي. كل شيء. كل شيء. لا يمكنني التحمل.

- هناك.

- ماذا؟

- واقي الركبة يا أمي. لقد وضعناه فوق أحد كتب أبي.

وبعين مفتوحة على مصراعيها، كان "دينيز" يراقب أمه بالطريقة التي تراقب بها قنبلة موقوتة، ثم أدركت "ليلى" بثقل القلب أنها كانت القنبلة المعنية، تسبب ذلك في جعل نبضها يتسارع، وفي غضون بضع دقائق صعدت السلم، وأخذت ترمي الكتب على الأرض.

أمسك "دينيز" بواقي ركبته وقال:

- أمي. ماذا تفعلين؟

- أتخلص من الفائض، لأنقذنا من كل هذه المرارات.

- وما هي المرارات؟

لقد صُدم "دينيز" من الكتب الأنيقة التي تتدحرج، وأغلفتها التي تتمزق وأغطيتها الصلبة تتضرر، فحتى تلك اللحظة، عاش في منزل حيث كان يعامل الكتب ككنز ثمين.

- انسَ الأمر. ألم تتأخر عن التمرين؟ اذهب.

وعندما سمعت إغلاق الباب، توقفت لثانية واحدة ثم أخذت نفسًا وشرعت في إعدام بضعة كتب أخرى. نزلت من على السلم، وألقت نظرة على كومة من السليلوز المحيطة بها وبدأت في البكاء. أطلقت صرخة هادئة مثل تلك التي أطلقتها في طفولتها، ثم لفت انتباهها كتاب صغير الحجم، كانت صفحاته مفتوحة، كان ل"آتيلا إيلهان" وذو غلاف أبيض تحت عنوان "هارب من المطر"، كان الكتاب يستقر على الأرض مثل طائر يموت. كانت الصفحة الحادية والأربعون مطويَّة الحافات وقد سلط شخص ما الضوء منذ أعوام على جملة باللون الأحمر:

"نحن في بداية ما بدأناه".

انحنت "ليلى" والتقطت الكتاب، ونظرت إلى ذلك الاقتباس وكأن "خليل" قد ذكره من قبل، فلو كان هنا، لكان لديه قطعًا تفسير لذلك. يبدو منطقيًّا، وانتهى بها الأمر بالشعور بالوحدة.

الفصل الثاني عشر

منذ ذلك الحين، أخذت "ليلى" رحلة بين كتب "خليل". كانت تحاول معرفة زوجها من خلال قراءة الأشياء التي كان يحددها بالقلم، وأعربت عن أملها في أنه إذا استطاعت إعطاء بنية ذات معنى لهذه الخطوط، فإن أسرار زوجها ستكشف عن نفسها.

كانت مندهشة للغاية من تنوع الخطوط التي أثرت على زوجها، وقد ناقشا الكتب في كثير من الأحيان، وأخبرا بعضهما بعضًا بالكتب الجديدة واعتبرا المؤلفين أصدقاء مقربين، لكن الوضع هنا مختلف بعض الشيء. الموضوع هذه المرة كان بخصوص "خليل" الوحيد والغريب؛ ففي بعض الأحيان، كان يمر على جمل معينة بألوان مختلفة لتمييزها، وفي بعض الأحيان كان يسطر تحتها بقلم حبر. تذكرت أنه يتحدث بحماس عن بعضها بينما كانت الأخرى تنتمي إلى عزلته، وكانت المجموعة الثانية هي محل اهتمام "ليلى"، فيمكنها أن تتخيل نفسها وهي تتعرَّف على "خليل" الذي لم تتمكن من تعرفها عليه من قبل من خلال هذه المجموعة.

كان "خليل" يحرس الجزء المحظور من شخصيته بدقة فائقة، وقد بنى حوله جدارًا، وأشرف على بنائه طوبة طوبة بنفسه، وبقي هذا الجزء بعيد المنال بفضل هذا الجدار الذي يكشف ل"ليلى" عن جزئه في كل مرة تنظر في ماضي "خليل".

وذات مرة، اعتبرت "ليلى" عادة زوجها في تخطيط الكتب عادة سيئة، فلم تستطع فهمها؛ لماذا تريد تمييز جملة من بين الجمل الأخرى؟ لماذا تجعل هذا الكتاب غير قابل للقراءة لأي شخص آخر يأخذه بعدك؟ لماذا تتدخل في العلاقة التي قد يمتلكها قارئ جديد مع الكتاب؟ كيف لا تظن أنك قد تبتعد عن الكتاب كأحمق طموح يحاول إثبات أنه حساس وذكي؟ أم أن هذا هو بيت القصيد؟ هل الشخص الذي يميز الجمل بالقلم لديه رسالة يريد نقلها للقراء من بعده؟

عندما كانت تثير هذا الموضوع، كان "خليل" يبتسم ويتحدث إليها كما لو كان يتحدث إلى طفل مدلل صغير مهووس بأصغر الأشياء.

- حسنًا عزيزتي. لن أفعل ذلك مجددًا.

لكن "ليلى" تعلم أن ذلك لن يُحدث أي فرق، على سبيل المثال، قام بتأكيد هذه الخطوط في قصيدة "فرحان شينسوي" بعنوان "جوندست" مرتين؛ مرة باستخدام القلم، ومرة أخرى باستخدام قلم تمييز أصفر.

"يقول "بوريس فيان" إن ديننا هو العزلة إذن أرجوك انزل من القطار عندما تشعر في ذلك" اعتقدت "ليلى" أنه ربما كان هناك بعض الوقت بين وقت استخدام القلم وموعد استخدام قلم التمييز، لذلك قرأ "خليل" هذا الكتاب مرتين على الأقل، فيجب أن يقرأه قبل أن يتركه. ربما كان يريد فقط أن تحقق الخطوط قراره.

لم تكن تعرف أبدًا أن "خليل" كان من محبي "فرحان شينسوي". تذكرت فقط أنه في برلين ناقش هؤلاء الأصدقاء وأصدقاءهم في تأثير "بريخت" في مسرحيات "شينسوي"، لكنها لم تتذكر مناقشة شعره. الأسوأ من كل شيء، أنه بالنظر إلى وضعها الخاص، كانت الخطوط مدمرة لنفسيتها للغاية، لكنها لم تستطع معرفة متى كان "خليل" قد تحول إلى دين العزلة، لقد عاش دائمًا حياته محاطًا بالناس. كان دائمًا محبوبًا ويُعتمد عليه. من كان يظن أنه سيدير ظهره لكل هذا وينضم إلى رتبة الملائكة الوحيدين؟

لذا انتهى به الأمر بالخروج من القطار عندما أراد ذلك. كان من المحزن جدًّا أن تعتبر نفسها قطارًا متهالكًا. بعد قراءة ذلك، أمضت المساء متأججة في هذه الأفكار.

بعد يومين، وجدت نفسها تلتقط الطبعة الألمانية من أعمال "جبران خليل جبران"، وفي أثناء تصفحها بسرعة، صادفت جزءًا تحته خط:

"وعظتني نفسي وأظهرت لي أنني لست أفضل من الأقزام، ولا أقل من العملاق. أسمع روحي، نظرت إلى الإنسانية كرجلين؛ واحد ضعيف أشفق عليه، والآخر قوي اتبعته أو قاومت في التحدي، لكنني تعلمت الآن أنني كنت على حالها، وأنني صُنعت من العناصر نفسها".

لم يؤكد "خليل" فقط على كلماته التي تحمل الاسم نفسه، لكنه كتب أيضًا الترجمة التركية في الهامش. كان بإمكانها فقط أن تتخيل أنه يجلس على الأريكة لقراءة هذا الكتاب في موقعه المفضل للقراءة، سيضيء المصباح صفحات الكتاب، بينما يكمل الدخان المتصاعد من السجائر الصورة. حوَّلت رأسها نحو الأريكة الفارغة الآن، وتخيلت "ليلى" زوجها يُحدد كلمات "خليل جبران". كان يمكن أن يكون هذا مجرد محاولة بريئة للترجمة، لكن عقل "ليلى" الذي لا يهدأ خَزَّن هذا المقطع كواحد من النصوص المميزة ل"خليل".

كان "خليل" كبيرًا جدًّا في نظر "ليلى". ليس فقط بسبب أكتافه العريضة، بل أيضًا لحيويته، فكان لديه القدرة على بدء معركة بكلمة واحدة فقط. شعرت أنه ينبض بموهبة لم يستخدمها أبدًا مما جعله أكثر ترويعًا. كانت قد رأته بلا قوة؛ عندما كانت هناك بنادق تفصل بينهما، كانت عيناه ممتلئتين بالدموع. تتذكر مدى الحزن الذي تحمله على سرير زوجته المريضة في أثناء وجودهما في منزل في برلين، ولم يكن باستطاعتهما تحمل تكاليف التدفئة. تتذكر المرة الأولى في مكتب الهجرة، وكيف بدا خجولًا كشخص لم يتعلم اللغة الألمانية بعد، لكن كل ذلك لم يقف أمام "خليل".

في نهاية المطاف، هل غادر لأنه لا يستطيع أن يتحمل أن يكون كبيرًا بعد الآن، أو لأنه صار قزمًا مرة واحدة وإلى الأبد؟

لم تستطع "ليلى" أن تقرر.

وكان هناك شيء آخر لم تستطع أن تقرره، لم تكن تعرف كيف تصنف هذه الاقتباسات العشوائية التي كانت تقرؤها. كان هناك الكثير منها متناثرًا في مختلف الكتب التي من المستحيل تقريبًا أن تجد الحس المترابط بينها، على سبيل المثال، ووفقًا للملاحظة الموجودة على صفحة العنوان، كان

"خليل" قد قرأ "كارسون مكولرز". "القلب صائد وحيد" في عام 1995، وقد أكد هذه الكلمات في صفحة ما:

"كانت هي ووالدها متشابهين في تصرفاتهم الغريبة".

بعد قراءة هذا، كان على "ليلى" أن تفكر فيما قد يعنيه هذا الاقتباس إلى "خليل". هل اعتبر نفسه شخصًا كان عليه دائمًا أن يظل مشغولًا بالأشياء؟ هل كان يسخر من نفسه من خلال التأكيد على هذا الاقتباس؟ هل كان يبتسم بمرارة في تفكيره؟ علاوة على ذلك، أكان هناك شيء يبطل عمل حياته في هذا؟ هل انتهى دور "ليلى" أيضًا؟

وقبل أن تتمكن من حل هذا اللغز، سيأتي كتاب جديد وستنزلق جميع العبارات التي تحته إلى فوضى في عقل "ليلى".

افترضت أن- حيث إن "خليل" يشير إلى التاريخ الذي التقط فيه كل كتاب على صفحاته الأولى- الطريقة لفهم ذلك اللغز ستكون من خلال التفكير به في سياقه التاريخي، مما جعل الموضوع أكثر صعوبة وأتعب عقلها؛ فكانت تقتبس "تشيكوف" في نومها وتحلم برسائل من "خليل". تتألف الرسائل عادة من جملة واحدة تتكرر إلى ما لا نهاية ويمكن أن تكون هذه الجملة من أي شخص؛ من "كمال طاهر" إلى "تشيزاره بافيزي". في تلك الأوقات، كان عليها أن تتوقف عن إيجاد "خليل" واستجوابه حول معنى كل هذا، بتعبير أدق، تتخيل نفسها تقف أمام باب "خليل"، تتوسل إليه أن يأخذها. لا يمكنها أن تتخيل صورة أكثر إهانة من هذه لنفسها.

وهكذا، أبعدت "ليلى" نفسها ببطء عن الكتب واقتباساتها المبسطة؛ فعندما اختفت الاقتباسات، عاد وجود "خليل" في الخفاء.

الفصل الرابع عشر

غرفة مظلمة ورطبة منسية في عوالم الذاكرة.

رائحة فاسدة دائمة النمو.

وبتوالي الليل والنهار، أصبحت الأيام ميئوسًا منها، كان هناك جدار مغطى بآثار كل أنواع الدم تحت الشمس. كان هذا الجدار بمثابة رفض لدوران الأرض، وتم بناؤه لخلق الحزن واليأس في كل مَن ينظر إليه.

ما الذي يجب أن تفعله تلك الفتاة ذات العشرين عاما آنذاك؟ لماذا يكون جسدها عاريًا ومليئًا بالرضوض؟

ومَن الذي أحضرها إلى هناك؟

فمع كل حركة تقوم بها، تتحرك هزة الألم عبر جسدها. هذه لحظة لا يمكن التكهن بها، لا توصف.

يمكننا أن نتحسس الألم في تلك الغرفة، ونرى ما إذا كان ذلك مناسبًا، ولكنه صعب جدًّا وعميق تقريبًا، إذا كانت هناك غرفة مظلمة قبل عشرين سنة، حيث كانت بها فتاة صغيرة تعاني الألم، فلا يمكن أن نقول اليوم شيئًا يمكن وصفه بدقة، ولكن إذا كنا نجرؤ على المضي قدمًا ومحاولة وصفه، فسوف نحتاج إلى الكثير من الطموح بأن كل ما سنتركه سيكون عارًا.

سنخجل من التشفي في ألم الآخرين، ونتوقع تصفيقًا لذلك.

لا يمكن لفضيلتنا "الفنية" ولا "لسعينا إلى التحقيق في الروح الإنسانية" ولا لهدفنا من "خلق التعاطف" أن ينقذنا. لا يوجد شيء متعلق بالروح البشرية في هذه القاعة. لا شيء يمكننا أن نبدد ضميرنا من خلال التعاطف معه.

حتى وإن لم تكن "ليلى" بالغرفة.

حتى لو كان جسدها العاري مستلقيًا على الصخور المبللة، يمكن أن تشعر بأن روحها تفصل عن جسدها وتصل إلى السقف، وهي شاكرة لهذه الرحلة الصغيرة التي قررت روحها اتخاذها لأنها تخفف من آلامها. الآن هي قادرة على جمع أفكارها التي تبعثرت في كل ركن من أركان الكون، وجعل صلة بين الوضع هي في والواقع. تستطيع أن تستنتج أنها لم تمت بعد لأنها تدرك أنها لم ترَ "خليل" في فترة من الوقت، وأنها قلقة عليه.

حسنًا، إذا كنا قد بدأنا الخطيئة، فإن "ليلى" قد ترتقي أكثر قليلًا.

دعها تشعر بالبرودة من الاتصال بالسقف البارد. دعها تشعر بإحساس الارتجاف يتحرك من أطراف أصابعها إلى جسدها بالكامل. دع كل شيء غيرها يشعر أنها حقيقية وقاسية، حتى أن

الصمت المحيط بها يشعر وكأنه كائن واضح. دع سلسلة بيضاء فضية تمسك جسدها، وتوقفها عن الطفو في الفضاء مثل طائرة ورقية.

عندما تسافر حواسها داخل هذا الضباب الذي يملأ فكرها، تدعها تدرك أنها لا تتذكر وجه "خليل" ولا تتذكر تمامًا متى رأته آخر مرة. قد تتذكر وهو يصرخ عندما يراها وهي تُركل في ظهرها، ولكن ليس من الواضح لها ما إذا كانت زيفت تلك الذكرى أم لا.

كانت في تلك اللحظة مجرد روح بلا وزن تطفو في الفضاء.

وبعد أن تركها الرجل الأشقر في وضعها الحالي، انجرفت "ليلى" بعيدًا عن جسدها، وتحول الكوكب إلى حالة من عدم اليقين، لم تكن تعرف كيف بدأت حالة عدم اليقين هذه التي كان وجودها يطفو في قلبها، وما يجب أن تفعله لإنهائه. كانت سعيدة للغاية، كانت تشعر بنوع السعادة التي تشعر بها في حلم طفولتك، وهي تحلق فوق أسطح المنازل. الخوف من الموت، كان اللمعان في عيني خاطفها بعيدًا جدًّا عن أي وقت مضى لتكون قادرة على إيذاء "ليلى". كان هناك فقط حياة ناعمة تحيط بالأشياء في الغرفة، وكانت روحها تحدق في جسدها الذي تركته على الأرض، كانت "ليلى" تشفق على نفسها؛ ترى نفسها كالطفل الضعيف المضروب الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه، كما لو أنها تشفق على شخص غريب تمامًا.

تبع ذلك ومضة وعي، ووحي مفاجئ غير مفيد.

ومرة واحدة، أدركت "ليلى" أنها كانت خارج جسدها، وعندما تورط عقلها اقتربت المسافة وجدت نفسها تسقط مرة واحدة على الأرضية المبتلة مرة أخرى.

كانت في هذه الزنزانة لمدة أسبوع، وأصبح من الصعب تذكر حتى وجه الرجل الأشقر الذي عذبها، عندما التقيا للمرة الأولى، اعتبرته وسيمًا. ربما كان وسيمًا أكثر من "خليل". كان لديه وجه هزيل وجبين جميل وشعر أشقر مشرق حتى في الظلام، ثم قام بخلع قميص "ليلى" وضحك على الندوب التي على بطنها.

- يبدو أن هناك آخرين قبلنا تعاملوا معكِ.

عندما أعطوها أولى الصدمات الكهربائية، لم تعجب "ليلى" من الصوت الذي خرج من فمها، كانت الصعقة شديدة جدًّا، وحيوانية للغاية؛ لذلك قررت أن تبقى هادئة، وتعجب الأشقر من صمتها. خلال أيامها على تلك الصخور الباردة (كم يومًا كانت تلك؟ أربعون؟ خمسون؟) الشيء الذي فاجأها أكثر من ذلك كان عدم كراهيتها تجاه مرتكبيها. يمكن أن تشعر أنها غاضبة، عاجزة، مهانة. في بعض الأحيان، كانت تصيب نفسها بشفقة الرجل الأشقر، ولكن للأسف، حرمتها الطبيعة من شعور بأن كل شخص على كوكب الأرض كان لديه درجة معينة من الكراهية.

فكيف يمكنها تصنيف مشاعرها تجاه "فريدون سعيد" اليوم؟

هل من الممكن أن هل من الممكن أن تكون الكراهية التي لم تمنحها لسارقي جسدها وحريتها، تنعكس على أبيها؟ أو ربما العكس. ربما اكتسب "فريدون سعيد" كل كراهيتها في الماضي لدرجة أن "ليلى" لا تملك القوة لتوجيهها نحو أي شخص آخر.

في الساعة 3:48 مساءً، سمعت رنين تليفونها. ذلك الصوت أخرجها من ذكريات زنزانتها وتلك السنوات.

كانت هناك حولها مرايا تصفيف الشعر التي كانت ترتاد عليها بعد مفارقتها الرسامة، وسيدتان من كبار السن في انتظار دورهما، والمجلات التي تتصفحانها. كانت تشعر ببرودة سطح الحوض الرخام الذي تسند عليه رقبتها عندما بدأ مصفف الشعر الملتحي بتدليك جمجمتها بأصابعه السميكة، وكان نسيم التكييف الذي يحميهم من ارتفاع درجة الحرارة يلمس كتفيها. ستقول إحدى النساء إنها شعرت بالبرودة وسيغلق أحدهم التكييف، ثم في صوت يشير إلى أنه ينقل معلومات مهمة، سوف يتكئ المصفف على أذن "ليلى" ويهمس:

- أعتقد أن كل النساء التركية تعاني المرض نفسه؛ فقر الدم. هذا هو السبب في أنكن جميعًا تشعرن بالبرد طوال الوقت!

الفصل الرابع عشر والنصف

في البداية، لم تستطع التعرف على صوت "يعقوب" الذي كان يصلها عبر المحيطات، كان الصوت الذي يمر عبر الأقمار الصناعية والأنظمة الخلوية واضحًا جدًّا، ولكن عندما اضطر الصبي الصغير إلى تكرار اسمه، أدركت أنها قد محته تمامًا من الذاكرة.

كانت دائمًا لديها ذاكرة قوية، ولكن عندما جاءت الأسماء والوجوه أدركت أنها تغيرت بشكل كبير في نصف يوم فقط.

قال "يعقوب" عبر التليفون:

- لقد حدث شيء فظيع.

التفتت "ليلى" إلى المصفف لتوقفه قليلًا.

- ما مدى فظاعته؟

- فظيع. فظيع جدًّا.

امتلأ عقل "ليلى" بالتخمينات؛ حادث سيارة، ربما تعرض الصبي للسرقة، مشكلة في جواز سفره، المحيط الأطلسي يبتلع المدينة بأكملها.

- اهدأ يا "يعقوب". خذ نفسًا عميقًا ثم قل ما تريد.

- لقد خُنت.

- مَن؟

- خنتكِ أنتِ. لقد رافقت واحدة أخرى. - وماذا يفترض أن يعني ذلك؟ - أعتقد أنني أحبها. أنا لا أعرف ما يجب القيام به. رجاءً سامحيني. لم أفكر قط أن الأمر سيكون هكذا.

بعدما استمعت إلى "يعقوب"، شعرت "ليلى" بالضحكة وهي قادمة من الحنجرة وتصل إلى شفتيها. كان الأمر كما لو أن الإضاءة قد تغيرت، والآن كان الصالون مليئًا بالشرر الذي كان منسجمًا مع ضحكها، دون أن تدفع أي اهتمام للسيدات الكبار المنتظرات في الطابور، فإنها أخذت تضحك حتى دمعت عيناها وأتعبت رئتيها.

وعندما غادرت الكوافير الذي كان يقع عند تقاطع شارعين، شعرت بالانتعاش وأنها جاهزة لأي شيء كان في طريقها.

كان هذا الشعور قويًّا لدرجة أنه لم يتلاشَ عندما شاهدت انعكاسها على نافذة المتجر، وأدركت أن لون شعرها الجديد- وهو شيء بين الأحمر والأشقر- يشبه فاكهة استوائية، لم يكن يناسبها على

الإطلاق. كانت الساعات التي قضتها في تصفيف الشعر لن تستخدمها مرة أخرى؛ فالتحدث إلى النساء المسنات قد سمح لها بفتح قلبها الذي كان مغلقًا بشدة طوال الصباح، وكان النسيم المنعش الذي انفجر في هذا الفتحة قد ساعد في تنظيف الرائحة العطرية.

كانت تسأل نفسها:

"هل كان هذا التغيير المستوحى من المجلات ضروريًّا حقًا؟ هل سيساعد في حل المشكلات؟".

ذهبت إلى الكوافير لتصبح امرأة جديدة، أليس كذلك؟ لماذا لم تفكر بهذا من قبل؟

لماذا لم تفكر في الحصول على قصة شعر جديدة عندما تمزق ماضيها ومستقبلها أمام عينيها وأمامها جيل كامل يغني أغنية المنفى؟ لماذا لم تلقي بحزن تركها لبلدها بل أيضًا تركها لفترة زمنية على مقعد صالون تجميل؟ أكان يمكن لوالدتها أن تزور الكوافير في كثير من الأحيان لتحصل على قصة شعر تجعلها تبدو، وكأنها أميرة "ويلز" عندما كان "فريدون سعيد" يحوّل حياتها لجحيم؟ لماذا لم تكن الحياة إلا شيئًا نتنقل فيه بكل كرامة وتضحية ذاتية؟ ما الذي جعلها مختلفة جدًّا عن الجيل الشاب المبتهج الذي كان بإمكانه الانتظار لساعات متواصلة للحصول على تذكرة حفل موسيقى بوب؟

قد يكون هذا تلميحًا؛ فلمدة عامين تقريبًا، عملت في المؤسسة الثقافية الألمانية التركية. زوَّدها ذلك براتب متوسط وحماها من الشعور بالضياع الذي يؤثر في بعض الأحيان على اللاجئين السياسيين.

عملت المؤسسة بجد، فكان هدفهم الرئيسي تنظيم أحداث تساعد المهاجرين على التعرف على بعضهم بعضًا، وكان لديهم أيضًا مهمة غير معلن عنها لرفع المعنوية، بغض النظر عن مدى قوة هؤلاء المهاجرين روحيًّا، فإن جميع الذين تذوقوا المرارة في المنفى احتاجوا إلى التشجيع.

كانت مهمة "ليلى" هي مقابلة الفنانين في هذه الفعالية للمجلة الشهرية التي نشرتها المؤسسة. عادة ما يكون الفنانون من أحد البلدين ولكن في بعض الأحيان استضافوا الفنانين الذين مروا بالمدينة في جولة. التقت "ليلى" بعض الأشخاص المثيرين للاهتمام في مبنى من طابقين في مدينة "كروزبرج".

هنا يجلس "ليونارد كوهين" بهدوء في واحدة من الغرف في الطابق العلوي. الأريكة التي يجلس عليها تحتوي على بطانية مزودة بالنمط الأناضولي. هذا الرجل الذي يدّعي "خليل" أن له صوت صرير الباب ينظر إلى سماء برلين الرمادية، بينما ينتظر سؤال "ليلى" الأول. إن أشهر الصيف التي حمت أرواح أهل برلين الذين يشبهون موظفي "برج بابل" تتحول ببطء إلى خريف باروكي، وبينما تتعثر "ليلى" في تغيير بطارية مسجل صوتها، ظهرت نظرة هادئة على وجه "ليونارد كوهين".

نظرة تشبه أغانيه. الخطوط على جبهته كانت أكثر وضوحًا تحت الأضواء العالية، يقرع إصبعه على ذراع الأريكة، وعلى فترات، يتبادل النظرات مع صورة "كلاوس بيتر"، تلك الشخصية

المهمة جدًّا في المشهد الثقافي في برلين. تستمر البطاريات الرديئة في الانزلاق من بين أصابع "ليلى" المتعرقة وترفض الذهاب إلى المكان الذي يجب أن تذهب إليه في المسجل الصغير.

لم تسر المقابلة بالطريقة التي خططتها "ليلى"، فبعد إعطاء بعض الإجابات المبتذلة، يقلب "كوهين" الطاولة عليها، وبدأ الصوت الذي غنَّى "معطف المطر الشهير الأزرق" في طرح أسئلة حول بلدها وحياتها في المنفى ومعاناتها.

ترى "ليلى" أن هذه الأسئلة تأتي من مكان غريب حقًّا. إنها مندهشة جدًّا لدرجة أنها تركت المسجل وبدأت في البكاء. وقف الرجلان في الوقت نفسه. كانت يد "كوهين" صلبة نتيجة عزفه على الجيتار لسنوات عديدة، ولمس شعر "ليلى" وهو أطول مما هو عليه الآن. "ليلى" التي لم تذرف دمعة واحدة حتى في التعذيب، ترددت بين الراحة من البكاء والإحراج منه، وقالت مبتسمة:

- أنا آسفة. يجب أن ننهي المقابلة، أليس كذلك؟

قال "كوهين" وهو لا يزال يقرع بأصابعه على الأريكة:

- وبالطريقة التي رأيتها، كان هناك طريقان يمكن أن أسلك أحدهما، إما أن أتعمق أو أظل بشجاعة على السطح مثل فناني البلوز السود، وطوال حياتي، اخترت الخيار الأول، فأردت أن أحفر بأقصى ما أستطيع.

بشعرها الفظيع على رأسها، كان هذا ما سألته "ليلى" لنفسها، وهي تسير حول مسجد "تشويقية". كل مَن أعطتهم "ليلى" قيمة في حياتها اختاروا اختيار "كوهين" نفسه؛ فقد أرادوا البحث عن الكمال تمامًا مثلما حدث في "رحلة إلى مركز الأرض" عندما استخدم العلماء ذلك الجهاز الغريب وحلموا بسرقة اللهب من قلب الأرض، حتى لو كان تنقيبهم عن اللهب في الجهة المعاكسة تمامًا فسينالون جميعًا في النهاية مصير "بروميثيوس" نفسه الذي اقترب من الشمس لسرقة ألسنة اللهب، كما أنهم واجهوا عقبة الفقد في طريقهم إلى الأعماق في مركز الأرض، وتعلموا أشياء جديدة في كل خطوة خطوها، وكل ما تبقى معهم كان عبارة عن زوج من الأجنحة المحترقة والحكمة التي قدمتها الرحلة.

ولكن الآن اختلف الوضع فقد أصبح الجميع يفضل البقاء على السطح وعدم البحث عن الكمال؛ فقد اكتشفوا طريقًا للبقاء آمنين تمامًا، مثلما فعل المسيح على بحر "الجليل"، فيكمُن الاختبار الحقيقي في التحلي بالشجاعة الكافية لاتخاذ قرار دائم حول كيفية المُضي قدمًا، وللعثور على الجرأة اللازمة لضحك والبكاء دون الالتفات إلى جوهر الأرض أو الرحلة المحتملة إلى الشمس. قد تأتي الهدية التي قد تكون بمثابة فرصة للبدء من جديد بعد زيارة "ليلى" لصالون التجميل أو بمثابة فرصة لشفاء الندوب التي تلقاها مَن سعى لسرقة النار.

على كل حال هي لعب بالنار، سواء كنا ساعين لسرقة ألسنة اللهب والسعي للكمال أم لا، ولن تشعر إذا اجتاز أحدهم الاختبار أم لا.

الفصل الخامس عشر

تتذكر "ليلى" مشاعرها في اليوم الذي قابلت فيه "يعقوب" مرتديًا اللون الأزرق. وفقًا للخبراء، الأزرق هو اللون الكوني الذي يدل على الخلود والخصوبة، ومع ذلك، من الصعب أن تسير الأمور على ما يُرام مع شعورك. ما لم نتحدث بالطبع عن الحزن اللامتناهي أو الأراضي المهدورة التي تأتي خصوبتها من الندم.

لقد كان اللقاء المذكور موجودًا في منطقة محظورة في ذاكرة "ليلى"؛ لأنه حدث قبل حديث طويل مصيري عن الطلاق. هذه العاصفة التي كانت قوية بما يكفي لنسيان الزوجين ل"يعقوب" بمجرد أن غادر السيارة، وأدت إلى المطر الغزير خلال المساء.

أثار خطاب "خليل" المغلوط والمزعج حول الانفصال انفعالات قوية من "ليلى" لكن تلك المشاعر لم تختلط إلا مع حركات مسَّاحات السيارة. مر بعض العجائز مدققات النظر إلى وضعهما. ساعدت ماسكارة "ليلى" الذائبة على جعلها قادرة على تسجيل كل هذا في الذاكرة كنسيج متعدد الألوان من الصور.

في الواقع كانت ستنساه بسلام إن لم يكن الشاب قد اتصل بالصحيفة بعد أسبوع من اجتماعهما. في البداية، كانت تكافح من أجل التعرف على صوته؛ فكان على "يعقوب" إخبارها عن ذلك اليوم بالكامل معًا. أشعة الشمس التي تسربت إلى الساحة من النوافذ المغلقة شعرت وكأنها تؤذيها جسديًّا.

في صباح ذلك اليوم، كان زوجها يحزم أغراضه في صناديق بطاقات قبيحة. يمكن وصف حالة "ليلى" فقط من خلال سلسلة من التشبيهات، كان بطنها يحترق مثل الفرن، وقلبها يتلعثم مثل الخلاط، وحنجرتها تؤلمها مثل إلقاء مبشرة بداخلها، وقد فوجِئَت- مثلي تمامًا- بأن كل التشبيهات السابقة لها علاقة بأدوات المطبخ. كانت تحاول معرفة ما ارتكبته من خطأ فتستجوب أنوثتها، وكان منطق "خليل" للرحيل مجردًا، وفلسفيًّا جدًّا لدرجة أن طفلًا في عمر الثماني سنوات يمكنه أن يرى أنه يكذب. لا يوجد سبب فلسفي لأي شخص على هذا الكوكب في الانفصال عن شخص ما آخر.

لا، إذا كنت ستنفصل عن شخص ما، فربما يكون ذلك بسبب الملل أو أنك لم تحبه أو لم ترغب في ممارسة الجنس معه بعد الآن.

كانت "ليلى" من النوع الذي يبحث عن سبب المشكلة في نفسها أولًا.

هكذا تربَّت.

أخذت "زوهال" هانم ورعها الخاص ومزجته بما تعلمته في مدرستها الثانوية الفرنسية، وابتكرت طقوسًا شملت كلًا من الطريقة الإسلامية للتوبة والاعترافات الكاثوليكية، فشملت الجلوس على كرسي، وأخذ نفس عميق والتحدث إلى كائن غير موجود. أنت تتحدث ببطء وتترك كل كلمة معلقة في الهواء بعد إطلاق العنان لشفتيك، وستظل هوية مَن يستمع إليك لغزًا، لم يكن من المفترض أن

تعرف على وجه اليقين ما إذا كان هو الله، أم هو ضميرك، سوف تتحدث عن شيء حدث لك أو سلسلة من الأحداث التي أدت بك إلى هذه النقطة وتطلب من سامعك أن يخبرك أين ذهبت بشكل خاطئ، لم تقدم هذه الطقوس أي إجابات أبدًا، لكنها كانت ترفه عن روحك في الوقت الحالي، لم تفكر "ليلى" بهذا الطقس منذ أن توفيت والدتها. عندما بدأت تسأل الذات الإلهية أسئلة تثير الشك بأشكال مختلفة، كان "خليل" قد صار رجلًا تقدميًّا ولكنه رغم ذلك كان لا يزال رجلًا وقد جاء من مجتمع بطريركي. ربما كان لا شعوريًّا يحتاج إلى امرأة تخبز فطائر له بدلًا من توزيع منشورات سياسية. ربما كان بإمكانها جعل "خليل" أكثر سعادة إذا لم تفهم كل كلمة يقولها، ولدهشتها الكبيرة، كانت تحسد تلك الزيجات العادية التي قامت على يد "لقمة القاضي" بدلًا من "لينين"، وتطلعت إلى أن تخدم الخدمة التالية في صحراء "السفرجل" بدلًا من تركيا المستقلة تمامًا. إنها حقًا يجب أن تكون واحدة من هؤلاء النساء؛ ربات البيوت الهادئات والصبورات، ومن ثم لن يتركها "خليل"، وهكذا دخل "يعقوب" حياتها عندما كانت في حالة من الفوضى، وربما كان قادرًا على ذلك بسبب الفوضى.

من وجهة نظر "ليلى"، كان الوضع بسيطًا للغاية؛ هي امرأة تحمل التعب والوحدة والحزن نفسه في وجهها كنساء لوحات "موديلياني". هنا يدخل رجل عشريني ينظر إلى وجهها باهتمام. اهتمامه شيء جيد بالنسبة لها، فيذكرها أن هناك أشياء يجب أن تكون مهتمة بها في ماضيها. ترى أن حياتها تبدو "كريمة" تقريبًا عندما توصف بالكلمات. تتذكر أنها الفتاة الثورية الشابة التي تحكي قصصًا عنها جميلة وهادفة وذكية. هذا الاحترام الجديد يجلب لها الطاقة والدافع للحياة، والشاب من ناحية أخرى نادرًا ما يتحدث عن نفسه، وعندما يتحدث عن حياته المدرسية أو حياته المنزلية، يفعل ذلك بهدوء شديد. يبدأ في التحول إلى المستمع الذي تحدثت إليه في طقوس الأم حتى يهدئها؛ فيصبح الماضي الذي كانت تعتبره مملًا حتى تلك اللحظة ورديًّا فجأة. يزيل الغبار من على صورتها ونفسها ويُلمِّعها وكأنها إرث عائلي.

كثيرًا ما كانت تنظر "ليلى" إلى تلك اللحظة عندما كادا يمارسان الحب. هل كانت تريده حقًا؟ ألم يتراجع بعد رؤية ندبها، هل ستسمح له بامتلاكها؟ هل كانت قادرة حقًا على ذلك؟ أم أنها سمحت له بأخذ الأمور إلى أبعد الحدود عالمة أنها لن تسمح له بحدوث ذلك؟

فكرت في الأمر كثيرًا ولكن لم تتمكن من الحصول على إجابة مريحة.

الشيء الوحيد الذي كانت متأكدة منه هو أنها لم ترغب حقًا في رؤيته مرة أخرى بعد تلك الليلة.

الفصل السادس عشر

هناك فارق بين "ليلى" و"يعقوب" يزعجني.

عندما يجلس "يعقوب" على الأرجوحة، يكون هو الأقرب إلى الأرض. لم يكن تجميع هذا الوزن سهلًا على الشاب. كان عليه أن يجمع خمس وعشرين سنة من الخبرة الحياتية. تمامًا مثل "نابليون" الذي طلب من "جوزفين" التي كانت تكبره بعشر سنوات أن تقلل خمس سنوات من عمرها ووعدها بأن يكبر هو خمس سنوات.

كان على "يعقوب" أن يتعمق في ماضيه ليجد أشياء من شأنها أن تجعله في سنها. غالبًا، لم ييأس "يعقوب" لأن "ليلى" تفوقه في السنوات التي أمضتها على هذا الكوكب فحسب، بل أيضًا بالطريقة التي أمضت بها تلك السنوات. إذا كان لديك جيش إمبريالي خلفك، فيمكنك أن تطلب من امرأة أن تصبح أصغر بخمس سنوات، وربما كان من الممكن للأباطرة أن يكبروا خمس سنوات عند الطلب، لكن لم يكن لدى المرء مثل هذه الكماليات بعد خمسة وعشرين عامًا فقط من الحياة المدرسية العادية.

كل شيء جعل "يعقوب" ذلك الشخص الذي هو عليه الآن، يتوازن بسهولة من خلال بضعة أشياء قليلة بالنسبة ل"ليلى". الأمتعة التي أحضرها "يعقوب" كانت كبيرة جدًّا وداخلها كل شيء محشور بطريقة تجعل مَن يراها يفترض أنه كان في جولة حول العالم، ومن ناحية أخرى، لم تجلب هذه المرأة سوى عدد قليل من الأشياء معها. ذلك التفاوت يخلق صورة مأساوية، ولكن كشخص كان قد التقى مأساة بأشكالها العديدة، تعلم "ليلى" أنها ليست درامية كما تبدو. إنها تعلم أنه يجب أن يكون هناك إخلاص حقيقي، ورابطة دائمة للمأساة حتى تكون موجودة. يجب أن يكون الشخص المأساوي ممزقًا بين مصيره أو الصراع الذي يتغذى عليه أو عليها. هذان المفهومان يخلقان مشهدًا حزينًا وعظيمًا، عندما يفتقر المرء إلى هذه الأشياء، فكل ما لديك هو إما الضجر أو المغامرة أو التحرر من الوهم، وليس مأساة حقيقية. لا يمكنك فقط الخروج من مأساة سالمة، لم تنظر "ليلى" أبدًا في العلاقة التي تجمعها ب"يعقوب" على أنها قوية بما يكفي لتحمل ضربات الزمان؛ لهذا السبب، اعتقدت تمامًا أن الشاب سيغادر مع ندوب باهتة، إن وجدت.

لذلك دعونا نترك الأضواء تشرق، والسماح للموسيقى باللعب والسماح للألعاب النارية بأن تنفجر.

يبرد جسد "سعيد" ببطء في حرارة الصيف. مع وصول صوت المآذن وأبراج الأجراس في المدينة إلى السماء، دعونا نسمح ل"ليلى" بالاستمتاع بلحظة نادرة من السلام. في تلك الأثناء، يمكننا التحدث عن "فريدون سعيد" بيننا وبين أنفسنا.

تسبَّب سقوطه من الجنة في ضجة في حياته، تمامًا مثل سلة المهملات المعدنية التي تم دفعها من منحدر، لكن في النهاية، ضاعت الضجة بين توترات الانقلاب العسكري، ولأنه قد اقتيد إلى محيط من الخمر بسبب الإفلاس ومحاولات يائسة للوقوف على قدميه، لم يكن لديه الوقت ليأخذ أي اهتمام بالمصير القاتم الذي ينتظر ابنته.

وفي الوقت الذي كانت فيه "ليلى" في الثامنة عشرة من عمرها، أصبحت بعيدة تمامًا عن والدها. إذا نظرنا إلى الوراء في الجدول الزمني الذي حملها إلى مرحلة البلوغ، فإننا نرى أنه قد مر عامان منذ وفاة والدتها، وغضبهما المتبادل لا يزال ناريًّا ونادرًا ما يران بعضهما بعضًا. في حين أن "ليلى" تحتجز ضغينة له بسبب صفعها، فإنه لا يغفر لابنته مغادرتها له.

إن ضربات الفرشاة القليلة لتحديد الرسمة وعدد قليل من الملاحظات لفهم ترتيب الموسيقى مهمة بالنسبة لنا. نركز على "ليلى"؛ فتاة صغيرة شعرها يهب في ريح التاريخ، وطنية سابقة عاشت بعيدًا عن بلدها الكبير والحزين وأمّ "دينيز" تسير حاليًا على الطريق مع والده.

أما إذا تحدثنا عن "سعيد"، فذلك ليس لأنه موضوع محادثة ممتع، بل لأن وجوده أمر حاسم في ولادة ابنته وتربيتها ووجودها في حرم جامعة إسطنبول يوم الخميس 11 سبتمبر 1980.

في 11 سبتمبر 1980، كانت السماء غائمة بعض الشيء. ذكرت تقارير الطقس أنها لم تكن تتوقع هطول أمطار في إسطنبول في ذلك اليوم، كان ذلك قبل أربع وعشرين ساعة من تاريخ تقسيم تركيا إلى قسمين، لكن هذا اليوم كان مهمًّا بالنسبة للإسلاميين الراديكاليين الذين شاركوا في مظاهرة قليلة وقطيع من اللقالق الذين بدؤوا هجرتهم نحو شمال أفريقيا. كل شيء كان ذا بعدين وتلاشى من النظرة الأولى. شمس الصيف متلألئة على المدينة.

تناقش الأخبار الانتخابات التي استمرت لعدة أشهر دون أي نتائج ملموسة، ومع مشاهدة السرب الطائر من اللقالق مع ظهرها على شجرة في الحديقة، ترى "ليلى" "علي كمال" وتناديه:

- هل تعرف أين "خليل"؟

ثم يحدث شيء غريب. يعرف "علي كمال"- الذي يعرفه الجميع على أنه شخصية مرحة وثرثارة- نظرة "ليلى" ويدير ظهره ويختفي مع ظلام الممر؛ لتدرك "ليلى" أن هذه ليست علامة جيدة، ليس بفضل غرائزها الحادة ولكن ربما بسبب الهدوء الذي شعرت به بمشاهدة طيور اللقلق، أو ربما لأنها كانت في يوم جيد في ذلك اليوم ولا تتوقع تهديدات محتملة. بطبيعة غريزتها منذ آلاف السنين، يأخذ قطيع اللقالق رياح منتصف الصيف تحت أجنحتها، ويطير نحو الأفق ويأخذ معه معظم الأشياء التي تحملها "ليلى".

إنه مشهد قاسٍ.

فكرت في الأمر بهذه الطريقة، مسندة ظهرها إلى شجرة الجوز، تنتظر "ليلى" "خليل". كان لديها شعور من الخلود داخل جسدها الجيد، وهي في جوهرها فتاة صغيرة تأمل أن يتغير كل ما يحيط بها للأفضل في وقت قريب جدًّا، ولكن هذا التغيير لن يلمس سعادتها. قلبها مثل سرير يتأرجح من وعيها الشيوعي إلى إيمانها بعدم التغيير. ثقلت جفونها، يبدو أن دورتها الدموية تعمل بمعدل أبطأ، لقد أمضت طوال الليل في إعداد النشرات لعمال الزجاج. ليس هناك ما يدعوها للقلق فيما عدا هروب "علي كمال" منها.

قبل شهرين، كان "علي كمال" في سيارة بيضاء وقد اقتيد إلى مكان غريب، حيث التقى أناسًا جددًا، التقى رجلًا لديه شارب يحمل علم تركيا وقلم رصاص "مارون" وصورة لفتى مبتسم على مكتبه. قرأ عنوان منزل والدي "علي كمال"، بالإضافة إلى عنوان ورشة والده للنجارة، وكان كلاهما في "مرزيفون".

ومنذ ذلك اليوم، صار "علي كمال" يعمل في الشرطة، لكن لا داعي للقلق فلن نراه مرة أخرى.

الفصل السابع عشر

كان الوقت هو 6:00 مساءً، وحركة مرور المدينة عام 1998 ممتدة مثل الثور. كان ضوء المساء الدافئ يحترق نوافذ القصر عبر مضيق البوسفور. نسيم المساء يلمس الظهور المتعرقة في الشوارع. إذا كان "فريدون سعيد" قد قتل نفسه حقًا، فلا بُدَّ أن يكون جسمه يبرد الآن.

شيء مذهل: قشعريرة الموت.

ماذا ترى أرواحنا عندما تلقي على الجثة نظرة الفراق؟ هل هذا الجسم الذي كانت خلاياه موطنًا لروحنا؛ ذلك الجسد الذي كنا نضع فيه الترمومتر تحت اللسان فنشعر بحرارته وبوجود الروح، هل يحمل أي قيمة للروح؟ أم أنها مجرد مساحة احتلتها النفس مرة واحدة؟ ربما كان الأمر أشبه بأن أرواحنا لم تعد تسكن أجسادنا التي هي بمثابة البيوت، فيكون لدى الجسد القليل جدًّا ليقوله لمستأجره السابق؛ ذلك هو الروح.

هناك أشخاص يغيرون مسارهم من أجل تجنب رؤية منازلهم القديمة، ربما بعد إلقاء الوداع وكل شيء، قد لا تريد الروح أبدًا رؤية الجسد مرة أخرى. تريد أن تغلق هذا الباب للمرة الأخيرة، وتضع المفتاح في صندوق الرسائل، وتشحن أغراضك تسرع للحاق بعربة الشحن. عندما نجتاز ذلك المكان، حيث كان بيتنا هناك ونرى أن بالوقت الذي تسبب في إعادة تشكيل مدننا لقرون ومن ثم تدميرها، عندها ندرك أن ماضينا قد انتهى، ويحدث شيء كهذا عندما تزور أرواحنا قبورهم من أجل الانغماس في الحنين إلى الماضي، لكنهم لا يجدون إلا الأعشاب الضارة والتربة القذرة.

في أثناء جلوس "ليلى" في مقهى في "يني كوي" ومشاهدة الشاطئ المقابل للبوسفور، كانت "ليلى" تحاول أن تقرر، لقد بدت قارة آسيا القاتمة والفقيرة على حد سواء غامضة ويابسة. كان هناك ما يكفي من الموت والشعور بالوحدة على هذه القارة القديمة التي تمتد من "أسكدار" إلى بحر اليابان، وهي تعلم أن "فريدون سعيد" كان في أحد هذه المنازل حاليًا إما متعفنًا أو يفرك يديه معًا.

لقد مرَّ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة منذ أن قال إنه سينتحر. حرارة شهر أغسطس هذه يمكن أن تجعل الجثة غير معروفة الملامح؛ فتلك البرودة الناتجة عن الموت هي عملية تلقي بذلك الارتباط الوثيق بين الموت وعامل الوقت إلى بر الأمان. يبدأ دمك بالتجلط، وتتحول بشرتك إلى اللون الأرجواني، وترتعش مع العلم بأن هذا هو كل ما تفعله. يبدو الأمر يستغرق لحين أن يُصدِّق الوقت على كل ما فعلته في حياتك لسنوات.

يريد الوقت أن يثبت أنه فقط يمكن أن يمسك بأيدينا، بينما نسافر إلى مكان استراحتنا النهائي، وأننا بحاجة إليه للقيام بمثل هذه المهمة الهائلة، حتى لو تجاهلنا هذه المعلومة طوال حياتنا، فإن موتنا هو شيء لا بُدَّ منه، عندما نتنفس أنفاسنا الأخيرة، يرى أحباؤنا الوقت على وجوهنا، وعندما يلقون جثثنا في مرقدها الأخير، لا يدركون أن عامل الوقت قد انتهى دوره.

وبنظرة ثابتة على مضيق البوسفور، سيطرت ذكرى على عقلها؛ عندما كانت هي وأختها تجلسان بجانب بعضهما في جنازة والدتهما، ومحاولات "فريدون سعيد" أن يكون في كل مكان في وقت واحد جعلته يبدو أقل من زوج حزين على زوجته وأشبه بمدير لمنتزه ترفيهي.

كانت الجنازة مزدحمة لذلك كان على "فريدون سعيد" أن يمتلك الأموال لتحمل نفقات الجنازة. وجعلت سخريته السخيفة فكرة الموت تبدو مضحكة ل"ليلى"، وينتهي بها الأمر وكأنها في الواقع في متنزه وليس جنازة، وبينما يضيء الضوء البرَّاق فوق الوجوه المبللة بالعرق للحاضرين، ويغطي الغرفة بأكملها وكأنه قماش رقيق من طراز سيريالي، فتجد "ليلى" لم تعد تشعر بالبكاء أو الإحساس بالحزن لأنها يتيمة من الآن فصاعدًا، وشعرت بالراحة كأنها في رحلة مدرسية مدهشة وتشاهد عجلة ملاهٍ دوارة.

كانت مشاهدة عجلة الملاهي أو لعبة الساقية الشهيرة واحدة من الذكريات المفضلة ل"ليلى" في فترة طفولتها. اعتقدت أن الصورة التي ستقرر مصيرها تتمثل في تلك؛ فاعتبرت الحياة مثل هذه الآلة الضخمة التي تدور أمام عينيها وإما تخيف البعض أو تسعد البعض الآخر من الناس، ولمن يتساءلون لماذا لم تفكر في شراء تذكرة لنفسها لهذه اللعبة؛ فربما لأنها كانت وحيدة أو لأنها كانت خائفة، لكنها عرفت أنه كلما نظرت إليها، شعرت بأن نورها يملأها ويخفف عنها الحمل على عاتقها.

دعونا نضع الأمر على هذا النحو؛ كانت الساعة على وشك أن تدق السادسة و"ليلى" تجلس في مقهى في "يني كوي"، وفي ذهن "ليلى" الآن، كانت تتخيل صورة الشابة "ليلى" التي تستعيد ذكريات "ليلى" الصغيرة.

لقد كان ثلاثتهن شخصًا واحدًا- "ليلى" الآن، و"ليلى" في شبابها، و"ليلى" الطفلة الصغيرة- والقاسم المشترك بينهن هو ضعفهن ضد "فريدون سعيد". من خلال الذاكرة، من خلال التفكير والتفاهم، يحاولن كلهن فك العقدة التي ربطها هذا الرجل حول أرواحهن، أما ما يميزهن من ناحية أخرى فهو مبني على اعتقاد قديم، إذا ما نظرنا إلى هذا الاعتقاد القديم الذي يقول إن الفتيات يعشقن آباءهن، فكانت شخصية "ليلى" في مراحل حياتها الثلاث (طفولتها ومراهقتها وشبابها) بمثابة ثلاث نساء مختلفات يعشقن الرجل نفسه، وكل واحدة منهن تحاول امتلاكه بصورة مختلفة.

وبالنسبة لأصغر "ليلى" فيهن، التي تشاهد عجلة الملاهي، فكانت الكاميرا دائمًا تصورها من فوقها، وهي تدير ظهرها إلى الحشد، وكان "فريدون سعيد" يبدو كالأراجوز. فبدت بعض اللقطات مخيفة بالنسبة لطفلة في الثامنة من عمرها، وربما رائعة بسبب هذا المزيج الغريب من المشاعر، تلك السعادة التي تشعر بها عندما يُقبّلك أحد في الليل ولكنه يملأ غرفة نوم طفولتك برائحة الخمر؛ فعلى الرغم من أنك لا تعرف ما هذه الرائحة في البداية، فأنت تفهم للأسف أنها مرتبطة بالأحداث التي حولت منزلك إلى جحيم على مر السنين. إذا كانت هناك رائحة خمر، فمن المؤكد أنها ستتبعها تنهدات وستتجول أمك في المنزل مع مصيرها المؤسف محفورًا على وجهها.

تشابك حب "ليلى" في فترة طفولتها مع الكراهية.

إن الانقسام بين الحب والكراهية يجلب إلى الذهن أفكار سيئة. ربما لم تفهم ما أقصده ولكن كن صبورًا للنهاية؛ لأن هذه هي الذروة عندما يتعلق الأمر بمشاعر "ليلى" تجاه والدها، فهي قمة عجلة الملاهي التي كانت تستمتع بمشاهدتها في طفولتها، ولأنه لم تمر سوى بضع سنوات على وفاة والدتها وذكرى ضرب والدها لها في العزاء، فبالطبع تسببت في كراهية "ليلى" تلك لوالدها في سن المراهقة، ومثل كل مراهق آخر، تريد "ليلى" أن تخرج من هذا الشعور، فتركل كل ما يقابلها وتستعرض قوتها.

إن الكراهية المختلطة بالحب هو نوع جديد خطير. بعد كل شيء، الكراهية في حد ذاتها هو شعور يمكنك أن تظهره بعد تلميعه قليلًا، وفي النهاية، نحن الأشخاص الذين يتبقون مع عقدة لا تنحل عند محاولة فكها.

ومن حظ "ليلى" الجيد أن ظهر "خليل" في حياتها، يحمل سيفه، راكبًا حصانه، اقترب منها الرجل أكثر فأكثر وضرب العقدة ضربة واحدة فانقطعت إلى نصفين.

ومع ذلك، فإن التخلص من العقدة عن طريق قطعها لا يمحو حقيقة أنه لن يتم ارتباطها مرة أخرى أبدًا، ولأن ذاك الإسكندر الأكبر ترك أكوامًا من العقد خلفه، فقد انجرفت مملكته إلى فوضى استمرت لسنوات؛ لذا انحنت "ليلى" بعد سنوات عديدة، ودققت في العقدة التي قطعها سيف "خليل" الثائر.

لقد كانت امرأة في الثلاثينيات من عمرها في تلك المرحلة، وقد عادت للتو من المنفى، وكل ما ربط مستقبلها بماضيها كانت هذه العقدة القديمة. كان كبد "فريدون سعيد" مريضًا، يقضي معظم وقته وهو يلعن الأطفال الذين يلعبون أمام باب منزله. لم تكن لكراهيته أي جاذبية بعد الآن، وبينما اختفى الحب الذي ساعدها على الانتقال من مرحلة الطفولة، وتم استبداله بشعورها بتلك الكراهية تجاه والدها، فأصبح كل ما تبقى منه هو رجل عجوز يحتاج إلى تمريض.

الفصل الثامن عشر

ليس من قبيل الصدفة أننا شبهنا "فريدون سعيد" بمهرج؛ فلديه موهبة اختيار التوقيت الصحيح، وهو الشيء الأول الذي تحتاج إليه لتكون مضحكًا.

يجب أن يكون الممثل الكوميدي دائمًا سريعًا؛ لأن الكوميديا هي ما يُقال أو ما يحدث في فترة زمنية قصيرة نفقد فيها منطقنا ويستجمع نفسه مرة أخرى، لذا إذا نظرنا بهذه الطريقة، ستبدو حياة "فريدون سعيد" بأكملها وكأنها نكتة استمرت لفترة طويلة.

تدور بعض النكات حول إدمان الكحوليات والدراما والفضائح العائلية، لكن نجاح "فريدون سعيد" كان أنه تمكن من تضمين الاضطرابات التاريخية والمنعطفات إلى جميع ما سبق. كانت الأقليات قد نهبت بيوتهم، وسيطر الجيش على الحكومة ثلاث مرات في غضون ثلاثين عامًا، وعاش "فريدون سعيد" من خلال كل هذا، وسار عبره وهو واضعًا يديه في جيوبه، وكانت عبقريته تتجلى عندما يتعلق الأمر بالتوقيت فقد كان دائمًا في مصلحته، استطاع أن يصبح ثريًّا، ويبقى واقفًا على قدميه ولا يموت في نهاية المطاف خلال هذه الأوقات من الاضطرابات الاجتماعية، عندما كان الجميع يتجول في حيرة، وعندما وقع الانقلاب الأخير- وهو الذي مزَّق "ليلى" بعيدًا عن بلدها- كان "فريدون سعيد" كبيرًا في السنِّ وفقيرًا، ولكن قوله النكات الصحيحة في الوقت المناسب قد نجح في خلق مساحة لنفسه للتنفس.

سيصور المؤرخون أحداث أوائل الثمانينيات بحزن كبير، حيث تم سجن القادة السياسيين غير الكفء من قبل الجيش، بينما كان الشباب الذين كانت جريمتهم الوحيدة هي الكتابة على الجدران قد انجرفوا إلى الاستجوابات، وعاش "فريدون سعيد" مع مغنية قديمة في "بودروم"، وهو يسأل نفسه هذا السؤال الحيوي:

كيف خُلقت النكتة؟

فمن الذي خلق الفكاهة التركية؟ والنكات البلجيكية التي هي مصدر إلهام لغالبية النكات والنكات السياسية والنكات اليهودية والإسكتلندية التي نمزجها أحيانًا مع بعضها؟ مَن ابتكر النكات البكتاشية، والنكات البذيئة، والنكات الطويلة، والنكات القصيرة؟ مَن الذي يأخذ لنفسه الوقت لتأليف هذه النكات؟ مَن يزودنا بالنكات الجديدة مع استمرار دوران هذا الكوكب؟

كانت المغنية سيدة في الخمسين من عمرها. مغنية لنوع الموسيقى الذي أُطلق عليه اسم "الموسيقى التركية الكلاسيكية"، وهو الاسم الذي يحمل مثل هذه النغمة العدوانية التي يمكن أن تزيل أي نوع آخر من المشهد الموسيقي، بعد أن حققت نجاحًا هائلًا منذ حوالي عشرين عامًا، شهدت حياتها المهنية انخفاضًا بطيئًا، ولكن مستمرًا. وجدت "فريدون سعيد" سعيدًا وزعمت أنه جعلها صغيرة مرة أخرى. كان منزلها يقع على قطعة من الصخور التي تعرضت للضرب من الأمواج العاتية ليلًا ونهارًا وله إطلالة على البحر الأبيض المتوسط، كانا يعيشان في ذلك المنزل ذي الطابقين الذي بناه زوجها المتوفى وتجنب فرض حظر التجول والعساكر الصغار- الذين كانوا يسيرون في

الشوارع وكأنهم يمتلكون البلد بأكمله- ربما كانوا يملكونه بالفعل. وباستحياء، سميا الأوقات التي قضياها معًا "الربيع العائد".

وخلال هذا الربيع الذي بدأ في نوفمبر 1980 واستمر لمدة عشر سنوات، نادرًا ما تحدث "فريدون سعيد" عن ابنته الكبرى. استمع بصبر إلى القصص التي كانت لدى المرأة عن ابنها الذي يواجه تحديات ذهنية والذي كان يقيم في مؤسسة خاصة في إسطنبول، وكان يفرح بكل صبر عندما تعلَّم هذا الصبي أن يقوم بعملية حسابية ويجمع 2 + 2 بطريقة صحيحة، ولكن لم يسمح لابنته أبدًا أن تأتي لعش حبهما.

لم يكن الأمر يتعلق فقط بالخوف من التشاجر مع المرأة؛ لقد أصبح أيضًا قلقًا كلما فكر في ابنته، لم تبقَ سوى صورة واحدة لها في ذاكرته، وهي تهاجمه بفتاحة الظروف في يدها. تم مسح كل الصور الأخرى، وأصبح وجه ابنته بعيدًا لدرجة أنه كان بالكاد يستطيع أن يتذكر وجهها.

أصبح في مكان بعيد جدًّا.

أصبح هو في عالم الشعور بالذنب ومعرفة أن الأوان قد فات لجعل الأمور في نصابها الصحيح مرة أخرى. في أرض الشيخوخة، والفقر، والعبث، وإعالة امرأة له.

كانت حدود هذه الأرض متغيرة باستمرار، ومع كل هزيمة يواجهها، كانت الأرض تتسع، حتى قريتنا النائية تستطيع أن تشعر بالعاصفة القادمة، كما سمعت شواطئ البوسفور مدافع الجيش الروسي الذي كان يسير نحو إسطنبول بعد هزيمة الجيش العثماني. جمع كل قوته، كان "فريدون سعيد" يحاول أن يتجاهل هذه الأفكار ويعطيها الطمأنينة مثل السيدات العثمانيات السوداوات اللواتي لعبن وغنين على الرغم من قذائف مدفعية سلافية تضرب هذه السماء المسلمة.

ومع اقتراب مرور عشرة أعوام على علاقتهم معًا من نهايته، أدرك للأسف أن أمواله على وشك الانتهاء، وفوق كل ذلك، كانت صحة المرأة تزداد سوءًا، وتعاني ورمًا في مخها يقتلها ببطء؛ لذا بدأ بعض أقاربها في التدخل خوفًا من أن يقوم "فريدون سعيد" بالاستيلاء بطريقة ما على المنزل.

كان لا يزال لديه القوة لمحاربتهم لكنه لم يعد يرغب في ذلك؛ ليس لأن سنوات عمره كوفئت بالحكمة أو لأنه جاء ليؤمن بعدم جدوى حمل السلاح، ولكن لأنه لم يعرف قيمة البشر بصورة كافية لكي يحاربهم. فلم يحب "فريدون سعيد" العالم، ولم يحب ما يُذكِّره به.

ومع ذلك، في بعض الأحيان كانت تتوغل النكات أحلامه ويشعر بالرغبة في مشاركتها مع شخص ما عندما يستيقظ، لكنه لم يعثر على أي شخص يشاركه إياها.

الفصل التاسع عشر

لدى "ليلى" صورتان ل"فريدون سعيد" في ذهنها.

واحدة وهو شاب محطم وكذاب، والأخرى وهو عجوز عنيد ومدمن. ذلك الشاب المهتم بالقطاع العقاري والسيدات، أما الأخير فهو مهتم فقط بالخمور. لدى الشاب الكثير من المال لإنفاقه ودائرته الاجتماعية التي تشمل العديد من النساء المشهورات إلى السياسيين من أنقرة، بينما كل ما يمتلكه الآخر هو آلام في المعدة ووصمة حمراء غير مُشخصة على كبده، سمة واحدة مشتركة بينهما هي أنهما جذابان ويثير كل منهما العواطف تجاه أي أنثى.

وعندما اعتادت "ليلى" زيارة والدها في منزله في "كانديلي"، اكتشفت أنه على أي امرأة أن تعرف أن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنظر بها إلى "فريدون سعيد" هي من خلال النظر إليه من منظور نسائي؛ فكان من المستحيل على أي امرأة أن تكبح أنوثتها أو أن يكبح هو رجولته عند تواجدهما معًا.

لن تكوني قادرة على نسيان أنوثتكِ الناعمة. كان لديه شيء في صوته- صوت خشن يتأثر بالتدخين الذي جعله دائمًا يبدو وكأنه استيقظ للتو- مما يجعله يلمس أزراركِ المخفية واحدة تلو الأخرى. كان يعرف أين يقع كل زر بشكل جيد حتى يتمكن من العثور عليه حتى في الظلام. يمكنه أن يوقظ حتى الأنوثة الأكثر برودًا، ومع ذلك اضطرت "ليلى" للتعامل مع الآثار الجانبية لقدرات أبيها، لو كنتِ عشيقته، لكان "فريدون سعيد" رجلًا رائعًا حقًا بالنسبة لكِ. كان سيجعلكِ تصرخين من امتنانكِ لكونكِ امرأة عندما تكونان في السرير معًا، ولكن إذا كنتِ ابنته، فالشعور الوحيد الذي سيثيره فيكِ هو الكراهية الأنثوية.

لم تتناقش مع "خليل" عن "فريدون سعيد"، على الرغم من وجود موضوعات أكثر من كافية لذلك الاشتراكي للحديث عنه.

في الغالب، كان الشخص الذي لم يرغب حقًا في مناقشة الموضوع هو "خليل". ربما كان يعتقد أن أفضل طريقة لإبعاده عن "ليلى" هو عدم الحديث عنه. كان الحل الذي وجده لإنقاذ "ليلى" من ماضيها هو إنشاء لغة تنتمي إليهما فقط، ولم تشمل "فريدون سعيد" بأي شكل من الأشكال.

ولكنَّ هناك شيئًا أكبر من ذلك. مع اقتراب الساعة السابعة مساءً، بدأ السائقون المحيرون في استخدام الكلاكس، ابتسمت "ليلى" لتذكرها شيئًا ما عند سماعها لأصوات تلك الكلاكسات. فابتسمت لأنها دائمًا كانت تعتقد أن هناك تنافسًا لإظهار السائقين الرجال قوتهم باستخدامهم تلك الكلاكسات بقوة.

قضى ثلاثتهم أوقاتهم معًا عدة مرات. واحدة من هذه الأوقات كانت بعد أسبوعين من انتقال "فريدون سعيد" إلى منزله في "كانديلي". كانت هذه الحادثة واحدة من نقاط التحول في حياة "ليلى".

فعلى غرار لوحات الإعلانات في الفصول الدراسية، تنقسم حياة "ليلى" أيضًا إلى عصور ونقاط تحول مختلفة. على سبيل المثال، فترة حتى وفاة والدتها وهو ما قبل التاريخ، ثم فترة اكتشاف الأبجدية، الذي تبدأ فيه بكتابة مذكرات وتخطو خطواتها الأولى نحو عصر البدايات، وبما أن شخصيتها الحالية قد تشكلت معظمها خلال هذه الحقبة، يمكن القول إن عالمها الداخلي كان لها بمثابة عصرها الذهبي خلال تلك الفترة والذي انعكس في يومياتها كل ليلة. هذا هو الوقت الذي قابلت فيه "خليل"، قبلت الأفكار الثورية، ونظرت لكل شيء بنظرة جديدة. عند حدوث الانقلاب العسكري، تنتهي الفترة البدائية وتقع عليها ستارة الضباب التي هي العصور الوسطى، وخلال ذلك الوقت، كانت تنظر إلى كل شيء بوعي قوي. تتمنى أن تكون صارمة وراعية ككاهن كاثوليكي. إنها رغبة شخص يشعر أن السجادة تُسحب من تحته. خلال تلك العصور الوسطى، هناك شيئان تراهما لا جدال فيهما؛ حبها ل"خليل" والماركسية.

بدأت عهدها الحديث بعد عامين من انتهاء المنفى، وما يبدأ في هذه الحقبة الجديدة هو تناول العشاء في المنزل في "كانديلي".

دفع "سعيد" ثمن المنزل من الأموال التي أعطتها له "ليلى"، وامتلأت غرف المنزل بصناديق مُعبأة لم تُفتح بعد. كانوا يجلسون على الطاولة الصغيرة في الشرفة، أمامهم شوارع "كانديلي" الساحرة التي تطل على البحر، ومستقبل مليء بالأسئلة.

هل سيكون بمقدورهم بدء حياة جديدة؟

ماذا كانوا سيفعلون مع أشباح الماضي والإرث؟ دائمًا ما تسير الأشباح والإرث جنبًا إلى جنب. بعد كل شيء، كيف يمكننا ترك إرث خلفنا دون أن تتحول أنفسنا أولًا إلى أشباح؟

"خليل" أم "فريدون سعيد"؟

لم يتم طرح السؤال الأخير بصوت عالٍ، ولكن بعد الظهور للمرة الأولى خلال هذا العشاء، كان يتم تعليقه دائمًا في الهواء بين الثلاثة. كانت أمسية خريفية حلوة، وتحت تأثير الكحول ونسيم المساء القادم من البحر كان الذباب الصغير يرفرف حولهم. كانت "ليلى" تفكر في أن هناك سباقًا سريًّا تشكل بين "خليل" و"فريدون".

كان "فريدون سعيد" منافسًا لا يخسر شيئًا، و"خليل" من الجهة الأخرى لم يكن لديه ما يكسبه من المنافسة. كلاهما كانا بحاجة إلى "ليلى" لأسباب مختلفة فشعرت بأن افتخارها بحاجتهم لوجودها في حياتهم في تزايد على مرأى من أقوى اثنين من الرجال الذين يتصارعون من أجل الحق في الاختباء في عباءتها.

ثم جاء العصر الحديث المبكر.

ثم جاءت العزلة.

ثم جاء وقطع أيامها بمواقف ضعيفة.

في الواقع جاء العصر الحديث المبكر وسار بسرعة كبيرة، فجاءت ولادة "دينيز"، وقرار "خليل" بالمغادرة، ومرض "فريدون سعيد" الذي كان له تأثير كبير عليه، وتحويله إلى رجل مجنون عجوز، حدث كل ذلك في ومضة عين؛ ففي كل صباح، تغادر "ليلى" المنزل في عجلة من أمرها وتنتهي بسرعة من المقابلات التي تجريها وتعود مسرعة إلى المكتب. ترى دورة شروق الشمس وغروبها من نافذتها التي غطتها أشجار الليمون، قضت أيامها في تعارض مع هذه السرعة في الحياة. كان الصراع هو السمة المميزة للعصر الحديث المبكر، لم يكن الأمر مجرد تدفق بطيء لمواقف تتعارض مع سرعة الحياة، بل إنه أيضًا عالم "ليلى" الداخلي المتناقض مع ما يحيط بها، مثلما كانت "مالارمي" تكتب نوعًا من الشعر الذي يتطلب من القارئ أن يتذوقه في حين أن باريس، عاصمة العصر الحديث المبكر كانت تحتفي بوجود قطار البخار السريع بها، كانت "ليلى" تجد الراحة في حقيقة أن وحدتها الشعرية كامرأة واحدة كانت تتسرب من سرعة الركض من حياتها اليومية. كانت تأمل في أن الضوء الذي يلمع من مواقف حياتها سيطغى على حياتها.

وعادة ما يكون هناك ارتباك مع لوحات الإعلانات التاريخية. يبدو أن الأشخاص الذين يصنعون هذه اللوحات يدركون أن العصر الحديث المبكر قد انتهى منذ فترة وحتى الآن، لكنهم لا يعرفون تمامًا ما يجب استبداله به.

يعتبر البعض أن رائد الفضاء "جاجارين" هو بداية عصر جديد ويطلق عليه عصر الفضاء، وأولئك المسحورون بالتطورات التكنولوجية يطلقون عليه عصر المعلومات، بل هناك مَن يقدس الانشطار الذري على الرغم مما حدث في هيروشيما ويسمي هذا شجاعة، بل إنه لا ينتهي عند ذلك، نظرًا لأن الزمن مستمر، فتظهر عناوين جديدة ممكنة كل يوم: "عصر الإنترنت" و"عصر العولمة" و"العصر النووي". وما إلى ذلك.

ومن جهة أخرى، تخلت "ليلى" عن مشروع تسمية آخر فترة في حياتها. لم يكن لديها الوقت الكافي على أي حال، فقد عقدت اجتماعات بين أولياء الأمور والمعلمين لحضورها، وشراء الأدوية لوالدها، أيضًا، يبدو أن جميع الأسماء كانت على حد سواء ملائمة وخاطئة بالنسبة لها، ولكن إذا كانت هي الشخص الوحيد على هذا الكوكب الذي كان مناسبًا لوظيفة التسمية وكان عليها أن تفعل ذلك؛ من المؤكد أنها سوف تفكر في "خليل" البعيد، و"دينيز" الموجود في حضنها و"سعيد" المتشبث في ظهرها وتسميه: "عصر الشِعر في مواجهة الجنون".

الفصل العشرين

وبالقرب من نهاية السبعينيات، خلال سنواتها الأكثر شبابًا، كانت "ليلى" تعلق ملصق لإعلان حفل رقص على حائط مبنى الكلية عند ظهور ظلال خلفها. تم تحذير الفتاة من أن الجامعات تعج بالأشخاص الخطرين. كان هناك الأناركيون الذين هدفهم الوحيد هو طرد الأثرياء من منازلهم واستبدالهم بفلاحين من الأناضول، وكانوا من النوع الذي يحاول أن يخدع بأي وسيلة عقول الشباب الأبرياء، وكانت جارتهم "روزيت" هانم متشددة عندما قالت:

- كوني حذرة، إذا كنتِ ستقابلين أيًا منهم، فقط أديري ظهرك وارحلي! لا تتواصلي مع أحد!

وبعد تعليق الملصق، أخذت "ليلى" خطوة إلى الوراء، ونظرت إليه لتقرأ الملصق:

"حفلة ترحيب الربيع. الثالث من أبريل. بيخت "مودا". حفل راقص".

ومباشرة تحت الحروف، كانت هناك صورة ظلية لامرأة سوداء "أفرو" ترقص، وكان فرع اللبلاب المغطى بالورود يسير بين يدي المرأة المرفوعة لأعلى ثم يعود من حيث بدأ الانطلاق بين يديها، مما أدى إلى إنشاء إطار جميل للنص الموجود فيه.

رأت "ليلى" أن الظل وراءها أصبح قريبًا جدًّا بحيث يمكن رؤيته على سطح الملصق. صوت "روزيت" هانم الرفيع كان يرن في أذنيها: "إذا طلبوا منكِ شيئًا لا تستجيبي. هؤلاء الشيوعيون سيحاولون استخراج الكلمات من أفواه الأشخاص".

كانت "ليلى" ذكية بما فيه الكفاية لتعلم أن ملصقها لن يكون معلقًا هنا لفترة طويلة جدًّا. بعد نصف ساعة، في أفضل الأحوال، سيتم استبداله بآخر يحتوي على صور عاملة مبتذلة، ومع ذلك، فإن الظل الذي وراءها أغضبها، ووفقًا لها، كان من عدم الاحترام أنه لم يدعها ترحل قبل أن تلغي ملصقها على نحو غير لائق.

شعرت بالرجوع والصياح فقد شاهدت ظلاله على الملصق. أخذت نفسًا عميقًا وانتظرت من الظل أن يبتعد، إذا اعتقد أن "ليلى" ستسمح بإزالة ملصقها أمامه، فإنه مخطئ.

- هناك خطأ. يحتوي الملصق على خطأ إملائي.

كان للظل لهجة شرقية مشابهة للعمال الأكراد الذين رسموا منزلها الصيف الماضي ولكنهم كانوا أكثر ليونة وهدوءًا. لكن بمجرد سماع اللهجة، أغضب ذلك "ليلى" أكثر؛ لأنها كان لديها ما يكفي من الحماقة عندما أرادت أن تعطي منزلها للفلاحين مثل الأناركيين الذين أرادوا طرد الأثرياء ومنح منازلهم للفلاحين، عادت مرة أخرى في حالة من الغضب وصرخت:

- كيف تجرؤ على مقاطعتي؟

وفجأة، اتسعت عيون "ليلى" حيث رأت أجمل شيء رأته في حياتها. شاب ذو وجه يشبه التماثيل التي تنحتها الفتاة في الأكاديمية ذو الشعر القصير الرمادي كان يقف أمامها، وكان وسيمًا جدًّا حتى أن السترة الخضراء القبيحة التي كان يرتديها بدت جيدة عليه.

قالت "ليلى" وهي تستجمع أفكارها مرة أخرى:

- أعني.. ألا يوجد شيء أفضل تفعله؟

- لقد كتبتِ كلمة نادي "clup" هكذا فيجب أن تستبدلين حرف ال P الموجود بنهاية الكلمة بحرف B. - من الممكن أن تكون صائبًا. لكن ماذا يعني لك الأمر؟ - لا شيء حقًا، لكن هذه جامعة، لذا فإنك تخاطب الأشخاص الذين يفترض أنهم يعرفون القراءة والكتابة، أعتقد أن أي برجوازي صغير تمت تربيته بشكل صحيح لن يحضر أبدًا حفلة ألقاها أشخاص لا يستطيعون تهجئة كلمة "النادي"club بشكل صحيح، وكان سينظر إليهم نظرة تدني ولن يعتقد أنهم يستحقون حضوره، وإذا لم يفعل كل هذه الأشياء فلن يكون برجوازيًّا صغيرًا مناسبًا، أليس كذلك؟ وفي هذه الحالة، لا تريدينه أن يأتي على أي حال. هل أنا مخطئ؟

كانت "ليلى" محبطة. لم تستطع الرد على ذلك:

- ماذا عليَّ أن أفعل؟ لا يوجد وقت لإعداده مرة أخرى. على أي حال، لن يُجدي شيء، فلن يستمر هذا الملصق هنا لأكثر من عشر دقائق، إذا لم يكن الأمر كذلك، فسيكون هناك طرف آخر يمزقه.

- أعرف. إذا كنتِ تعرفين ذلك، فلماذا تعلقيها؟ لا تضايقي نفسك. - ليس أنت مَن ينبغي أن يخبرني بهذا. - اهدئي. أنا فقط أحذركِ. - لست ساذجةً لأحتاج إلى هذا التحذير، لكن فكرة الحاجة إلى إذنك أو إذن أي شخص آخر لتعليق أشياء في هذه المدرسة تدفعني إلى الجنون، بالطبع سوف يتم حذف ملصقي، لماذا؟ لأنك تعتقد أن ملصقي والمرأة السوداء الأفريقية والرقصات هي أشياء سخيفة، بالنسبة لك هم أشبه بالفتى الغني المدلل عديم الفائدة، ثم أسألك مجددًا، مَن منحك الحق؟ نعم، مَن منحك الحق؟ مَن يعطيك الحق في أن توبخني بهذه الطريقة؟

قال الشاب في صوت رائع:

- التاريخ.

- ماذا؟ - انسِي الأمر. لديَّ فكرة قد تساعدكِ. هل لديكِ واحد آخر من هذه؟

أجابت "ليلى"، مشيرة إلى اللفة المتدلية من حقيبة ظهرها.

- نعم.

طلب الشاب المقص والصمغ من الكانتين وذهب للجلوس تحت شجرة الجوز، وقام بتقطيع "CLUP" من الملصق الاحتياطي، وبعد فصل المصلق بعناية، حوّل P إلى B. قد تكون ملحوظة

عند النظر عن كثب، لكن MODA YACHT CLUP تحولت إلى MODA YACHT CLUB في خمس دقائق.

- شكرًا لك.

- على الرحب والسعة. سأفعل لكِ معروفًا آخر. فقط لهذا اليوم، سيكون ملصقكِ تحت حمايتنا، لن يلمسها أحد حتى المساء، ولكن لا يمكننا أن نعد بأي شيء بعد ذلك. - لماذا تفعل ذلك؟ - لأنني الآن شاركت في ذلك. العمل هو القيمة النبيلة، ولا أريد أن يضيع ذلك. - هناك شيء آخر. - ما هو؟ - هل تشرح ما قلته من قبل؟

- ماذا قلت من قبل؟

- التاريخ الذي يمنحك الحق في الحكم عليَّ. - أوه نعم، أتذكر ذلك.

قالها وهو يشير إلى الشباب الثلاثة مرتديي الستر الواقية الخضراء هناك الذين في انتظاره.

- كيف يتم ذلك؟ - ليس لديَّ الوقت الكافي لشرح ذلك الآن. سأشرح لكِ لاحقًا. - لا. الآن.

- إذًا انتظري هنا دقيقة.

ذهب الشاب إلى المجموعة التي كانت تنتظره، وشاهدتهم "ليلى" وهم يتحدثون فيما بينهم قبل أن يبدأ أحدهم في البحث عن شيء ما، وأخيرًا وجد ما كان يبحث عنه. سلم كتابًا إلى الشاب الذي بدأ في السير نحو "ليلى". كان عنوان الكتاب "المبادئ الأساسية للفلسفة" بأحرف سوداء وساحرة على الغلاف.

- إذا لم تشعري بالملل، قومي بإلقاء نظرة على هذا عندما يكون لديكِ بعض الوقت، ثم إذا كنتِ لا تزالين ترغبين في مناقشته، فيمكننا التحدث عن ذلك. يتوجب عليَّ المغادرة الآن. آسف.

أمسكت "ليلى" بالكتاب، بينما كان الشاب وأصدقاؤه يسيرون. تجمدت بشكل غير متوقع من نسيم يداعب أوراق شجرة الجوز. إنه الربيع على كل حال، لا يمكنك الوثوق به بأن يكون ذا طقس ثابت.

الفصل الحادي والعشرون

كانت الساعة السابعة مساءً، تليفون "ليلى" يرن، مما دفعها إلى العودة إلى الواقع. كانت "ديليك" تتصل، وكانت من مواليد الجوزاء. إنها تناسب أوصاف برجها بشكل مثالي لدرجة أنه بمجرد النظر إليها يمكنك أن تعتقد أن هناك بالفعل اثني عشر نوعًا من الناس على هذه الأرض كما ذكرت الأبراج.

فمن ناحية، كانت منطقية ودافئة. لديها الثقة بالنفس التي اكتسبتها خلال سنوات دراستها، وذلك الفكر الغائب الذي امتلكه الأطفال الذين نشؤوا في المدارس الداخلية بعيدًا عن والديهم. كانت لديها القدرة على إخراج نفسها من المواقف الصعبة وتمكنت من تهدئة القتال دون إيذاء مشاعر أي شخص، لكن من ناحية أخرى، كانت لديها رومانسيَّة ناريَّة ظهرت من حينٍ لآخر، وأحرقت كل شيء في طريقها إلى الرماد، لم تستطع معرفة أين كان مصدر هذا الشعور أو عندما أنشأ عشه في داخلها، عندما يخرج هذا الجانب من "ديليك"، فإن أفضل ما يمكن فعله هو وضع مسافة صغيرة بينك وبينها والانتظار حتى ينتهي ذلك.

في البداية، لم تتعرف "ليلى" إلى صوت "ديليك" في التليفون. صوتها ينحني بين كلمتين ويتخذ أشكالًا جديدة تتناقض مع ما جاء قبلها؛ ففي ثانية واحدة، تحكي أنها تكافح من أجل حياتها وفي أخرى تقول إن حياتها مرفهة، وتذكِّر "ليلى" بطفولتها، ثم لسبب ما، علا صوتها؛ كان هذا صوت الوغد الصغير الذي لم يستطع النزول من الشجرة التي سرق منها التفاح. كانت تريد لو أن بإمكانها استدعاء إسطنبول بأكملها لتساعدها، لكنها كانت خائفة أيضًا من أن يتم الإمساك بها حتى انتهى بها الأمر بأن قررت أن تهمس ل"ليلى" على التليفون لتأتي لمساعدتها؛ ففي مثل هذه الأوقات يمكن للشخص أن يهمس بصوت عالٍ بحيث إن رئتيه قد تعطي معنى جديدًا لكلمة الهمس.

كان صوتها على التليفون رومانسيًّا خفيضًا كالهمس.

قالت ل"ليلى":

- لقد اتصلت بأبي. وما زال لا يرد، لقد اتصلت به كل ثلاثين دقيقة ولكن لا جواب.

كانت "ليلى" تقف أمام رصيف "ينيكوي". هناك عبَّارة ركاب تتحرك. سائحون روسيون على ظهر السفينة، ينظرون إلى الشاطئ المقابل وهم يحمون وجوههم من الشمس باستخدام أيديهم، كان هناك رجل عجوز له العديد من التجاعيد على وجهه وشارب كبير، وهو يحمل الحبل وينتظر العبَّارة وهو يدخن. رأت "ليلى" غرفة القيادة مزينة ببعض الأزهار التي اعتقدت لسبب ما أنها كانت أزهار الريحان.

لم تستطع تحديد عمر القبطان من هذا المكان، واستمرت "ديليك" في الهمس:

- أتعرفين؟ لم أذهب إلى العمل اليوم. سيطردونني بالتأكيد. أتجول في مدينة "بورصة" كل يوم، لقد زرت حتى سوق الحرير والمسجد الكبير. لم أذهب إلى هذه الأماكن منذ شهور. ظلت ذكرياتهم في

رأسي. السترة المتعرجة التي كان يرتديها عندما يأتي ليأخذني من المدرسة. كيف كانت الفتيات في صفي يعشقونه. كيف سيأتي إلى غرفتي في الليل ويقبّل شعري كلما عدت من المدرسة في الأعياد. كانت شفاهه تحمل دائمًا رائحة كحول ممزوجة بالتدخين. النكات المثيرة للاشمئزاز التي يقولها عندما يكون في حالة سكر، وكيف كان يرمش لي كلما كان يتشاجر مع أمي، واتصالاته بي ليشكو من المرأة التي كان يعيش معها في "بودروم"، اللحية التي كبرت وكيف كانت تدغدغ خدي. غبي، أليس كذلك؟ تذكرت مجموعة من الأشياء من العدم، وعندما لم يلتقط التليفون، كنت قلقة من حدوث شيء ما له. كان هذا يومًا غريبًا. تومض حياتي أمام عيني.

- مثل الأفلام؟

- نعم، كما هو الحال في الأفلام. هل يحدث لكِ ذلك؟

- لا يا عزيزتي. ليس دائمًا. - أين أنتِ؟ - كنت في المكتب طوال اليوم. أجابت "ليلى" وهي تشاهد العبارة تقترب من الرصيف، وأكملت:

- كان لديَّ الكثير للقيام به. اضطررت للبقاء والعمل حتى الآن.

إذا تحدثنا إلى شخص كثير الكلام، نبدأ في الاحتفاظ ببعض الأشياء لأنفسنا. إذا كنا نتحدث مع شخص آخر منغلق فإننا نشعر بالتبجح، وعندما نتحدث إلى شخص أكثر رومانسية من أنفسنا، فإن الجانب الواقعي لدينا هو من يطغى على الحديث. كانت "ليلى" على يقين من أنه إذا كانت الأشياء التي تقولها أختها قد تم اختبارها للتأكد من صحتها، فإن الكثير منها لن يمر، ومع ذلك لم تحارب همساتها الصاخبة وقبلت أن تذهب لمنزله للتحقق من الأمر. كانت فضوليَّة، إن لم تذهب "ديليك" إلى مدرسة داخلية، فهل كانت ستظل تحب أباها؟ إذا كانت قد استنشقت الجحيم الذي عانوه وشاهدت أمهما تغادر الدنيا، فهل ستظل تأخذ نزهة رومانسية حول المدينة مع "فريدون سعيد" في مخيلتها؟

للأسف، لم يكن هناك ما يمكن فعله الآن؛ ليس بيد "ديليك" سوى أن تنظر إلى والدهما بالعين المجردة للرومانسية، والمسؤول الوحيد عن ذلك هو "ليلى". كانت قد أقنعت "فريدون سعيد" قبل أن يتركهم ويرحل ليجعل أختها تلتحق بمدرسة داخلية وتقبل هي تحمل المأساة بمفردها، وقد تسبب هذا في بعض المشاعر الأساسية للتقدم بشكل مختلف في حياة "ديليك"؛ فكانت قادرة على النمو دون كراهية والدهما أو الشعور بالحرج منه، لقد افتقدته فقط لأنها كانت دائمًا بعيدة؛ لذلك، كان الشخص الذي كان في سيارة أجرة وسط حركة المرور في إسطنبول ذاهبًا للتحقق من والدهما لم يكن سوى "ليلى" منذ عشرين عامًا.

الفصل الثاني والعشرون

الساعة 8:12 مساءً. الشمس التي استغرقت وقتها في المحيط على قدر كبير من مفاجأة "يعقوب"، استسلمت سلميًّا إلى مياه مضيق البوسفور. واجهات البيوت مضاءة كما لو كانت تذكِّر "ليلى" بذكرياتها للمرة الأخيرة، وسرعان ما ستضيء أضواءها ويظهر الشفق الذي يعتبر مصدر جمال المدينة.

لقد خصص اليوم أفضل لحظاته لمدن معينة؛ ففي منتصف النهار، كانت اللحظات تنتمي لبرلين الشاهدة على آلام "ليلى" المنفية والكنائس المنهارة والعاملين الذين يحلمون بالتمدد في حدائقها، وتحب تلك الساعات القليلة أن تعانق أسطح المنازل في باريس، وخصصت الأمسيات ل"بومباي" وجزرها السبعة التي لها رائحة البول، أما أوقات الليل، فكانت من نصيب "بوينس آيرس"، التي لا تزال مليئة بقصص المهاجرين الفقراء.

كانت الساعات التي تعقب منتصف الليل تسير ذهابًا وإيابًا بين نيويورك وموسكو لبعض الوقت، ولقرون، كان الفجر ينتمي إلى جيش طيور النورس المقيمة في الواجهة البحرية القديمة بالإسكندرية. يبدو المساء أفضل في إسطنبول، على جسدها المتعب والفخور. تلك الفترة الزمنية القصيرة التي يتوقف فيها المسافرون بأقدام متعبة في برج "جالاتا" ويحدقون في مساجد "إمينونو"، ويتأملون فيما يأكلون لتناول العشاء، مما يجعل روح هذه المدينة أكثر جمالًا.

تنزل "ليلى" من سيارة الأجرة في "كانديلي" وتبدأ في تسلق المنحدر. خطتها هي أن تعد نفسها لكل الاحتمالات في أثناء المشي. حالها كحال كل المسافرين، كانت ساقاها تؤلمها من عناء السفر منذ أن وطأت قدماها المدينة التي كانت تعيش فيها منذ زمن بعيد، لكنها رأت عكس ما تسجله بكاميراتها، ما يميز مدينة للمسافر عن غيرها هو عدم وجود ذكريات.

نستمتع بالسير في شوارع لا ننتمي إليها، ولا نعرف عنها شيئًا لأنها تمنحنا شعورًا بابتعادنا عن ماضينا، وبينما نسير على أرصفة جديدة، يسعدنا التخلص من شعورنا بالذات الذي يغشينا عادة حتى الموت ونشعر كما لو كنا أشخاصًا جددًا، بينما نحن نتجول في المدينة التي نشأنا فيها، وتصبح المدينة غير مرئية تقريبًا، كل هذه المباني والحدائق تعمل كجسور لذكرياتنا. هذا الرصيف هو المكان الذي انفصلنا فيه عن حبنا الأول، عندما تكون حديقة المتحف التي نواجهها عندما ننحرف إلى الزاوية هي الحديقة التي شربنا فيها في ذلك الوقت، وكنا نرقص. المدينة تضع ذكرياتنا كتمويه وتخفي نفسها، بينما يتضخم الماضي مع كل شارع جديد ويستعد للانفجار الذي ينتظرنا في نهاية الكون.

وبيديها التي تغطي أذنيها، كانت "ليلى" تنتظر الانفجار.

ولكن بدلًا من ذلك، سمعت صافرة العبَّارة. كان أنفها مليئًا برائحة اليود بدلًا من البارود. جاءت ذاكرة باهتة لها، برؤية فتاة تغذي طيور النورس تجلّت من سطح مركبة جانبية، ارتفعت من ظلال الماضي. وضع والدها يده على رأسها كطريقة لتعليمها أنها يجب أن تقف منتصبة. كان شابًا

جميلًا يمسك معطفه، وبدا وكأنه قفز من إحدى ملصقات الأفلام في "بيوغلو"، كلما التقطت إحدى طيور النورس بقطعة من السميط، ضحكت وكأنه أكثر شيء مسليًا في العالم، وأخيرًا، تم تحرير هذه الذاكرة الصغيرة العزيزة بعد سنوات من سجنها في أعماق عقل "ليلى" وسرعان ما اقتربت من تخطيها على مر السنين بينهما.

- هل سببت لكِ الكثير من الألم؟

رفعت "ليلى" الطفلة رأسها ورأت الرجل يتكلم معها. كان "فريدون سعيد" منذ خمسة وعشرين عامًا، كانوا في عبَّارة الجزيرة. تم إغلاق المدارس مؤخرًا. ترتدي الفتاة بذلة "نوتردام دي سيون"، وكانوا يتجهون نحو منزلهم الصيفي في الجزيرة.

دار الحوار بين "ليلى" و"سعيد":

- لماذا نحن هنا؟ ولماذا أنا صغيرة جدًّا؟

- لأنني أحب أن أتذكركِ هكذا.

- وماذا يعني ذلك؟

- لقد سببت لكِ الكثير من الألم. أليس كذلك؟

- لكن الأمر لم يعد يهم.

- لن نكون هنا لو لم يكن الأمر كذلك، يا طفلتي. للأسف، لا يمكننا التصرف كما حدث في الماضي.

- لماذا نحن هنا؟

- كل ما فعلته لكِ، وكل مشقة وجدتِيها في نفسك بسببي، كل ما حدث، حاولت لسنوات أن أخدر وعيي بهذه الحقيقة. كنت آمل أن يكون وجودي في يوم من الأيام للمساعدة. كنتِ بحاجة لي في يوم من الأيام وكنت ذاهبًا إلى الاندفاع إلى جانبك، وبالتالي الحصول على غفرانكِ. حلمت بأن أصبح بطلكِ، على الأقل للحظة، ولكن مع تناول المشروبات الكحولية والحبوب التي تملأ حلقي، أدركت أن هذا لن يحدث أبدًا. يمكنني رؤية الوضع بوضوح ومن الصعب التعايش معه.

- يمكنني أن أغفر لك يا أبي.

- لقد عشت هذا لفترة طويلة بفضل رحمتك. أتمنى أن تجدها أمك فيها لتسامحني أيضًا، لنرى ما ستقوله عندما تراني.

- لن تكون سعيدة جدًّا برؤيتك، وهذا أمر مؤكد.

- ربما افتقدتني. أليس كذلك؟

- لا أعرف.

- أعرف. أنتِ تفكرين فيما إذا كان بإمكان شخص ما أن يفتقد قاتله أم لا. أفكر في السؤال نفسه كل يوم وكذلك العديد من الأسئلة الأخرى.

- أي أسئلة تفكر فيها؟

- هل تتذكرين كيف اعتدتِ أن تمضي اليوم الأول في البكاء في كل مرة نأتي فيها إلى الجزيرة لقضاء العطلات؟! بإمكانكِ استعراض كل شيء كما لو كنتِ تشاهدينه للمرة الأولى. كنتِ تجلسين بجانبي ولا تتركين يدي حتى تتعرفي إلى المكان مرة أخرى والذي يستغرق من ثلاثة إلى خمسة أيام على الأكثر؛ لأن أصدقاءكِ سيصلون في ذلك الوقت، سوف تنسينني وتكرسين وقتكِ لهم. كم أتمنى أن تدوم هذه الأيام القليلة السابقة. أتمنى لو أنهم لم ينتهوا أبدًا. أتمنى لو أنهم ما زالوا مستمرين.

- يا أبي، بحق الله، ما الذي نتحدث عنه؟

- نتحدث عن الحياة والأخطاء والموت، يا عزيزتي. الآن من فضلك، سامحيني مرة أخرى وودعيني.

- إذن، فأنت ستغادر حقًا.

- يجب عليَّ. ليس لديَّ القوة للنظر إلى الوراء، لمعرفة ما هو الخطأ أو ما يمكن أن أقوم به بشكل مختلف. لا يوجد أي معنى للتمسك بالحياة بمثل هذه المثابرة غير المعقولة، كهذه. الآن، سامحيني وادعي لي في كل مرة تغذي فيها طيور النورس.

- حقًا؟

- حقًا. صلي لي. هذا ملخص حياة الآباء، نقضي حياتنا بالكامل لنصفح عنهم.

انطلقت صلاة قصيرة من شفاه "ليلى".

ودعت الله أن يبقى والدها على قيد الحياة.

مرّتْ بالمقهى الذي اعتاد "سعيد" مقابلة الأصدقاءِ فيه، والسوقِ الذي اعتادَ أَنْ يَشتري الكحولياتِ فيه مقابل كوبوناتِ "ديربيه". كان هناك منزل بملصقات ممزقة على جدرانه.

أبقت "ليلى" على المشي حتى شاهدت مبنى أصفر. سرعان ما كانت سترى الضوء بالنافذة ثم العمدة كبير المنطقة وهو يدخن، ثم حذاء والدها الذي تُرك على بابه؛ فردتين من حذاء بني مربوطتين معًا.

كان العمدة رجلًا في الستين من عمره بشارب رفيع ورأس صلعاء. أخبر "ليلى" أن البواب وجد الجثة بعد أن أصبح مرتابًا من الرائحة الكريهة.

لم ينظر "مختار" في وجه "ليلى" ولو مرة واحدة حين قال ذلك الخبر. ربما لأنه اعتبر أن "ليلى" ابنة سيئة لعلمها بوفاة والدها في وقت متأخر، أو ربما لأنه لم يكن يرغب في شرح ما كان يقوم به في منزل الرجل الميت في هذه الساعة، لم يكن كثير الكلام.

في أثناء انتظار وصول "ليلى"، جلس في الشرفة وقرأ ما تيسر من سور القرآن وفكر في الموت، التفكير في الموت يدفع شعورًا بسيف يطعن في روحنا، وبالتالي يقسم كل شيء إلى قسمين. هذا السيف الذي يمكن أن يكشف المعاني الحقيقية للكلمات، ويخفي أعمق الآلام.

كان العمدة قد انتظر سيفه وقلق من الأشياء التي قد تحدث لأطفاله الذين يعيشون بعيدًا عندما يأتيه الموت.

حدقت "ليلى" في "مختار"؛ لم يكن لديه سيف أو أي شيء، مجرد مظروف.

اعتذر بشدة لأنه سلمها الظرف وبدا وكأنه يئن. كان يعلم أنها كانت رسالة شخصية، ولكن كان عليه أن ينظر إلى الداخل لمعرفة ما إذا كان يمكنه العثور على عنوانها أو رقم تليفونها. قلبت "ليلى" المظروف فرأت اسمها ثم نظرت إلى الجهة الأخرى ورأت أنه تم فتحه بشكل عنيف. هذا هو المكان الذي كتبت فيه الرسالة. لقد كتبها "فريدون سعيد" بحبر أزرق.

في الأفلام القديمة، هناك مشاهد تسير فيها النساء في المطر وهن يبكين. قبل أن تتحول هذه الصور إلى كليشيهات على يد هوليود، قدمت لنا بعض من أجمل المشاهد في تاريخ السينما، وكانت العديد من الممثلات اللواتي طبعن أنفسهن في خيال الرجال قد عرفن متعة المشي في المطر أثناء البكاء، خاصة إذا كان يتم تصويره في الليل، فإن مشهدًا مثل هذا يمكن أن يطغى على بقية الفيلم بسهولة. إنها قصة حب ثلاثية؛ الليلة تقضي على دموع المرأة، تندفع إلى الشارع في ظلمة الليل، وتذوق المرأة رجولة الشارع في فمها.

"ليلى" امرأة في السابعة والثلاثين من عمرها تمشي نحو رصيف "كانديلي"، وهي تحاول منع دموعها. لديها وظيفة وطفل ورسالة تتشبث بها. ظلال نابضة بالحياة تمر بها وتشعر بأنها غريبة في المدينة التي ترعرعت فيها؛ مسافرة بعيدًا عن المنزل.

الفصل الثالث والعشرون

عندما دقت الساعة الثامنة، كانت "ليلى" جالسة على مقعد على الرصيف، وشاطئ البوسفور أمامها. كانت الموسيقى القادمة من البارات القريبة بمثابة صلاة لهذا اليوم. أصبحت الساعات الأولى من هذا اليوم ذكريات بعيدة عن "ليلى"، وكان الأمر كما لو أنها استيقظت شهورًا، وتركت منزلها منذ أسابيع.

أخرجت الرسالة من مظروفها وأمسكتها في يديها دون فتحها، متسائلة عما إذا كان "مختار" قد قرأها. حاولت أن تتذكر وجهه. كان واحدًا من عدد قليل من الناس الذين كانوا على اتصال مع "فريدون سعيد" في سنواته الأخيرة، وكانوا يلعبون الطاولة في المساء في بعض الأحيان.

كان "فريدون سعيد" يبدأ في السخرية من صديقه لحظة مغادرة الغرفة. من رأسه الأصلع ووجهه الذي أعطى خيبة أمله للحياة، لكن هذا المساء، لم ترَ "ليلى" أي دلالة على أنه قرأها. نقل وجهه فقط دهشة رجل صادف الموت. هذا مريح ل"ليلى". وضعت الرسالة في ظرفها وحاولت أن تتخيل ما كان يمكن ل"فريدون سعيد" أن يكتبه في رسالته الأخيرة، لكنه أثبت أنه تحدٍ كبير على النفس المتعَبة للغاية، لذا استسلمت سريعًا.

كان صدى الأذان قادمًا من أحد المساجد في "كانديلي"، وقد دوَّى صوت المؤذن على شواهد المسجد، ثم توغل في ضواحي المدينة.

كانت "ليلى" لا تزال تحدق في الظرف. طوت نصفه، وبعد أن أخذت نفسًا عميقًا، أعادت ذراعيها مرة أخرى مثل لاعب كرة طائرة يرمي الكرة الأولى في اللعبة، وجمعت كل قوتها وقذفت الظرف في البحر.

في البداية، انجرف مع الرياح ولكن بعد ذلك اصطدم بأحد القوارب وهبط في الماء، غير أن تيار البوسفور الذي لا ينتهي انتهى به الأمر.

وعندما انجرفت رسالة "فريدون سعيد" إلى أبعد من ذلك، راقبت "ليلى" سفرها إلى المجهول. كانت مثل فتاة صغيرة تراقب والدها يغادر وهي تنظر إليه بعشق.

الجزء الثالث

"خليل"

الفصل الأول

التقيت ذات مرة بقارئ ذي طبيعة مترددة، بينما كنت في وسط الأناضول، ذلك القارئ الذي اشتكى من عدم وجود أي إثارة في كتبي.

كان طويل القامة، شابًا وسيمًا، وإذا كانت ذاكرتي تخدمني بشكل صحيح، فقد كان في سنته الأخيرة من المدرسة الثانوية. كان قد قرأ إحدى رواياتي القصيرة بناءً على طلب معلمه، ولكنه وجد أنها لم تبقِ أثرًا معه على المدى البعيد. من المؤكد أنه كان وقحًا لأنه في مرحلة ما حاول تغيير الموضوع وجاملني؛ فكان معجبًا بالحوار، فعلى سبيل المثال، كان يعتقد أنه من المثير للاهتمام أنني اخترت شخصية نسائية كراوٍ.

كنا في أحد المراكز الثقافية في قاعة المدينة التي تبدو بشكل خادع أن لها الشكل نفسه لباقي القاعات في جميع أنحاء الأناضول، وفي هذه المرة كنت أنا المتحدث الجالس إلى هذه الطاولة غير الجذابة المغطاة بتلك الشراشف البيضاء. كنت أعرف بالفعل هذا الشاب الذي كان في ذلك الوقت يحاول تقديم نفسه للرجل الذي كان عليه أن يستمع إليه لمدة نصف ساعة، أفضل بكثير مما كان يتخيل. من بعيد، ذكرني بشاب آخر نشأ في مدينة الأناضول، وكان يعصر يديه وهو يتحدث علنًا مثله وكان من الواضح أنه متوتر ومحرج بلا سبب، وكانت شكواه مبررة أيضًا؛ لم أكن قد أعطيته في كتبي جيوشًا مهيبة في معارك أو غابات سحرية تتسرب أشجارها وتتحول إلى دم، وكان قد قرأ كل صفحة وتوقع حدوث شيء ما، ولكن في النهاية خذلته.

الشاب الآخر كان يبدو كرجل جالس إلى الطاولة منذ سنوات، على أي حال، تخلى عن قراءة الصفحات في رأسه، منذ فترة طويلة.

إذا كان لديَّ أداء أسرع، ربما كان بإمكاني الرد على الشاب. كان بإمكاني أن أخبره أن السرد يخلق حركة، وما لم يحظَ السرد بالوتيرة، فإن حتى سيرة عداء كسر الرقم القياسي يمكن أن تشعرك بالبطء، ما يجعلنا نشعر بالأحداث التي وقعت في صباح ذلك اليوم في مركز التجارة العالمي، هو الذعر الذي استحوذ على كاميرا الفيديو التي سجلته أكثر من تحطم الطائرة في المباني، عندما احترقت تلك المباني مع الآلاف من الناس داخلها، خسر المصور صوته وركض في يأس، وهذا هو ما يغرس الرعب في داخلنا. لم يعد يتم التحكم في الصورة ويصبح من الواضح أن هذا ليس شيئًا يمكننا مشاهدته فقط في أثناء تناول المكسرات والفاكهة، وإذا كانت كتبي تبدو مشوهة لهذا القارئ الشاب، فهذا لا يعني أنني لا أضع ناطحات السحاب المحترقة فيها؛ لأنني أرفض حقن أي حركة لا داعي لها.

وخلاص جيد للمؤلفين على أي حال؛ كيف يفترض بك أن تلبي حاجة طفل يشهد الآلاف من الوفيات إذا كان يقف أمام التليفزيون لأكثر من ثلاثين دقيقة؟

لا أزال أرغب في سرد قصة شباب "خليل" بطريقة ترضي القارئ الشاب. ربما يجب أن أتخيل جذور "خليل" أن تكون في أعماق الأناضول حتى يشعر بقرب الشخصية، ثم يجب أن أجده في

مكان يكون فيه الشعور بالحركة أشد، وهو داخل سيارة، يتجه إلى معسكر صيفي مع ابنه.

كان من المفترض أن يسافروا من جنوب "مرمرة" إلى "أكدنيز". كان الطريق الذي من المفترض أن يسلكوه سيئًا على الرغم من كونه في منطقة جيدة نسبيًا وكان مهمًا للتجارة؛ فقد أخذ نصيبه من البنية البشعة التي شملت كل أنحاء البلاد في الثلاثين سنة الأخيرة.

كانت هناك مبانٍ متعددة الطوابق مصنوعة من الطوب الأحمر على جانبي الطريق. المباني التي لم تكن تحمل آثار الذوق الرفيع أو تقاليد الحضارات التي حكمت هذه الأراضي لقرون. البذور التي تنتشر من أسمنتهم تجعل المباني تبدو غير مكتملة، تنمو الزهور على النوافذ، ينمو الأطفال أمام الباب، ولكن لسبب ما لا تنمو هذه البراعم الصغيرة، استمروا في النظر إلى السماء وكأنهم يمثِّلون شوق الناس المغلولين بالأرض.

يصل سكان إسطنبول إلى الطريق بعد السفر على متن قارب. تغادر العبَّارات القديمة من ميناء "إسكي حصار" وتتأوه في أثناء مرورها بخليج "إيزميت" وتوفر للمسافرين الشجعان بضع ساعات.

نظر "خليل" في ساعته. كانوا ينتظرون العبارة فمنذ الخمس عشرة دقيقة السابقة، وكانت السيارات والشاحنات والباصات من جميع الأحجام تصطف أمام الميناء. بعض السائقين قد تركوا سياراتهم وكانوا يدخنون بالقرب من البحر، والأطفال يحاولون بيع النظارات الشمسية والخيار واللوز للركاب.

كان الميناء يطل على الخليج على جانب واحد وتلة منخفضة مغطاة باللوحات الإعلانية على جانب آخر، وكان التل أصفر من حرارة الصيف، وبعض الكلاب النحيلة تنبش الأرض.

كان "دينيز" نائمًا في المقعد الخلفي، وكان قد وضع رأسه على كتاب كأس العالم الذي لم يكن قد تركه في الأسابيع الماضية، وملصقات أخرى لم يستخدمها بعد.

كان "زين الدين زيدان" و"ألن بوكسيتش" يقفان جنبًا إلى جنب، متطلعين للشعلة المضيئة لكأس العالم. وبعيدًا عنهم بقليل، كان "جاي جاي أوكوشا" يبتسم ويعرض أسنانه التي تشبه رغوة السواحل الأفريقية.

كان الصقر الأشقر "يورجن كلينسمان" قد قفز من خلال نتوء على الطريق ويستريح الآن بجوار المصباح. وضع "دينيز" يده على خده، وهي العادة التي أبقى عليها منذ طفولته، كان يتنفس ببطء ثم استيقظ بسبب الطريقة التي اهتزت بها السيارة في أثناء وصولها إلى العبارة. نهض، وكلهم يحاولون أن يفيقوا من النوم لمعرفة أين هم. كانت خصل شعره الموجودة في مؤخرة رأسه واقفة.

خرج "خليل" من السيارة، واضعًا يده على مؤخرة رأسه، كان يحول رأسه إلى اليسار واليمين. تعبير "خليل" خلال هذا التمرين كان دائمًا مضحكًا ل"دينيز"، حيث تنحدر شفاهه كما لو كان مبتسمًا، لكن بقية وجهه يتقطب، كما لو أنه رأى شيئًا غير لطيف، وعندما حول وجهه نحو السيارة، رأى "دينيز" وابتسم بشكل حقيقي هذه المرة.

- هل أنت جائع؟

فتح "دينيز" الباب ونزل من السيارة. وقف بجانب الدرج الضيق الذي يربط الطابق السفلي بالطابق العلوي، وقفز صعودًا وهبوطًا عدة مرات، وكان يرتدي سروالًا فضفاضًا وقميصًا مطبوعًا جعله يبدو وكأنه قزم من القصص الخيالية.

الفصل الثاني

كان "خليل" يحمل الموت في داخله. لكنه في الواقع يدين بحياته كلها لهذا الموت.

فقد أمضى طفولته، يعمل راعيًا في وادي "بوتان" قرب "سِعِرْد"؛ فكان يأخذ القطيع في وقت مبكر من الصباح، ويتجول في الوادي حتى شروق الشمس. يشبه الوادي طوفًا عالقًا في وسط بحر الأبدية. في اللحظة التي تخطو فيها على الوادي، سوف تشعر بأنك تنفصل عن بقية العالم ويبدأ الوقت في التباطؤ. عندما تبعثرت أغنامه ليتبع درب العشب النادر في هذه الأرض القاحلة، كان يجلس على صخرة ويحدق في سماء "بوتان" غير المحدودة. في بعض الأحيان، كان يشعر وكأنه يفهم ما يدور في عقول الناس الذين لاحظوا السماء نفسها منذ مئات السنين.

وكان العالم والصوفي "إبراهيم حقي" من "أرضروم" الذي تحول بصره إلى السماء ليس مجرد البطل الشعبي الذي تم ذكره من قبل شيوخ القرية للأطفال في قصة. هذا الرجل الذي كرَّس وجوده لأسرار الأرض والنجوم كان يزرع بذور سحرية في روح "خليل"، وقال ذات مرة إنه كان يعرف النجوم بالطريقة التي يعرف بها شوارع "تيلو"، ولا يدري أن كلماته ستجعل صبيًا صغيرًا في يوم من الأيام يحتمل الحياة. تجول غنمه بتكاسل حول الوادي، سيشعر خليل، الذي يمتلئ قلبه بالصمت، بالنشوة بفكرة أنه من المكان الذي تتواجد به بوابة النجوم. فلا حكايات قطاع الطرق على جبل "الشيخ عمر" ولا مياه نهر "بوتان" التي تجري لتلتحق بالمياه الأكبر يمكنها أن تقلل من قيمة مشاعره. أخذ نفسًا عميقًا، سيفتح الكتاب الذي يحمله معه دائمًا، ويدرس عمل "إبراهيم حقي" عن النجوم وحساباته بأرقام جذرية، على الرغم من تلك الزهرة السامة التي تنمو فيه، فلم يكن "خليل" في عجالة من أمره، وكان الوقت الذي قضاه فوق الوادي مثل نسيم الربيع فكان ينتمي إليه بالكامل.

أيضًا، وبأقصى درجة يمكن للمرء أن يتصورها، كان "خليل" مشهورًا بذاكرته الضعيفة؛ ففي بعض الأحيان، ينسى أحد الخراف أو يدرك أن نوعًا مختلفًا من الحيوانات قد انضم إلى قطيعه، ومع ذلك، فقد كان لديه تسامح خاص لم يملكه رعاة آخرون. والده الذي كان يضايق أخاه الأكبر سنًا بأخطائه الصغيرة، لم يلمس "خليل". أحد أسباب ذلك هو عيناه النقيتان التي أوجدت الخير في أي شخص، والسبب الآخر هو أن كل شخص بالغ في القرية يعلم أن الموت ينمو بداخله.

فقد نجا "خليل" من التهاب رئوي عندما كان في الثامنة من عمره، بعد نقله إلى المستشفى في حالة محمومة، وكان الطبيب يستمع إلى رئتيه، وقال إنه استنتج أن الطفل لديه ثقب في قلبه، ولم تؤدِ الأشعة السينية للصدر إلا إلى مزيد من التشاؤم من جانب الطبيب؛ فالضغط المرتفع بالفعل يدمر فرصة إجراء عملية جراحية.

في هذه الحالة، كان ل"خليل" فقط بضع سنوات للعيش لأن الثقب سيوقف الدورة الدموية في جسمه.

ومنذ ذلك اليوم، كان يُنظر إلى "خليل" كضيف من قبل جميع من حوله؛ فكان يتم حفظ أنواع جيدة من الطعام له، ولا أحد يقول أي شيء بخصوص نسيانه بضعة أغنام على طول الطريق أو اختفائه لبضعة أيام بين الحين والآخر. لم يتحمل أي مسؤولية تجاه أي شخص، كان يتمتع بأشكال الحرية؛ فكان حرًا كالأبقار والأنهار والنجوم. هذه الحرية عاملته كجميع الثمار في حديقة الزمان، لكنها أيضًا أقامت مسافة بينه وبين كل شيء آخر، لم يكن لديه أي شيء يتحدث عنه مع الأطفال الآخرين الذين كان من المفترض أن يعملوا في الحقول لإطعام إخوتهم. كان غريبًا على مشكلاتهم، وهم، من ناحية أخرى، لم يكونوا حقًا مهتمين ب"إبراهيم حقي"، وسفره بين النجوم في سماء الليل.

كبر "خليل" وحيدًا.

أسوأ جزء من كونك ضيفًا هو أنه تم طردك من المستقبل. منذ أن نطق الطبيب بالكلمات التي جعلت "خليل" بلا مستقبل، ظل عالقًا في الوقت الحاضر، لم يكن لديه مكان بين آمال عائلته وأحلامهم، لم يكن لديه أي تخطيط للمستقبل. إذا لم تكن رغبته في أن يكون راعيًا للأغنام حاضرة، لكان من الممكن حرمانه منها أيضًا، وسيتم تركه وحده ليُنسى مثل جهاز راديو مكسور لذلك بدأ في وضع خططه الخاصة؛ فبدأ البحث عن بوابة النجوم داخل نفسه.

في الليل، كان يجلس على الجرف المطل على الوادي، ويضع يده على قلبه ويصغي، يشعر وكأن قلبه ينبض إلى الخلف؛ فكان وكأن كل نبضة من قلبه تقربه أكثر من الموت. وكان لديه الكثير أراد أن يفعله قبل وفاته، ولكن قلة الوقت أصابته بالرعب، وجعلت قلبه ينبض بشكل أسرع.

الفصل الثالث

كان "خليل" ينظر إلى وجه الطبيب بعناية: كانت عيناه ضيقتين، شعره خشنًا مثل الفرشاة، وكان لديه نظارات بإطارات ضيقة، على عكس تلك التي ارتداها شيوخ القرية. إن تذكر تلك العيون الضيقة ملء عقل "خليل" مع أشياء أخرى كثيرة، لو كان رجلًا لكان قد أراد أن يكون مثل هذا الرجل الذي كان قادرًا على اتخاذ حياة "خليل" بعيدًا بكلمة واحدة فقط. كان يريد أن يصبح طبيبًا يتطلع إليه الجميع ليساعدهم، ويتحول إلى واحد من النجوم التي تحدث عنها "إبراهيم" في كتابه، إذا لم يكن يعلم أنه سيموت في غضون عامين، فسيحصل على لقب معلم أو قائد الدرك، ولكنه يملأ مستقبلًا غير موجود بالأحلام، ولم يترك له سوى الحزن والإثارة المنهارة. في مثل هذه الأوقات، تمنى "خليل" لو كان سليمًا ويعيش في عالم مختلف؛ فأيقظ "خليل" المعافى وأرسله إلى العمل في الحقول مع محراث في متناول اليد أو إلى السوق مع بضعة دولارات، وأحيانًا جعله خارجًا ليصبح مشتركًا في عصابة ويحدق في حياته من قمة جبل الشيخ مع اللصوص. بدا كل شيء صغيرًا ومؤقتًا وعديم المعنى لهذه النظرة.

فكان بداخله قنبلتان، واحدة أشعلها الموت، والأخرى بالرغبة في لمس النجوم. حدث شيء لا يمكن التنبؤ به، الثانية انفجرت أولًا.

فالشخص الذي شد مفجر القنبلة كان رجلًا صغيرًا، وكان عنده نظرة مترفعة على وجهه، وجده "خليل" في صباح أحد أيام شهر يوليو وهو يأخذ أغنامه إلى الوادي، كان قد وجده جالسًا على صخرة يمسح عرقه، وكان الطقس حارًا جدًّا حتى في تلك الساعة، كانت السماء نيلية زرقاء من دون سحابة واحدة، وكان الرجل العجوز يتنفس بصعوبة، بدا وكأنه قد انتهى للتو من مسيرة طويلة. أدار رأسه على صوت جرس الأغنام.

وقال يا...، بصوت قوي بشكل غير متوقع:

- يا أيها الراعي! انظر هنا!

تقاسم "خليل" مياهه مع الرجل العجوز وعلم أنه أستاذ بعلم الآثار. كان ل"تيمور إسينجيل" وجه مدبب، ونظرة جنونية في عينيه، وبضعة خيوط شعر، وكلها تشير إلى اتجاهات مختلفة، وكان رقيقًا جدًّا. عظامه كانت تمسك بظلاله على خديه الشاحبين، بدت رقبته كأشواك بيضاء عالقة على جلده، وكان يرتدي قميصًا رقيقًا وبنطلونًا من الكتان.

لم يستطع إخفاء دهشته عندما أدرك أن الراعي الذي أعطاه الماء، فهم علم الآثار. كان "خليل" قد قرأ مجموعة من الأشياء عن الأهرامات في الموسوعة التي مزقها وألقاها في النار في يوم من الأيام مجموعة من الطلاب المتهورين باردي الأعصاب حتى النخاع.

سأل وهو يحدق في وجه الرجل بدهشة:

- هل تبحث عن الأهرامات أيضًا؟

فعل "تيمور" شيئًا غير متوقع مرة أخرى وضحك. لم يبدُ الضحك رائعًا على فمه الغائر وشفاهه الجافة، ومع ذلك، كان على "خليل" أن يستشعر التعويذة التي كان يتطلع إليها منذ فترة طويلة، والبوابة التي بحث عنها في كل مكان.

قال مبتسمًا وهو يعطى بقية الماء للعجوز:

- الأهرامات في مصر. إذًا ما الذي تفعله هنا؟ لا يوجد شيء هنا.

شرب الرجل وقال:

- أنا أشاهد الوادي.

- وماذا ترى في الوادي؟

- أرى مسيرة العشرة آلاف.

وهكذا بدأ. كان ذلك هو اليوم الأول الذي سمع فيه "خليل" عن الجنود الذين تبعوا الأمير "قورش" في حرب بالقرب من نهر الفرات وكانوا مغيبين كما قيل في كتاب المؤرخ "زينوفون"، لقد استوعب اليأس الذي كان يجب على هؤلاء الجنود أن يشعروا به وهم عالقون على أرض العدو على بعد أميال من منزلهم، مع موت ملوكهم وقادتهم.

كان "تيمور" راويًا جيدًا، وكان بإمكانه أن يشير إلى كل مكان في الوادي، حيث مر الجنود عندما كانوا يهربون من الهزيمة، وكانت فكرة تخيل جيش فارسي كامل يمر عبر هذه الأماكن، وهو يمشي ويلعب حوله في كل يوم مذهلة بالنسبة ل"خليل".

سأل "تيمور إسينجيل" وهو ينظر إلى وجه الصبي:

- ماذا تريد أن تفعل؟

- لا أعرف. أعتقد، ربما، كل شيء.

وهكذا انضم صوت جديد إلى حياة "خليل"؛ فكان عليه الآن التعامل مع كميات هائلة من الهلع، والخوف الرهيب من أن يفوت الأوان. كان عليه أن يخرج بسلسلة لا تنتهي من أشياء جديدة يجب القيام بها، على الرغم من أنه لم يكن قادرًا على النطق بشكل صحيح لما كان عليه، كان يدرك أن مصيره كان ينتظره في مكان ما بعيدًا عن هذه القرية، وكان الخوف من الموت الذي غطى قلبه بصمت يدفعه خارج وادي "بوتان"، إلى المسار نفسه الذي اتبعه الجيش الفارسي الجريح.

لم ينسَ أبدًا كيف أن بضعة آلاف من الجنود قد تغلبوا على عوائق مميتة، جميعهم صرخوا بالكلمة اليونانية باسم "البحر":

- ثالاسا! ثالاسا!

الفصل الرابع

هذه القصة، التي كتبها "زينوفون" في مذكراته، تذكر القارئ أسطورة مختلفة. الأشياء التي حدثت للجيش كان عليه أن يقودها من خلال القدر هي نوع من مغامرة "أوديسيوس" أو بالأحرى رحلة الناجين من الجيش الفارسي الذي يكاد يكون على النقيض من تجارب "أوديسيوس" وقواته البحرية. قائد فخور في حين أن اليونانيين في حالة من الصدمة والحزن، والهدف الوحيد للجيش هو المرور عبر الأراضي الأجنبية من دون سواحل والوصول إلى البحر في أقرب وقت ممكن، في حين أن "أوديسيوس" مشغول بمحاربة آلهة البحر من أجل الوصول إلى الأرض.

فكيف للمشتاق للأرض أن يفهم المشتاق للبحر؟

لقد فكر "خليل" في كثير من الأحيان خلال سنوات نفيه في ألمانيا. كان صوت خبيث يهمس في أذنه، وأخبره أنه قد يكون هناك أوجه تشابه بين تجاربه الخاصة وعشرات الآلاف في "الأناباسيس". لم تفكر "ليلى" في مثل هذه الفكرة لفترة طويلة. كان خائفًا من أن يُساء فهمه؛ لأن هناك اختلافات واحدة تمسح كل تشابه آخر، وكان "زينوفون" رجلًا من المرتزقة الذين أعطوا الأولوية لجيوبهم الخاصة.

من جهة أخرى، اتخذ كل من "خليل" و"ليلى" هذا الطريق بالتضحية بأنفسهما، واعتبرا في ضوء إيجابي أنهما "مثاليان". لم يكن لديهما جشع الجيش الفارسي ولا غطرسة الإغريق.

كانا يسيران بلا كلل إلى الحرية عندما هبت عاصفة رهيبة وتسببت في انهيار عالمهما من حولهما.

يجب أن يكون "خليل" قد فكر في "زينوفون" وجيشه في ذلك الوقت. ربما ذات إحدى الليالي التي لم ينم فيها، بينما كان يتجول في برلين ويداه في جيوبه، كان يتخيل الجيش الجريح يمر في وادي طفولته، لكن هذه المرة، يجب استبدال وجوه الجيش الفارسي بأوجه جيله. جميع الشباب الذين تم إطلاق النار عليهم في الشوارع، والذين تعرضوا للتعذيب وتم إلقاء القبض عليهم في السجن، يجب أن يكونوا قد انحنوا لبعضهم بعضًا وأنهم خرجوا ببطء، بينما كان راعيًا صغيرًا يشاهدونه.

الفصل الخامس

لم ينسَ "تيمور"، الذي جاء إلى "سِعِرْد" في عام 1974 بسبب "تحليلات متواضعة" كما وصفها، الراعي الغريب الذي التقى به في وادي "بوتان" بعد عودته إلى كليته في "إزمير". كتب له رسائل مطولة وصف فيها ما كان عليه القيام به لتحسين نفسه، خطوة بخطوة.

- ما يهم هو شغفنا وفضولنا وحمايتنا لرؤيته.

قال في أحد خطاباته:

- إن حقيقتنا مخفية تحت جلدنا، في روحنا. تمامًا مثل المدن القديمة المدفونة في انتظار عالم الآثار الذي سيكتشفهم، إذا لم نتعثر مع السطح ونكون قادرين على وضع أيدينا على أعماقنا، يمكننا اكتشاف الشوارع الواسعة وميادين روحنا وإيصالها إلى النور؛ لذا فيا طفلي، أينما كنت، هذا هو الوقت والمكان المناسبان للبدء في القيام بذلك، ولا تتوقع هدية كبيرة تنتظرك عندما تصل إلى هذه الحقيقة؛ إن ما ستحصل عليه سيكون أحيانًا دمعة، أحيانًا رعشة صغيرة وأحيانًا روحك التي انبهرت بنورك الداخلي.

وخلال الأسبوع الذي قضاه في "سِعِرْد"، كان "خليل" قد أطلعه على الكهوف، والينابيع الساخنة ذات الرائحة الكبريتية والآلية البصرية الفريدة التي أنشأها "إبراهيم حقي" لمدرسته. أنا على يقين من أن أشعة الشمس التي صدمت "تيمور إسينجيل" بالطريقة التي وُجدت بها المقبرة في اليوم الأول من السنة من خلال ثقب في الجدار الذي بناه الفيلسوف على التل المطل على الوادي، فقط لترتد من وضع المرايا على ضوء سرير "إسماعيل فقير الله"، والآن تضيء حياة "خليل" كذلك. يبدو لي أن "إسينجيل" قد طلب من "خليل" مواصلة تعليمه. في الواقع، يجب أن يكون قد ساعده فقط من خلال كتابة تلك الحروف. من الواضح أن الشعور كما لو أن هناك شيئًا متوقعًا منه قد وفر ل"خليل" القوة التي يحتاج إليها. كيف يمكن لنا أن نفسر طفرة تنمو مثل الأرض البور؟

كان "خليل" يخفي مرضه من الرجل المسن، وكان خائفًا من أنه لو علم أنه سوف يتخلى عن الأمل مثل أي شخص آخر جعله يدرك أن هذه كانت فكرة ساطعة.

لم يتحدث أبدًا عن مرضه إلى الأشخاص الذين قابلهم بعد ذلك. لم يرغب في قضاء الوقت الذي كان يملكه على هذه الأرض وهو يتحدث عن أمراض القلب، وكان لديه عمل أكثر أهمية مثل بدء المدرسة المتوسطة في أقرب وقت ممكن، يجلس تحت أشجار الفستق، يقرأ الكتب التي أرسلها "إسينجيل"، وهي عادة قد تسببت بالفعل في فرار عدد قليل من الأغنام خلال الأسبوع الأول، وتخيل مستقبله. لقد كان عظيمًا في فصوله ورأى مثل نجم صغير في سماء "بوتان" التي انفتحت إلى الأبد، لقد كان مهووسًا بكونه راعيًا. تلك المهنة الرائعة التي نسيها ببطء عن صديقه القديم. لم يلحظ حتى الفرق بين الكتب التي أرسلها "إسينجيل" في الأسبوع الأول من كل شهر، فقط بعد التهام تام لكتب المستوى الابتدائي والكلاسيكيات العالمية، أدرك أنه تم استبدالهم بأعمال أكثر تحديًا، مثل تخلي "مدام بوفاري" عن عرشها ل"طاليس" و"سبينوزا". من خلال التعرف إليهم، فهم

أن أول رجل مسن قدم له يد المساعدة هو "إبراهيم حقي". كل هؤلاء المفكرين كانوا مجتمعين في خيال "خليل" مُشكِّلين كوكبة، وكان لديهم أخوة بينهم، سندات غامضة والتي تم الكشف عنها فقط للعيون الأكثر مراعاة.

ومن ناحية أخرى، أصبح قلق القرية حول حياة "خليل" ما زال حيًا في الوقت الذي أنهى فيه دراسته الثانوية. كانوا يشاهدونه ضيفًا استضافهم بحب، وشاركوا طعامهم ومنزلهم مع شخص لم يعرف متى يغادر، وقد خلقت السنوات الأخيرة من حياة "خليل" في القرية شعورًا مماثلًا إلى الفترة الزمنية بين الوقت المناسب لترك الضيف والوقت الفعلي الذي يغادره.

كان القرويون في الواقع شعبًا مضيافًا جدًّا مثل باقي قوم الأناضول، لكنهم كانوا بحاجة إلى معرفة ضيفهم، ومعرفة مَن هو ولديه بعض الفهم لمصيره من أجل أن يحبونه حقًا.

كان "خليل" علامة استفهام تنام في الليالي وكأنه شيء خاطئ على مرتبة الأريكة التي أعدوها له، وكانوا يؤمنون بقوة أن قلب الطفل المريض سيتوقف فقط في أي يوم بعد أن كان مجرد النظر في عيونه السوداء يرهبهم. رؤيته جعلهم يفكرون في الموت وفقط مثل أي شيء آخر رفضت البشرية مواجهته على مر القرون، كان للموت أيضًا ضوء كان من الصعب جدًّا استيعابه. أعطاه هذا الضوء هالة محترمة وأزعج الأشخاص المسنين عندما رؤوه في الشوارع. اعتقد البعض أنه كان خالدًا، وأنه كان رسولًا أرسل إلى الأرض من أجل اختبارهم، وكان هناك بعض الذين أخذوا الأمر أكثر من ذلك، وألقوا باللوم على هذا الموت ذي الرأسين الذي قام بجمع أغنامهم، وأشركوا طعام أبنائهم في كل ما حدث في القرية، فإذا لم تنجح صلواتهم بسبب المطر خلال فصل الصيف الحار، فإن ذلك بسبب "خليل"، وإن قرر نهر "بوتان" أن يغرق الأطفال فيه، فأرجعوا سبب ذلك إلى "خليل". كان السبب في أن "عزرائيل" لم يتركهم بعيدًا عن بصره وكان يعطي لهذه القرية نوعًا من الاهتمام الذي لم يدفعه للآخرين.

عندما بلغ التاسعة عشرة، فهم "خليل" الشعور بعدم الارتياح المحيط به وفي يوم من الأيام صعد إلى والدته بعد أن أنهت صلاتها. توقفت عن سحب سجادة صلاة لأنه قبَّل يدها.

سألته "جواهر" هانم:

- هل أخذت قرارك يا بني؟ على كل حال، الذهاب إلى إسطنبول كان لا يزال يعتبر عملًا شجاعًا في تلك الأيام. كانت رحلة غير معروفة النتائج.

- لا. لم أقرر، ولكنَّ هناك مصيرًا يدفعني على جانب واحد، بينما يجذبني على الجانب الآخر، وأنا أعلم أنه من خلال البقاء هنا فإنني أسبب الأذى لكِ وأبي، كما أنني سأترك الحريق الذي يحرقني في الداخل منذ أن كنت طفلًا دون إجابة؛ إذن فقط أعطيني إذنًا وحاولي ألا تقلقي. لا شيء أقوى من إرادة الله.

خلال يومه الأخير على الأرض التي ولد عليها، زار قبر "إسماعيل"، ونظر إلى الضوء الذي يزور سرير القبر كل عام في اليوم الأول من يناير. إذا كان الرجل قد تمكن من الإبحار إلى

النجوم من هذا المكان قبل مائتي عام، فقد اعتقد أنه قد يجد حفرة على جدران القدر التي لا يمكن تجاوزها، والقفز من هناك إلى الأبد.

الفصل السادس

هناك عدد قليل جدًّا من الناس الذين أصبحوا أبطالًا بعد تحديد عقولهم لذلك. الأبطال الذين نقرأ قصصهم بإعجاب؛ الذين يثيرون قنواتنا المسيلة للدموع بشجاعتهم هم عادة أشخاص عاديون قبلوا مصيرهم. كثيرًا من الناس الذين اختاروا أن يعيشوا حياة سلمية في منزل قروي مع عائلاتهم اضطروا إلى وضعهم البطولي بالقوة العظيمة التي نسميها التاريخ، ومع ذلك، لا تزال هناك بعض اللحظات التي يدركون فيها مصيرهم، ويفهمون أن الحياة التي سيقودونها ستكون مغامرة. عندما تصل لتلك اللحظات، يبتعد هؤلاء الأبطال عن كل شكوكهم ويكتسبون وجهة نظر لا يملكها عامة الناس مثلنا. ربما ل"زينوفون" الذي وجد نفسه يقود الجيش الذي ذبح ملوكه وقادته هذه اللحظة عندما كانوا يعبرون نهر "بوتان". ربما الواقع الداخلي لهذا الرجل المثير للشفقة الذي عاش من أجل الشهرة والثروة حتى اندمجت هذه النقطة مع الواقع المحيط بها، وكان يفهم أن وجوده يخدم غرضًا أكبر. "خليل" الذي أمضى طفولته في السباحة في هذا النهر ولعب الغميضة في كهوف الجبال المحيطة بالنهر، واجه مصيره في يوم شتاء، تحت المطر الذي جلد جلده.

تم تصوُّر المشهد كالآتي: مسيرة ضمت نحو خمسين شابًا أو نحو ذلك، وعشرين من ضباط الشرطة وضعوا حول هذه المسيرة والأمطار المسائية البطيئة والناعمة تهطل على كل منهم. "خليل" الذي كان قد سُحب في جاذبية الفكر الاشتراكي مثل العديد من أصدقائه الجامعيين الآخرين، قرر أن يحضر هذه المسيرة؛ لأنه لم يكن لديه ما هو أفضل من ذلك ليفعله ولم يشعر بالعودة إلى المنزل الذي تشارك فيه مع ثلاثة أشخاص آخرين.

كان كل شيء يحدث بوتيرة مملة وحزينة تقريبًا، حتى صوت ضباط الشرطة الذين كانوا يحيطون بنهاية الشارع ويخبرون الشباب بالتفرق كانوا يحملون مسحة من الملل. توقف الحشد على بعد عشرة أمتار من الشرطة، بعد قراءة تصريح بأن شهداء الثورة لن يتم نسيانهم أبدًا، كان كلا الطرفين يدركان أن الوقت قد حان للتفريق، سواء كنت ترتدي الزي الرسمي أو الثوب الأخضر للثورة، كان من المفترض أن تعود إلى منزلك المعدم، وكان من المفترض أن تستمر حياتك بالضعف نفسه.

سُمعت طلقات نارية.

الطالب الذي قرأ الإعلان (كان شابًا أشقر وله لحية طويلة) سقط على الأرض بصراخ، وانتشرت الفوضى بالشارع. تم إطلاق عدد أكبر من الطلقات وبدأت الشرطة التي لم تكن على علم، بإطلاق الرصاص في كل اتجاه.

سار "خليل" بهدوء في تلك الفوضى وساعد الطالب الذي كان يحدق الآن إلى ساقه الدامية في خوف، ويحاول الوقوف على قدميه. كان يحمله على ظهره وعندما وصلا إلى حديقة على بعد بنايتين، كان الظلام حالكًا، وكان أهل إسطنبول الذين اعتادوا على صوت الطلقات النارية على مر السنين قد أغلقوا الستائر، وكانوا ينتظرون أن ينفجر كل شيء دون أن يؤثر عليهم.

هذه الحادثة جعلت جولاتها بين الطلاب الاشتراكيين حتى وصل بعضها إلى "خليل" في الكافتيريا ذات يوم وقدمت له، لقد أعجبوا بمعرفة هذا الشاب الذي لم يكن خائفًا من الموت، فقد كان قادرًا على تصنيف المفاهيم بموضوعية مدهشة، وتحويل البيانات الفردية إلى عنصر مثير للاهتمام مثل هذه كانت أكثر الأنشطة الدنيوية التي كان من الممكن أن يشارك بها، وقد فعل كل هذا في أثناء تناول شطيرة الجبن.

وبطبيعة الحال، حصل على الكثير من الأصدقاء في فترة قصيرة من الزمن. كان لديه الكثير من المحادثات الطويلة معهم، وانضم إلى العديد من الاحتجاجات الخطيرة إلى جانبهم، ومع كل حادث جديد تركه دون أن يصاب بأذى، ازداد إعجاب أصدقائه له، مما جعله في نهاية المطاف محاربًا فارسيًّا في أعينهم. لكنني لا أعتقد أن أيًّا منهم قد اكتشف مصدر قوته الحقيقي. الموت في قلبه، خامد منذ يوم ولادته.

"نريد العالم ونريده الآن"!

هذا الخط من الجيل السابق للثوار- جيل 1968- هو جمع مثالي للنظرة إلى الشباب في جميع أنحاء العالم. الشباب دائمًا في عجالة؛ لأنه بغض النظر عن الأيديولوجية التي لديه أو لديها، فإن الوقت يمر ببطء بالنسبة لشاب. دعونا نُذكِّر أنفسنا بهذه المعادلة البسيطة: فدورة واحدة من الأرض تغطي الواحد والعشرين من حياة فتاة تبلغ من العمر عشرين عامًا، في حين أن الوقت الذي يقضيه كوكبنا القديم في الدوران حول الشمس لن يغطي سوى واحدة من الستين من عمر الستين سنة من عمر أستاذ عجوز؛ لذلك من الطبيعي أن تكون سنة حياة فتاة صغيرة ثلاثة أضعاف طول مدة حياة الأستاذ، لكن في حين أن الفتاة كانت غير صبورة لأنها لا تستطيع تحمل التدفق البطيء للوقت، فإن الأستاذ غير صبور لأنه يعلم أن الوقت ينفد؛ لذلك يشاهدها بحسد. يتدفق الوقت بسرعة عبر مخططنا الزمني ويحملنا من نقطة قلق إلى أخرى، عندما يجتمع هذا القلق مع الفكر الاشتراكي فإنه يكتسب سمة ثانية. عالم في حاجة ماسة للتغيير يأتي إلى النور.

كل دقيقة ينفقها العالم دون تغيير يمكن أن تشعر وكأنها أبدية للفتاة الصغيرة التي تضع ملصقات ملونة على جدران كليتها.

ووفقًا ل"خليل" الذي كان يراقب الفتاة من خلال نافذة الكافتيريا، كان الوقت عدوًا في كلا الاتجاهين. كان عمره واحد وعشرين عامًا، هو أيضًا يمكن أن يشعر ببطء الزمن لكن كل ضربة قلب جديدة كانت تسحبه أقرب إلى الموت، وكان يعيش قلق الفتاة الشابة وأستاذها القديم في الوقت نفسه، وهو السبب في أنه كان يقرأ من دون توقف، وكان يرسم رسومات على الجدران، وكان أصدقاؤه يخافون من الاقتراب منها، ويخصص بضع ساعات متبقية ليتعلموا كيفية العزف على الساز. كان كما لو كان عليه أن يفعل شيئًا باستمرار، ولأنه لم يكن يعرف أي زاوية من الموت ستعيد أنفه الطويل من الموت، كان يركض ويحاول أن يلائم حياة كاملة في حياته القصيرة.

أخذه هذا القلق من خرافه وحمله إلى كافتيريا جامعة إسطنبول. كان يستمع إلى المحادثات في هذا الكافتيريا المليئة بالدخان كواحد من الطلاب الاشتراكيين، على الرغم من أنه أخفاها عن رفاقه،

فإنه كان يراقب الفتاة التي تضع الملصق.

كانت "ليلى" في الثامنة عشر من عمرها في ذلك الوقت، كانت ترتدي بلوزة خضراء زهيدة وتنورة خضراء قصيرة تبدو جميلة حتى بالنسبة إلى أعيننا المعاصرة.

جعلها حذاؤها ذات الكعب العالي والشعر الطويل تبدو كزهرة. كان الملصق الذي كانت تضعه مجرد إعلان عن حفل الرقص المقبل، وسوف يتم نزعه في غضون ساعتين ليحل محله اجتماع سياسي، لكن هذا لا ينبغي أن يمنعنا من مراقبة شبابها الحلو. كانت حبوب اللقاح منتشرة في الهواء ويمكن للجميع أن يشتمُّوا رائحة الصيف، وعندما كانت "ليلى" تلصق الجزء العلوي من الملصق رأى "خليل" بقع عرق صغيرة على إبطها. ظل ينظر إليها بينما كان لا يزال يستمع إلى المحادثات حوله، واكتشف شيئًا آخر كان عليه أن يتناسب مع عمره القصير.

الفصل السابع

لم يطالب "خليل" أبدًا "ليلى" بتبني أيديولوجيته. لم يكن يعتقد أنه من المناسب أن يتلاعب بحبها للدعاية، ومع ذلك تحولت "ليلى" لتكون تلميذة تستمع إليه بشكل أفضل بكثير مما كان متوقعًا، لقد حولت نظرتها إلى عالم "خليل" بفضول. أرادت منه أن يخبرها ليس فقط بالمبادئ الأساسية للفلسفة، بل أيضًا لأطفال قريته الذين ماتوا بسبب الحصبة والسحب الرملية التي تغطي السماء في منتصف الصيف. ربما كانت رغبتها هي أن تضع هذه الأمور في قلبها وأن تعالج شيئًا ما هناك. كانا شخصين تقابلا عبر جبلين مختلفين. يشاهدان آلامًا مختلفة، كان هناك فضاء بينهما لا يمكن أن تملأه أي كلمة عاطفية، فكانت مساحة كبيرة ومخيفة لدرجة أنهما كانا يخافان دائمًا من إلقاء نظرة فاحصة عليها، لكن على الرغم من دهشتها، كانت تؤدي لمسة صغيرة أو ابتسامة وسط الخطر في بعض الأحيان إلى اختفاء تلك المساحة بينهما. هذه المعجزة شجعتهما، أعطتهما الحبال ليجعلا الطائرات الورقية الأكثر جنونًا تحلق. والأهم من ذلك، جلبت لهما السعادة. السعادة كانت نادرة في تركيا في تلك الأيام. وكلاهما كانا يعرفان ذلك لدرجة أنهما قدَّرا كل جزء صغير منها.

- أتساءل ما الذي تفعله أمي الآن؟

إذًا ما الذي يمنع "خليل" القديم الذي هو بلا شك أكثر وسامة الآن بفضل شعره الرمادي، تركنا عند العبارة المارة في بحر "مرمرة"؟

ماذا حدث له حيث سافرنا ونحن يائسون في ذلك الوقت؟

ماذا فعل به هذا العالم الذي لا يهتم لندوبنا ويتجاهل صرختنا، ابتعد عن روحه؟

ولكن الأهم من ذلك؛ كيف يمكن لشخص أن يصل إلى هذه السن بقلب مريض؟

لنبدأ بالسؤال الأخير؛ لأن الجواب واضح لنا ول"خليل"؛ نحن ببساطة لا نعرف، ويمكننا أن نضيف بنبرة حزينة أنه لا سبيل لنا أن نعرف. الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعرف هو "خليل"، لكنه لم يزر المستشفى مرة أخرى، منذ أن أخذ هذا الطبيب في مدينة "سِعِرْد" حياته بعيدًا، أصبح مشهد الممرات الزرقاء، حيث الأطباء المتبادلين التحيات غير مخيف بالنسبة له. إنه يعلم أن ثعبان الموت الثقيل يحلم تحت جلده وأنه لا ينبغي أن يستيقظ. هذا لا يأتي كمفاجأة لأن "خليل" هو الشخص الذي سيحمل الموت في قلبه مثل العنب المتقلص مع تجاهله تمامًا. إنه ليس من النوع الذي يشق طريقه إلى الحياة مدفوعًا بجشع غير معقول عندما يأتي الموت لمواجهته، يجب أن يجد احتمالًا أن تكون صورته الأخيرة من العالم من غرفة مستشفى، ويجب أن يكون جسده محاطًا بالآلات بطريقة مرعبة مثل احتمال الموت، ولكن ما زلت أتساءل هل هذا هو السبب الذي جعله يترك "ليلى" حتى بعد كل الألم الذي تحملاه معًا؟

على الرغم من أن "خليل" كان دائمًا يعتقد أنه لم يُكتب له قدرًا خاصًا. لا أستخدم هذه الكلمة في تعريفها التركي القديم، وهذا يعني أن مصيره كان سيئًا. لا عن طريق استخدام هذه العبارة

السوداوية نشير إلى الناس الذين يحصلون على نهاية قصيرة في الحياة.

من المؤكد أنه يضيف نبرة جميلة من الشفقة على النفس لخطابنا والبعض قد يقول إن هذا المعنى ينطبق على "خليل" أيضًا، لكنني أعتبر مشكلته أعمق. "خليل" لم يكن لديه أي وقت مضى، عندما حول نظره إلى أعلى، كل ما رآه كان امتدادًا خاويًا من دون أي ظلال عليها، لم تكن إرادة الله ولا المادية التاريخية قد زودته بمستقبل يمكن أن يلجأ إليه، لقد تركته مع الخوف من استيقاظ الثعبان الموجود في قلبه، والإفراج عن السم في قلبه، ووقف مغامرته في أكثر لحظاته إثارة.

وهو الآن يشاهد ابنه يشرب العصير، وتقف خصلتا شعره رأسه لتشير إلى غروب الشمس. يستطيع الآن أن يتذكر الليلة الأولى من المنفى، وليمة في "ميتيليني"، وعلى ضوء "أليغالي" وأغنية من "ستيريو"، والآية التي تكمل الصورة في ذهنه جنبًا إلى جنب مع صدمة "النهاوند" في عينيها.

الشاطئ أمامي هو البلد القديم، أتصل بك من "فارنا"، أيمكنك سماعي؟

"محمد"! يا "محمد"!

كان هناك فرق بين "خليل" و"ناظم حكمت" الذي رغم كل شيء وجد القوة في نفسه لدعوة ابنه على الشاطئ الآخر؛ عرف الشاعر أن له قدرًا مكتوبًا سواء كان حسنًا أم سيئًا. على الرغم من أنهما قد يتشاجران في بعض الأحيان لم يكن لديه أي سبب للشك في أن هذا القدر سيلازمه طوال حياته مثل امرأة مخلصة له فقط.

من ناحية أخرى، كان "خليل" على يقين من أن قدره سيهجره عندما يحين الوقت لملاقاة نهايته.

الفصل الثامن

انتشرت رائحة الجبن المشوي من مطعم الوجبات الخفيفة وملأت السيارة. كان سائقو السيارات في الطابق السفلي يرمون السميط لطيور النورس، وكان هناك إحساس وقح بالراحة يغلف كل هذا. الناس الذين اضطروا إلى القيادة من خلال الأسفلت المرصوف بشكل سيئ كانوا يستمتعون الآن بالجزء السعيد الوحيد من الرحلة؛ ركوب العبارة.

كان "خليل" يعرف أن هناك كابينة تليفون يقع على الشاطئ الذي يقترب ببطء. وضع يده في جيبه دون النظر إليه ووجدت أصابعه قطعة معدن بين رنين العملات، وكان الرمز المميز سطحًا أكثر عمومية مقارنة بعملة معدنية، فقد كان كان أخف وزنًا أيضًا.

فكر "خليل" في كابينة تليفون. اللون المعدني الذي ظهر تحت الطلاء الأصفر جعله مثل المغناطيس، تحقق من الوقت ثم تحول بعينيه إلى نظرة على كابينة تليفون في عقله مرة أخرى. كان في حيرة؛ كان إما أن يمشي نحو كشك أو يمشي بعيدًا عنه، لم يستطع إلا أن يفكر في كل الأشياء التي كان سيذهب إليها إذا اقترب منه وكل الأشياء التي كان سيبتعد عنها إذا هرب منها. هذه الحالة من التردد أتعبت "خليل" لدرجة أنه شعر نفسه يلهث في أثناء التنفس وكان قلبه ينبض بسرعة مثل الغزلان الصغيرة، وكانت هناك بعض العلاقات غير المرئية بين قلبه وكابينة التليفون التي كانت معروفة له فقط.

- أتعلم، لم يزرنا بعد الآن.

أخرج ذلك الصوت "خليل" من أفكاره؛ فكان يحدق في ابنه بهدوء، وهذا هو السبب في أنه لم يفهم عمن يتحدث ابنه في البداية.

- أعتقد أنه ذهب إلى فرنسا. أحيانًا يتصل بأمي من هناك، أعتقد أنه يشاهد المباريات. هل يمكنني أن أطلب منك أن تفعل شيئًا؟ إنه مهم جدًّا.

- عمن تتكلم؟

- "يعقوب". عندما يعود، يجب مقابلته وإيقافه. يمكنك حتى تهديده، اجعله يتوقف عن القدوم إلى منزلنا.

تذكر "خليل" ذلك الطالب النائم الذي كان قد صدم بسيارته في يوم ممطر، حتى أنه كانت لديه فكرة عامة عنه في أي وقت مضى منذ أن تذكر أنه يزور "ليلى" في بعض الأحيان ليتحدثان معًا، ومع ذلك، تأججت شعلة الغيرة بالفعل، على الرغم من أن الشعلة تساعدنا على رؤية هدفنا، فإنها تستهلك أيضًا الأكسجين الذي يحتاجه دماغنا. لديَّ ثقة كاملة في "خليل"، أعتقد أنه بمجرد أن يهدأ قليلًا، سوف يرى الأمور بوضوح ويدرك أنه لا حاجة إلى الغيرة، ومع ذلك، فأنا عاجز عن تهدئة الغضب الذي سيشعر به خلال نصف ساعة يقضيها في تلك العبارة.

قال لابنه في محاولة لتغيير الموضوع:

- سوف تفوز البرازيل بكل شيء.

- لا يمكنهم ذلك. ستفوز فرنسا.

- هل سبق لك أن شاهدت فرنسا تفوز بكأس العالم؟

- أنا ما زلت صغيرًا! لم أرَ أي دولة تفوز بكأس العالم!

- لن يهم إذا كنت بالغًا. لن يفوزوا.

- حسنًا. لماذا تغضب من ذلك؟

- أنا لست غاضبًا.

لم يرَ "دينيز" أباه غاضبًا من قبل، لم يستطع فهم سبب رفع صوته. ربما في يوم من الأيام، عندما يتعلم عن الأشياء التي مرَّ بها والداه قبل ولادته، سيفهم هذا الغضب الغريب بشكل أفضل، سوف يرى كيف سارا نحو الألم والفرح بعد التخلص من السلسلة حول كاحليهما مثل حلم "زينوفون" قبل عبوره نهر "بوتان" الذي كان يسمى "كنتري" في ذلك الوقت، ولكن حتى ذلك الحين دعونا نسمح له بشرب عصيره، وإعطاء أبيه نظرة قذرة ومحاولة فهم السبب في عدم التقليل من شأن فريق به لاعب نجم مثل "زين الدين زيدان" إلى هذه الدرجة.

الفصل التاسع

دخل "خليل" الشارع الذي تسكن به "ليلى" في أحد صباحات مارس عندما كانت الأشجار تتفتح بالكاد. كان يريد أن يسأل عن حالهما ويأخذ أيضًا بعض الصور ل"دينيز". لسنوات عديدة، عاشوا ذكريات في هذا الشارع الجميل المليء بأشجار الليمون على كل جانب لتوفير الظل للمباني.

وُلد "دينيز" بينما كانا يعيشان هنا. أعادت "ليلى" بناء عالمها بينما كانا يعيشان مع بعضهما. "خليل" الذي اعتقد في البداية أنه قد تم تعويضه عن سنوات الشعور بالموت، صار هذا المكان بالنسبة له أول مكان يستطيع فيه التفكير في الموت دون خوف، وتذكر محاولاته في التفكير في الموت ليس كملاك مظلم، بل كمرافق له مدى الحياة، وهو جهاز يمكنه معه قياس القيمة الحقيقية لكل لحظة في حياته، لقد حدث كل هذا في ذلك الشارع المشرق، حيث يتم حفر أساس لمبنى جديد كل أسبوع.

عرف "خليل" أن "يعقوب" جاء إلى هذا الشارع مرتين في الأسبوع وزار "ليلى".

وكلما فكر فيه، تذكر شبابه الضائع.

كان التفكير في "يعقوب" يحمل معه الخوف الذي يحمله شخص وهو يودع شبابه. كان "يعقوب" نحيلًا، ولم يكن وسيمًا، ولم تكن عيناه بهما بصيص يمكن أن يثير إعجاب امرأة مثل "ليلى"، لكنه كان لا يزال صغيرًا، وكان لديه تلك القوة السوداء التي تنشر عدم الارتياح في أي شخص لم يعد صغيرًا، يتولد عدم الارتياح من عدم القدرة على التنبؤ بهذا التأثير، ويتغذى على ذلك الألم الناتج عن رؤية شخص ما تتجسد فيه كل الأشياء التي فقدوها من قبل.

كان بإمكانه الجري مثلما لم يستطع "خليل"، وكان بإمكانه أن يبقى مثلما لم يفعل "خليل"، وكان يمكنه رؤية ما لا يستطيع "خليل" أن يراه. هذا الاحتمال الممزوج بالرومانسية الغامضة للشباب أصبح لا يُطاق تمامًا، ويقود "خليل" إلى نوبات من الغضب.

شعر "خليل" نفسه بالغيرة من شاب كان صديقًا لزوجته. شيء لا يمكن تخيله.

كان على علم بأن هناك شيئًا وقحًا حول هذه الغيرة منه، لقد كانت معجزة أن قلبًا مريضًا مثل "خليل" كان به حيوية شبابية ليعيش للأفضل أو للأسوأ، وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن هذا كافيًا بالنسبة له، فقد عاش عمرًا أطول عشرات المرات مما توقع الناس. لكن الحياة كانت وقحة معه.

ذلك الأسى على الشباب الذي ولى منذ زمن بعيد لا يريد أن يزول، بل كان يتحول بسهولة إلى استياء من كان دون الثلاثين من عمره.. كان من الممكن أن يعيش "خليل" بهذه الحقيقة لو لم تكن زوجته متورطة في ذلك؛ كان لديه ما يكفي من النظرية والخبرة في ذخيرته للتعامل مع هذا الوضع. كان حسه الفكاهي الذي اكتسبه تحت الكثير من الإكراه مكافأة، وكان يمكن أن يرى نفسه بغلًا أو ديكًا قديمًا قذرًا يقابل وحش الشباب بابتسامة على شفتيه، ولكن عندما كان "يعقوب" يزور منزله في ذلك اليوم من أبريل، شعر بأن حسه الفكاهي يفلت منه.

كان "يعقوب" يرتدي قميصًا أخضر اللون وبنطلونًا فضفاضًا. بعد رؤيته، كان "خليل" قد تباطأ واقترب من الرصيف. مهما كانت نوايا الصبي، فإن لقاءه بهذه الطريقة سيكون مربكًا بالتأكيد.

كان "يعقوب" قد صعد السلالم أمام المبنى بقوة طاقته العالية، وقد اختفى خلف الباب الزجاجي. أمضى "خليل" دقيقتين في سيارته، ولا يعرف ماذا يفعل بعد ذلك. كان يمكن أن يبقى هناك لفترة أطول، وقد رآه البقال الذي يشعر وكأنه كان من واجبه أن يتحدث مع كل مَن يراه.

- أوه. "خليل"! أين كنت؟

- لقد كنت بالجوار يا "آيديمير"، كيف حالك؟

- بخير، كما تعلم، لم أعد أراك كثيرًا حتى ظننت أنك وجدت سوقًا مختلفًا للتسوق. هل تريد بعض الجبن؟

- لا شكرًا. لست عائدًا للمنزل الآن.

- وعندما نسأل عنك السيدة "ليلى"، كانت مثلك لا تفصح عن شيء.. لقد سمعنا أنك ذهبت لألمانيا لزيارة صديق.

- هذا صحيح.

- لدينا النبيذ الأبيض، وصل في الآونة الأخيرة. أنا أعلم أن السيدة "ليلى" تحبه. هل تريدني أن أحزم لك البعض؟

اعتبر "خليل" الوجه الباسم لهذا البقال- البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا وهو يحاول دخول سيارته من النافذة- مزعجًا. شعر وكأنه يمسك رأس الصبي ويجره إلى الداخل ثم يغلق النافذة حتى يضيق رأسه. أراد الصراخ في ذلك الوجه المفاجئ بكل ما يستطيع من رئتيه:

- لا أعيش في هذا المنزل منذ العام الماضي يا "آيديمير"! لأسباب لم تفهمها حتى لو أخبرتك بها الآن، تركت زوجتي وأنا أعيش حاليًا في منزل صغير في "بحرية" في انتظار الموت ليوقظني ويسممني، والسيدة "ليلى" العزيزة هناك تقضي وقتًا مع النبيذ الذي لديك لأنها مريضة بسبب معاناتها مني. هل تفهمني الآن يا "آيديمير"؟، هل تريد مني أن أقطع رأسك؟!!

الفصل العاشر

كل قصة حب هي عبارة عن خليط من اللحظات متفاوتة في المدة التي تستمر فيها؛ على سبيل المثال، هناك لحظات من الشغف واللحظات التي استسلمت بالفعل للإرهاق. هناك لحظات ولحظات ذات معنى لا يمكننا، حتى أن نوضح فيها سبب عيشنا لها، هناك لحظات صامتة، ولحظات يمكن أن تهز بضجيجها كل نافذة في المدينة. هناك لحظات مشتركة ولحظات يُدفن فيها كل شخص في عمق وحدته. هناك لحظات بريئة ولحظات من المتعة التي نحولها نحن إلى أعياد الخطيئة. هناك لحظات تأتي في وقت متأخر، ولحظات تعرف تمامًا متى تبحر كما لو كانت يقودها قبطان ماهر ولحظات قديمة وحالية نعيشها في طريقنا إلى المنزل. هناك لحظات فقدت طزاجتها ولحظات طازجة نستسيغها في طريقنا إلى المنزل.. هناك لحظات للجنون، ولحظات أخرى عاقلة جدًا فيكون كل المطلوب منا هو التأكد إذا كنا نحصل على القدر الصحيح من التغير. هناك لحظة تكون أكثر أهمية بفضل طموحاتنا أو قلقنا ومخاوفنا بشأن الغد وبعض اللحظات الصعبة عندما يبدو كل شيء بلا معنى. هناك لحظات لا تصدق ولحظات حقيقية جدًّا تصبح مملة. هناك لحظات باردة ولحظات تثيرنا مثل البركان، وتلقينا بعيدًا عن الجنس بإشارة صغيرة.

كلها من أجل الحب ومتطلباته؛ فكل هذه اللحظات مدينة بوجودها للحب، ثم تصبح أعمق تدريجيًّا وتكتسب بُعدًا ثالثًا، وتصبح شبكة مترابطة بإحكام. يتوقف الوقت عن كونه خطًا مستقيمًا ويتوسع في كل اتجاه ممكن، ويصبح كالورقة المعلقة في الهواء بفضل نسيم الصباح، وهذا يمكن أن يكون فقط لتحقيق الحب، فقط هذا الشعور نسميه الحب، يمكن لهذا الشعور الذي تفوح منه رائحة أقوى من رائحة القرنفل، أن يربط كل هذه اللحظات، ويخلق تلك اللحظة الفريدة والمفردة. في لحظة الحب، تعيش تلك اللحظة وتأخذ مسارها وتحصل على مكانها كرمز خالص لشغفنا.

تمامًا مثلما نتذكر إسطنبول مع غروب الشمس الأحمر في مضيق البوسفور، و"تشارلي شابلن" بعصاه وقبعته، نتذكر دائمًا حياتنا بتلك اللحظة، تلك الصورة الفريدة. كلما أردنا أن نعرف إذا كانت حياتنا تسير على ما يُرام، فإننا نقارن حاضرنا بتلك اللحظة، حتى بعد مرور عدة سنوات، عندما لا يبقى أي من هذه المشاعر، لا نزال نتذكر تلك الصورة التي تحافظ على ذكرياتنا حية.

وجاءت لحظة التنوير بالنسبة ل"خليل" فيما يتعلق بحبّه ل"ليلى" يوم الأحد في عام 1991.

كانا قد عادا للتو من المنفى ويقيمان حياة جديدة في إسطنبول بطريقة أو بأخرى. كانت "ليلى" تعمل في مجلة نسائية، وكان "خليل" يحاول الحفاظ على دار النشر التي أنشأها هو وأصدقاؤه.

نزل من المكتب الذي كان يكتب فيه رسالة لأصدقائه في ألمانيا، وسار نحو غرفة المعيشة، وهو يفكر في الجمل التي كتبها مرارًا وتكرارًا في ذهنه.

كان هناك ضوء قادم من نافذة تطل على شجرة الليمون، وكانت أوراق الليمون تعكس ظلالها على بطن "ليلى" الحامل في الأشهر السبعة. هناك لحن صامت لأغنية لم يستطع أحد أن يتذكرها الآن يأتي من ستيريو ويسافر في جميع أنحاء الغرفة. كانت "ليلى" تنام بشكل جيد على الوسائد المتعددة

التي تسندها خلف ظهرها. يداها موضوعتان على قمة القبة المدببة على بطنها، متناغمتان بما فيه الكفاية لتلك الحالة الكلاسيكية بفضل الضوء والظل. كاحلها الأيسر الذي كان منتفخًا لبضعة أسابيع كان ملفوفًا بالكامل، ووضعت كيسًا صغيرًا من الثلج فوقه.

كان الشعر على ذراعيها يلمع مثل الذهب تحت جزيئات الغبار في الضوء. جلس "خليل" راكعًا بجانب الأريكة. شعر نفسه يدخل في مقام دين غير معروف له، وكان الأمر كما لو أن معظم الأجزاء المؤثرة في كل نص ديني قد اجتمعت وهمست في أذنه.

كانت هذه لحظة جديدة حيث اندمجت الروح والمادة في فكرة جديدة، تم استبدال النسيج القديم للوقت بنسيج جديد. كان الضوء الذي يضيء في الغرفة يجبر الأثاث على تجديد نفسه والشمس تقوم بواجباتها اليومية على شرف "ليلى". سواء كنا نتعلق بالسعادة التي شعرنا بها في تلك اللحظة أم لا، يجب أن نفهم أن هذه لحظة "حياة نقية". مياه الحياة التي كانت تسير بهدوء حتى تلك النقطة وجدت نفسها نقطة يمكن أن تنطلق منها.

الفصل الحادي عشر

بعد مرور ثماني سنوات على اجتماعيهما الأول والأخير، سافر "خليل" إلى "أزمير" لرؤية "تيمور إسينجيل"، كما كان يأمل في مقابلة بعض أعضاء المنظمة التي كان جزءًا منها. كان يومًا غائمًا في سبتمبر. كان يرى "أزمير" للمرة الأخيرة، وكان يقف على حافة ويحدق في الشمس ويقارنها بالشمس التي تحيط بقريته. شاهد البحر المتوسط من بعيد وحاول أن يتخيل السفن اليونانية القديمة التي كانت هنا في يوم من الأيام، ثم جاءت إحدى النساء الغجر لتقرأ كفه على الرغم من أنه كان لا يؤمن بذلك، وعندها زعمت المرأة أنه كان لديه خط حياة طويل فكان عليه أن يضحك.

- قراءاتي لا تكذب.

كانت مقطبة الجبين. كان من المستحيل تخمين سنها.

- لكن قلبي مريض.

قالها "خليل" بأمانة لدرجة أنها كنت صدمة حتى بالنسبة له، ولكن بما أن هذا كان أول وآخر حديث له مع هذه المرأة، لم يكن هناك ضرر في إخبارها عن سره.

- لا أعرف. خط حياتك يعد بحياة طويلة.

- قبل ثماني سنوات أخبروني أنني سأموت في غضون عامين. ألا تخجلين من الكذب؟

- هذه ليست كذبة! أي أحمق أخبرك بهذا؟

- الأطباء.

- أي أطباء؟

- أخصائيو القلب، ماذا أيضًا.

- حسنًا، اللعنة عليهم!

غضبت الغجرية لدرجة أن صوتها كان متصدعًا، أجبرت حالتها "خليل" على الضحك. لو لم يخف "خليل" من أن تتسبب ضحكاته في إزعاجها لدرجة أن تضرب مؤخرته في منتصف الشارع، لكان قد ضحك بصوت عالٍ. أخرج محفظته وأخرج بعض المال:

- اللعنة عليهم، حسنًا.

أخذت المال ونظرت إلى وجه "خليل".

- تبدو شرقيًّا. من أين أنت؟

- "سِعِرْد".

- لا أعرف أي شيء عنها.

- إنه مكان جميل.

- لكنني أعلم أن لديك حياة أكثر فيك. انسَ ما قاله هؤلاء الأطباء. ستعيش ما هو مكتوب من أجلك.

كان من المفترض أن ينظر "خليل" إلى هذه الكلمات غالبًا خلال سنوات المنفى. في الليالي الطوال، كان يخرج إلى الشوارع ويحدق في السماء الشمالية الممتدة من الغرب إلى الشرق مثل لوحة فولاذية، ويبحث عن علامة بين النجوم لإطالة خطه الزمني.

ولكن في الوقت الذي وصل فيه إلى منزل "تيمور إسينجيل" في "كارشياكا"، كان بالكاد يتذكر ما قالته الغجرية. كان قميصه مغمورًا بالعرق بفضل الوقت الذي قضاه في البحث عن المنزل تحت شمس "إزمير".

استغرق الأمر منه حتى المساء للعثور على عنوان كان قد حفر في ذاكرته منذ سنوات، وكان منزلًا صغيرًا ب"إزمير" مع حديقة محشورة بين مبنيين سكنيين بشعين.

كانت السيدة التي فتحت الباب تبدو خائفة عندما كانت تنظر إلى الشاب الغريب عند الباب، وقالت له إنه لا أحد اسمه "تيمور إسينجيل" يعيش هنا.

- من فضلك أخبريه بأنني طالب قابلته منذ فترة طويلة في "سِعِرْد".

يبدو أن هذه الكلمات أخافت المرأة أكثر؛ فكررت الكلمات نفسها ولكن أسرع هذه المرة وبصوت شديد، ثم أغلقت الباب، ثم سمع أن الباب يتم سحبه والسلسلة تتحرك.

وقف "خليل" أمام الباب البالي الذي كُتب عليه كلمة "إسينجيل" بخط اليد السيئ ونظر لما يجب فعله بعد ذلك. لاحظ انعكاس صورته على زجاج النافذة، وكان قد وضع قميصًا نظيفًا، وحلق قبل أن يغادر غرفته في الفندق. مع شعره القصير وشاربه القوي بدا كطالب جامعي، لكن من الواضح أن هذه الضجة لم تكن كافية لتهدئة الخوف الذي أحدثته الهجمات على الأكاديميين في تلك السنوات، ومع ذلك، كان يرغب في رؤية الأستاذ للمرة الأخيرة. كان مدينًا له بالشكر على كل هذه السنوات، مما أدرك أن الوقوف أمام بابهم قد يتسبب في استدعاء المرأة للشرطة؛ فعبر الطريق وبحث عن مكان يستطيع من خلاله مراقبة المنزل دون أن يلاحظه أحد.

كان هناك حقل فارغ، حيث كان الأطفال الصغار يلعبون كرة القدم في طريق عودتهم من المدرسة، وكان جانب واحد فقط منه بجوار مبنى سكني، وكانت جميع الجهات الأخرى فارغة، وكان بعض الأطفال يرتدون الزي المدرسي الأسود، وقد تراكمت حقائبهم الملونة أمام الجدار المنخفض الذي يفصل الحقل عن الشارع، واشترى "خليل" كيسًا من بذور عباد الشمس من البقال،

وجلس عند الحائط وشرع في مشاهدة المباراة، وبهذه الطريقة، استطاع أن يدير ظهره لأي عيون غريبة من المنزل، ولكنه استطاع أيضًا أن ينظر إلى بوابة الحديقة إذا حول رأسه قليلًا.

يجب أن يكون قد جلس على هذا الجدار لبضع ساعات لأن ثلاث ألعاب مختلفة بدأت وانتهت، بينما كان يشاهد بوابة الحديقة، في حين أن لاعبي اللعبة الرابعة الذين كانوا أكبر سنًا من اللاعبين السابقين كانوا يناقشون ما إذا كان هناك هدف يمكن الاعتماد عليه إذا مرَّ بالخط، رأى "خليل" أن البوابة مفتوحة، وكان هناك رجل لا يعرفه "خليل" إلا عن قرب وهو يسير نحو الحقل بينما كان يميل على عصاه. كانت لديه لحية بيضاء طويلة ونظارات سميكة، وكان حدسه أكثر وضوحًا مع كل خطوة وكان عليه التوقف عند كل خطوات قليلة للتنفس. كان الأمر كما لو كان "تيمور" قد مضى عليه مائة عام.

تخيل "خليل" هذه اللحظة مرات لا حصر لها عندما كان صغيرًا. كان قد ابتكر العديد من المشاهد من خلال الاجتماع باستخدام صور "تيمور" التي كان يملكها في ذاكرته وتحويلها إلى ملصقات. كان قد كتب خطوطًا لهذه المشاهد.

في بعض الأحيان في مخيلته، كان يضع مرآتين لمواجهة بعضهما بعضًا ومشاهدة صورة "تيمور" فيها تتكاثر إلى ما لا نهاية. كل الإيماءات والكلمات التي كان يمارسها أمام المرآة كان لها غرض واحد فقط، وهو أن يثبت للبروفيسور أن البذور التي زرعها في "وادي بوتان" قبل سنوات نمت لتصبح شجرة رائعة. انتظر الرجل العجوز ليمر من أمامه، ثم نزل من الحائط ولمس كتفه:

- يا أستاذ! أنا الراعي "خليل". "خليل" من "سِعِرْد". هل تتذكرني؟

نظر الرجل إليه بعناية خلف نظارته السميكة. كان وجهه قد كبر كثيرًا، لدرجة أنه كان من المستحيل فهم ما كان يعنيه مظهره.

- كنت قد أخذتك إلى الينابيع الساخنة المنبعث منها رائحة البيض الفاسد وقبر "إسماعيل فقير الله". لقد أخبرتني أن أستمر في المدرسة. أرسلت لي الكتب لسنوات.

أنا ذلك الفتى جئت لأشكرك.

- أوه. ماذا تفعل الآن بعد كل هذا؟

- أنا أستاذ بجامعة إسطنبول. أنا أدرّس الاقتصاد.

- حقًا؟ أنا سعيد للغاية لأن هذا الطفل...

انحنى "خليل" إلى الأمام، وقبَّل يد الرجل التي غطتها الآن بقع العمر من الزمن:

- أنت. الذي أعطاني مستقبلًا.

لكنه لم يستمر لأنه أدرك أن اليد التي كان يقبلها كانت ترتجف. عندما رفع رأسه للنظر في عيون الرجل العجوز، ورأى ما لا يُنسى أبدًا؛ رأى أن الشعور الوحيد في هذين البؤبؤين اللذين انكمشا بسبب الضوء هو الخوف. لم تبُح عينا "تيمور" بأي إدراك على الإطلاق، فقط خوف مجنون. السبب الوحيد الذي جعله يوافق على التحدث إلى "خليل" على هذا الرصيف هو إنقاذ نفسه.

هذا الإدراك تسبب في أن تهب رياح عاتية داخل "خليل"؛ فبدلا من أن يتحدث معه في أمور مهمة لطالما تمنى أن يحدثه فيها طيلة هذه السنين، حدثه في أمور تافهة، وقال وداعًا سريعًا. لن يؤدي إلى شيء سوى الاستمرار في تعذيب الرجل المسن المسكين أكثر من ذلك.

الفصل الثاني عشر

"أنت تعرف جدار برلين القديم في ألمانيا، حيث نعيش هناك".

وفقًا لشائعة انتشرت في ألمانيا حيثما عاش "خليل"، الذي نسيه "تيمور إسينجيل"، قامت أسرة تركية ببناء حي من الأكواخ، حيث كان موقع "سور برلين" ما زال موجودًا.

استخدم الجملة المذكورة أعلاه عندما طلب أحدهم عنوانه، وكان من المهم بشكل واضح لهذين الشخصين اللذين كانا يحملان تراث إمبراطورية أخرى أن يعيشا على حدود كانت قد قسمت عاصمة إمبراطورية قديمة إلى قسمين.

كانت شائعة أخرى من تلك الأيام هي أنه عندما تم إسقاط السور بسبب عدة أحداث تاريخية، كانت الأسر التي تعيش بالقرب منه تحب فكرة الاحتفاظ بقطعة منه، وبهذه الطريقة سيكونون قادرين على الحفاظ على ذكرى من هذا الشيء الغريب الذي يشاهدونه من نوافذهم لسنوات عديدة وسيصبح لديهم دليل ملموس على الماضي لإظهاره لأحفادهم. كان نصيب أحد الزوجين القدامى هو قطعة منه عليها بعض الكتابات، فكما هو معروف جيدًا، تمت تغطية الجانب الغربي من الجدار بكتابات ملونة؛ فقد دوَّن الشباب الذين يعيشون في الجانب الحر رغبتهم في الإخاء ورؤية ألمانيا متحدة مرة أخرى على هذه القطعة. ما أدهش الزوجين القدامى هو حقيقة أن الكتابة على القطعة جاءت من لغة أجنبية، لم يكن لديهم أي فكرة عن اللغة التي كتب بها هذا أو مَن قاله، ومع ذلك، فقد احتفظوا بها لسنوات واعتنوا بها وكأنها كنز مقدس.

كان ذلك فقط عندما جاء صديق يتحدث التركية قليلًا لزيارة منزلهم فاكتشفوا ما تعنيه هذه الكتابات.

"الوحدة 72 من كتابات نوري من سامسون، يترك هذه الأرض دون أن يضاجع أحدًا"..

قد تكون هذه القصة مختلفة لكنها لا تزال تلخّص القرن العشرين تمامًا: مأساة الحرب التي أودت بحياة الملايين من البشر، والقصص النبيلة التي نشأت من رماد السور المتساقط، وأخيرًا الكوميديا التي ولدت مما كتبه "نوري". في الواقع، يترك ثلاثي الكوميديا والدراما والمأساة بصماته على كل ثانية من هذا القرن الباهت.

يسافر الضحك والدموع خلال كل هذا الضجيج معًا، دون أن يترك أحدهما يد الآخر.

"خليل" لم يدع يد ليلى؛ فقد وقع في حب أفضل صديق له من جديد خلال فترة الشفق بالمنفى. أحيانا كان يُظهر هذا الحب في بعض الأحيان خلال اجتماع للاجئين السياسيين، وأحيانًا قام بإضاءة مصباح "خليل" خلال الليل الطويل في منزلهم البارد في "كيوزبيرغ"؛ فكان ذلك بمثابة كل أنواع الحب المختلفة.

جاء البعض من الإيمان وجاء بعض من كونه بالحنين إلى الوطن وبعض من اللحظات العادية من السعادة، وكان لا يزال يعتقد أن زوجته رائعة؛ لقد كانت لطيفة الملمس حتى إن كانت تناقش السياسة، وكان يعشق مشاهدة "ليلى"، وهي تستوعب عملها في المؤسسة وتجري من مقابلة إلى مقابلة، بينما كان جهاز التسجيل الخاص بها ماركة "جروندج" يتصادم مع كل شيء في طريقها. عينا "خليل" كانتا تجسيدًا لقوة الحياة، كان يعتقد أنه في كل مرة ينظر فيها إلى "ليلى" كان الموت يصبح أكثر بعدًا، ولا شك في ذلك. كان هذا هو الحب.

كانت "ليلى" مليئة بالحيوية، ودون إدراك منها، حالت بين "خليل" وموعده مع الموت. كان من المستحيل أن تدير ظهرك إلى العالم إذا كنت تعرف أنها موجودة فيه. كانا يسيران معًا، يبيعان الكباب في الاحتجاجات لجمع الأموال لصالح المنظمة، وجمع التبرعات من أحياء الطبقة العاملة. يبدو أن الإرادة للعمل قد استحوذت على "ليلى" أثناء وجودهما في برلين. كانت تستيقظ في السابعة، وتشغل المدفأة، وتبدأ في تحضير الشاي وتكتب النص في المقابلة التي أجرتها في ذلك الأسبوع. بعد ذلك تذهب إلى المصنع لتناول الغداء، وكانت على علاقة صداقة مع فتاتين تركيتين عملتا هناك، ثم كانت تزور المؤسسة وتتعامل مع مهامها اليومية هناك.

سيكون هناك دائمًا بعض الاجتماعات أو المعارض أو المسرحيات التي أرادت حضورها. صارت زائرة دائمة لمسرح "شاوبوونه".. سوف يستغرق الأمر سنوات حتى يصبح قرار "خليل" أن ينأى بنفسه عن "ليلى" مقبولًا. حدث ذلك عندما تعب من تأجيل الموت لكننا نحتاج إلى العودة إلى ذلك اليوم الممطر في إسطنبول عندما التقا "يعقوب" لفهم هذا القرار بشكل كامل.

الآن، دعونا نحاول أن نتذكر؛ تتحرك سيارة "خليل" على طول الطريق الساحلي بالأناضول، ويقل المطر الذي يلمس النافذة ويزيد مجددًا، و"يعقوب" نائم في المقعد الخلفي. تراقب "ليلى" الطريق، وتتوه من تعب الندوة الطويلة التي حضرتها. يحمل وجه "خليل" تعبيرًا لا أستطيع تسميته، تعبيرًا أبداه في ذلك المساء تحديدًا. كانت المحادثة الهادئة بين الزوجين والتي تبدو وكأنها همهمة بعيدة للشاب الذي يغط في أحضان النوم تختلط مع صوت الماسحة.

- تحدثتُ مع والدكِ. أعتقد أنه لم يستطع الوصول إليك.

- لماذا يتصل بك؟ قلت له مرات عديدة ألا يتصل بك. هل هو مجنون؟

- ما من مشكلة، انسي الأمر.

- هل كان يتكلم بهراء مرة أخرى؟

- لا. بدا وكأنه لم يكن في وعيه. كانت محادثة صغيرة.

- إذا اتصل بك مجددًا، لا تُجِب.

لا بُدَّ أن التعبير على وجه "خليل" في تلك الليلة بسبب الإجابة التي تلقاها.

قد لا نكون على دراية بهذا التعبير؛ لأنه لا يحدث يوميًّا أن نلتقي أشخاصًا يجدون الإجابة عن السؤال الأساسي في حياتهم. دعنا نضع الأمر على هذا النحو؛ هذا هو التعبير الذي سيحصل عليه المتدرب الذي يصرخ به مدربه عندما يدرك أين يكمن خطأه. لا يجب أن يعني هذا الإدراك أنه لن يخاف من جديد مرة أخرى، لكنه على الأقل يعرف الآن سبب انهيار عمله أو لماذا كان عليه أن يعيد ما تم فعله من قبل. وهو يقف في أول خطوة من سلم يُمكنه حمله إلى عالم لم يحمر فيه خديه من الخجل. لا يمكننا أن نفهم ما إذا كان شخص بهذا التعبير يشعر بالسعادة أم لا لأنهم يبدون وكأنهم يريدون اكتساب مزاج غير عادي، وسرعان ما يبدأ في صعود هذه السلالم حتى يصبح صوت مدربه في ذاكرته البعيدة.

كان الحياة هي السيد الوحيد ل"خليل". الحياة أخذته تحت جناحيها منذ اللحظة التي أصبحت فيها الحالة في قلبه معروفة، وقد علمته الإجابات الضرورية، بينما دفعته إلى هنا على طول الطريق من وادي "بوتان".

كان هناك سؤال واحد فقط بقي عليه أن يجيبه بمفرده. عرف "خليل" منذ فترة أن هذا السؤال بالتحديد كان يتعلق ب"ليلى"، لكنه لم يعرف كيف يطرحه.

كان هذا هو السؤال: هل يمكن للشخص أن يعيش ما بقي من عمره بجانب شخص مثل "ليلى" التي تحدت كل شيء في طريقها؟

وكان هذا هو الجواب: لا.

كان سؤالًا ملحًا دائمًا، لقد كان "خليل" يشعر بالملل من الهروب من مصيره. أراد أن يثق بمصيره عندما يتعلق الأمر بمستقبله، مثله مثل هارب بعد سنوات من الاختباء استسلم للشرطة عندما تخلوا عن العثور عليه، وكان من الواضح أنه لم يستطع فعل ذلك،بينما كان مع "ليلى". وفي النهاية بنى شجاعته وأخبر زوجته أنه يرغب في العيش بمفرده من الآن فصاعدًا.

كانا قد أنزلا "يعقوب" أمام رصيف "كاديكوي"، وفي طريقهما إلى المنزل.

ما زلت أحب المشهد السابق على الرغم من أن "خليل" و"ليلى" و"يعقوب" يسافرون على طول الطريق الساحلي. وبما أن جزءًا كبيرًا من الفكر الداخلي يتشكل من خلال السينما في هذه الأيام، ربما يمكننا أن نتخيل أنفسنا نراهم من فوق من خلال كاميرا وضعناها على طائرة هليكوبتر، ثم ترتفع المروحية، وتصبح السيارة أصغر حجمًا، وكما تغطي أضواء إسطنبول الجميلة على الشاشة، يظهر اسم فيلمنا.

الفصل الثالث عشر

كانت ردة فعل "ليلى" مفاجئة؛ فعندما علمت أن زوجها يغادر منزلهما، بدأت في البكاء بصوت مسموع، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يراها "خليل" تصرخ حتى إنه كان في حيرة لما يفعله، لم يكن يعرف كيف يقترب من امرأة تبكي. كان يعرف المرأة التي قاتل معها جنبًا إلى جنب، وعانا معًا بصمت، وأهدرا الوقت بعيدًا عن العمل طوال اليوم، حتى ذلك اليوم كان ينظر إلى "ليلى" كامرأة الأسد، وكذلك كطفل صغير يحمل روح الجرحى. كانت هناك أكوام من الإيماءات والأفعال والكلام التي أعادها الماضي المشترك. بعض هذه الأشياء كانت مشتركة بينهما؛ كانت أعينهما تبحث عن الآخر كلما شعرا بالخوف، وكانا يعضّان على شفاههما قبل أن يضحكا، والبعض الآخر كان خاصًا بكل واحد منهما على سبيل المثال، كانا يتشاجران دائمًا بأصوات منخفضة، حيث يكونان مهذبين بشكل لا يطاق، وأعصابهما المتوترة دائمًا تجعل تلك الأصوات الناعمة تشعرك وكأنها سلاسل من ألحان الجيتار.

ولكن الآن "ليلى" تبكي.

"خليل" لم يعرف ماذا يفعل الآن. الرجل الذي يعرف فقط ما يجب القيام به عند مواجهة امرأة تبكي لم يولد بعد. فكل ما نفعله عندما نكون في مثل هذا الموقف قد يبدو منطقيًّا أو سخيفًا على حد سواء. لا يكاد يوجد فرق بين مداعبة شعر المرأة أو صفعها عبر الوجه؛ لأن كلتا الحركتين لن تغيرا الأمر ما دمنا جعلناها تبكي.

بينما نحن ننتظر في السيارة، نقف أمام مسكننا لتتوقف دموعها، نرى أنفسنا من عيون الناس في الشارع ونشعر بالذنب. يراقبنا الرجل من المبنى المجاور لنا من بعيد. تبتعد امرأتان تحملان مظلات سوداء بنظرة اشمئزاز على وجهيهما. بدأ المطر في الرذاذ مرة أخرى، وبزيادة بكائها، نبدأ في سماع صوت المسَّاحة مجددًا.

يمكنني أن أوصي ب"تابوت النساء الباكيات" لأي شخص لديه فضول إلى أي مدى وصل هذا اليأس. يعتبر التابوت واحدًا من أثمن القطع في متحف الآثار بإسطنبول، هذا التابوت الذي صنع في القرن الرابع قبل الميلاد لامرأة من "صيدا" الغنية يُظهر ثماني عشرة امرأة في قمة الحداد، وجميعهن يبكين حول تلك المرأة الغنية المذكورة. في حين أن بعض دموعهن حقيقية، فإن البعض الآخر كان ظاهريًّا فقط.

إن النظر إلى هؤلاء النساء لمدة عشر دقائق يمكن أن يكون كافيًا لإضعاف معنويات الرجل. نتساءل ما الذي يمكن أن يفعله هذا الرجل لكسب هذه الدموع الكثيرة في الوقت الذي يشعر فيه بالسعادة لأننا لسنا مثله على الرغم من أن النساء بالطبع سيتجمعن حول قبر لنا كذلك في يوم من الأيام. ربما سيكون لديهم شعر مختلف ورائحة مختلفة ولكن التعبيرات الثمانية عشر نفسها سوف تتكرر في ذلك اليوم. هذا الفكر ليس بالفكر المُبهج على الإطلاق.

لم يستطع "خليل" أن يقول ل"ليلى" في ذلك الوقت: "أتركِكِ لأن السعادة التي منحتِني إياها تمنعني من مواجهة مصيري".

مهما كانت ميولك الأدبية، فأنت لا تقول ذلك لزوجتك التي تركتها. إذا كنت تعتقد أن زوجتك قد تعتقد أنك غاضب شيئًا ما وأخبرتك أنه يمكنك مواجهة مصيرك لأقصى درجة أثناء الوجود داخل مؤسسة للصحة العقلية التي لن تكون رومانسية بطبيعة الحال؛ لذا دعونا نستغل الفرصة النادرة للرومانسية التي لدينا هنا، ونفترض أن "خليل" قال:

- لقد كنت جزءًا من الحشد منذ سنوات. أريد أن أكون وحدي لفترة من الوقت. هذا لا يعني أنني لن أسرع إليكِ عندما تتصلين بي أو أنني سأتجاهل "دينيز"، ولكن من فضلك حاولي أن تفهميني.

كانت "ليلى" تفهم كل شيء كان "خليل" قد قاله لها حتى تلك اللحظة. ليس فقط مبادئ الجدلية أو مفهوم فائض القيمة ولكن الأشياء التي خنقت زوجها أثناء المنفى، كانت رفيقة حقيقية له، ولسنوات، كلما كان يدير رأسه، وجد "خليل" امرأة كانت على استعداد للاستماع إليه بصبر بغض النظر عن مدى صعوبة الأمور، لكن على الرغم من أن القضية ليست صعبة على الإطلاق، لم تتمكن "ليلى" من فهم ما لم يخبرها به "خليل".

إذا نظرنا بحذر، يمكننا أن نرى أن العلاقات الطويلة يمكن تدميرها بأسباب بسيطة. على سبيل المثال، يمكن لشخص واحد أن يشعر بالملل أو الوقوع في الحب مع شخص آخر، ولكن بطبيعة الحال، الاستناد إلى مثل هذه الأسباب سيكون عارًا على تاريخ تلك العلاقة (كما أنه سيزعج الطرف الآخر). الشخص الذي يريد الرحيل يحاول أن يكون معقدًا قدر الإمكان، ويتحدث بقدر ما يمكنه، ذلك لأن كل شيء من حولهم يمكن أن يغرق في الكلمات. ولكن السكوت هو أعز هدية يمكن أن تعطيها علاقة طويلة الأمد.

بعد سنوات من تجريد العلاقة نفسها من الكلمات، فإنها تبني قبة لا يشعر أحد أن عليها أن تُملأ بالصمت. كلمات الشخص الذي يترك الملذات من حوله تحت تلك القبة تدق في آذان الطرف الآخر مثل بوق "إسرافيل"، وحتى إذا كان من الممكن إنقاذ العلاقة بعد ذلك، فسيستغرق الأمر وقتًا لتجريد العلاقة من كل هذه الكلمات مرة أخرى.

عند خروجها من السيارة، من المؤكد أن "ليلى" تعتقد أن الرنين الموجود في أذنها لن ينتهي أبدًا.

الفصل الرابع عشر

من ناحية أخرى، أحب تخيل "خليل" برفقة "فريدون سعيد"؛ لأنني أعرف أن "ليلى" لن تفعل ذلك بنفسها. يمثل والدها وزوجها وجهين للحياة لها، وهما غايتان لا ينبغي لهما أن يجتمعا: الخير والشر. الأسود والأبيض. جحيم وجنة.

كانت "ليلى" تخاف دائمًا من أن هراء "فريدون سعيد" قد يلطخ العالم الذي تشاركته مع "خليل". هذا هو العدل، ساعدت والدها بسبب شعور غريب بالمسؤولية؛ استأجرت له منزلًا، أودعت المال في حسابه كل شهر، وزارته كل أسبوع.

من ناحية أخرى، لم تكن تريده أن يدخل في الحياة التي بنتها بعد نفيها. كانت في حاجة لرؤية والدها وجهًا لوجه. وهكذا فعلت. كان والدها يمثل كل ما أرادت أن تتركه وراءها وكان كل شيء جيد تحارب من أجله يتمثل في "خليل".

ولكن كما قلت، يبدو لي أن تخيل الرجلين معًا أمر منطقي، ربما بسبب شيء خاص بالرجال، وهو أمر لا يمكن لأحد أن يفهمه سواهم، فإنه من الصعب أن تصدِّق وبصراحة لا أحد يمكنه أن يفكر أنه عندما تسمح الظروف، سيجتمع الرجل الذي عانت معه المرأة (سعيد) والرجل الذي وجدت المرأة السعادة معه (خليل). ومع ذلك، حتى لو كانا من عوالم مختلفة، فهناك بعض السمات الأساسية التي تربط بين الرجال في ظل ظروف صعبة. تمتلئ المدارس الداخلية والثكنات والسجون بأمثلة من هذا. هناك فرق بينهما وبين المرأة التي هي في الظروف نفسها؛ يمكن أن يصبحوا أصدقاء لأسباب أكثر تفاهة؛ لأنهم يدعمون الفريق نفسه، أو ولدوا في المدينة نفسها، حتى الإعجاب بالمرأة نفسها يمكن أن يكون بداية صداقة جميلة. وهكذا فإن الكليشيه المتعارف عليه بأن الرجال جميعهم واحد قد تم إثباته. لأنه عندما تكون النساء معًا، ترغب النساء في الاحتفال باختلافاتهن، بينما الرجال يحبون أن يفعلوا الشيء نفسه والتركيز على أوجه التشابه بينهم.

تمامًا مثلما أحب أن أتخيل "خليل" مع "سعيد" في "كومكابي".

امتلأ بار الفندق بنساء أوروبا الشرقية. كانت واحدة من أبرد ليالي السنة.

توقف المطر الذي استمر لأيام، واستعيض عنه بالبرودة التي اخترقت الدواخل بالثلج الأسود. كان "خليل" يشاهد النساء يرقصن في مجموعات من اثنين أو ثلاث ويسأل نفسه ما الذي كان يفعله في مكان مثل هذا. كانت هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها بشيء مع والد زوجته، وكان هذا المكان هو المكان الأفضل الذي يمكن أن يخرج به "فريدون سعيد". ادعى أنه يعرف أصحاب البار من أيام الصغر، لقد كان "خليل" واثقًا من أن هذه الليلة ستتلاشى من ذاكرة "ليلى" إلى الأبد.

قال "سعيد":

- أعلم أن لديك مشكلة؛ لهذا دعوتك.

نظر "خليل" إلى حميه بعجب؛ كان للرجل ابتسامة زاحفة ملطخة على وجهه. ماذا عرف "فريدون سعيد"؟ هل كان هذا الرجل الغريب، الذي لم يوجد معه بمفرده من قبل، قد اكتشف سر "خليل"؟

- وما المشكلة؟

- لا أعرف. لكنني أعرف أنها ثقيلة. لديَّ هبة من الله بفهم ما إذا كان هناك سر لدى شخص ما، أو إذا كان هناك شخص ما يحتفظ بشيء ما، أجده على الفور. أنا مدين لنصف إنجازاتي المهنية بهذا، وأعتقد أنك تخفي شيئًا ما.

لم يبدِ "خليل" أي رد. الضوء الأحمر من أعلى كان ينعكس على وجه "فريدون سعيد" ومن ثم منحه مظهرًا شريرًا. التفت العجوز إلى الجرسون، وطلب كل منهم مشروبًا.

- أنت لا تريد أن تقول ما الذي يجعلني أعتقد أن تخميني صحيح. أليس كذلك؟

- وما تخمينك؟

- الموت.. شيء ما يجب القيام به مع الموت.. أعتقد أن لديك سرًا له علاقة بالقتل.

أصبح الأمر أكثر صعوبة وصعوبة على "خليل" لدرجة أنه كان بالكاد يتنفس. كيف يمكن ل"سعيد" الوصول إلى هذا الاستنتاج؟

- حتى هذه النظرة على وجهك تقول لي إنني لست مخطئًا. في الواقع لقد وضعت عينًا حريصة على القضايا المتعلقة بالوفاة، خاصة بعد أن علمت أن كبدي مريض. أنت تعرف تليف الكبد فظيع بمجرد أن يبدأ، من المستحيل أن يعود كما سبق، حتى لو كنت تعتني بنفسك، وتضع حدًا لشرب الكحول، لا يزال بإمكانك فقط مماطلة الموت، وكما ترى، وأنا لا أفعل ذلك كثيرًا، لذا أصبحت حميمًا جدًّا مع الموت. ربما لهذا السبب يمكنني التعرف إلى أشخاص آخرين يشعرون بالراحة معه.

لم يكن "خليل" يتحدث. جاء جرسون ملتحٍ، ووضع مشروبين أمامهما. بدا مثل الويسكي.

قال "فريدون سعيد" وهو يلتقط زجاجة الويسكي ذات المظهر الثمانيني:

- إذًا أنت تحمل هذا السر منذ فترة طويلة. كيف تحتمل ذلك؟

- في الواقع يمكنني تحمل ذلك من خلال عدم إخبار أي شخص.

- هذا تناقض. هل تعرف الشاعر الذي ادَّعى أن الكلمة هي سم ما لم تخرج؟

قال "خليل" بانبهار:

- "جمال ثريا".

- لا تقلق.

ضحك "فريدون سعيد" كما لو كان قد شعر بما كان يفكر به "خليل".

- إن السيدة التي أعيش معها في "بودروم" شاعرة. سمعت عن "ثريا" منها سابقًا. حسنًا اسمه "جمال ثريا"، أنا أتعلَّم منك بالطبع... بالتأكيد هذا هو الشاعر الذي أقصده.

- نعم. إنه بالفعل سم ما لم يخرج.

- أين يؤثر فيك هذا السم؟

- قلبي.

- هل تشعر بذلك منذ فترة طويلة؟

- منذ أن كنت طفلًا.

- وأين اكتشفت مرضك؟

- بمستشفى في "سِعِرْد".

- وما الذي قالوه بالضبط؟

- لا يتبقى لي وقت طويل للعيش.

- وبعد ذلك؟

- لا شيء.

- ألم يسبق لك زيارة الطبيب منذ ذلك الوقت؟

- لا.

- هل أنت مجنون يا فتى؟

- فلننهِ هذه المحادثة إذا كنت ستحكم عليَّ هكذا.

- حسنًا، حسنًا. أعتذر. لكن هل كنت فضوليًّا لتعلم كيف يمكنك البقاء على قيد الحياة طوال هذه السنوات؟

- كنت..

- ألم تشك في أي وقت مضى في مستشفى صغير مثل ذلك، ومن تلك الحقبة أيضًا. ألم تظن أنهم ربما أخطؤوا في تشخيصك؟

- فعلت. لكنني لم أكن شجاعًا بما فيه الكفاية، لقد شعرت بالرعب من الاستيقاظ من الحلم الذي لم أتجرأ أبدًا على لمسه. إن فكرة الاعتقاد بأنني يمكن أن أموت في أي لحظة زودتني بإرادة غير عادية للعيش، ربما كنت ما زلت راعيًا في قريتي إذا لم أشعر بهذا المرض. أعتقد أنني كنت خائفًا من فقدان تلك الإرادة.

- فلسفة لطيفة. يا له من شراب سيئ للغاية. ألا ترى أن كل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ؟

- الآن صرت تعرف. هل أنت راضٍ؟

- ليس تمامًا. ألا تعتقد أن "ليلى" أيضًا يجب أن تعرف هذا؟

- هذا أكثر ما أخشاه.

- ماذا لو أخبرتها؟

- سأقتلك.

- ماذا لو كنت سأموت بالفعل؟

كان للرجل العجوز أعين عميقة ومظلمة. كان التهديد الذي لم يلحظه "خليل" حتى تلك اللحظة يزداد في عينيه.

- إخبارها سيكون أسوأ شيء يمكن أن تفعله لابنتك.

- لقد سببت لها بعض الأشياء الفظيعة بالفعل. هذا لن يكون شيئًا مقارنة بهم. لا أعرف حتى ما إذا كنت سأعتبر هذا الأمر قاسيًا، على أي حال، ربما أنقذك بهذا.

- لا يمكنك تحديد ذلك.

- استرخِ، لن أخبرها بعد، وليس لدي النية لأن أقتل بسببك. أريد أن أعيش ما دمت أستطيع، ولكن إذا لم أجد مكانًا لأعيش فيه يومًا مع الموت، مع نفسى المحتضرة، سأكتب لابنتي رسالة. الرسالة سوف تحمل سرك أيضًا؛ لذلك عندما تعرف زوجتك بشأن سرَّك، سأكون ميتًا منذ زمن طويل، فلن تحتاج أن تقتلني.

هل هذا جيد؟

دعا "فريدون سعيد" الجرسون وبدأ يحدثه بسرعة في أذنه. على الرغم من أن الموسيقى الصاخبة غمرت أصواتهما، فقد استشف "خليل" أن الجرسون يتم توبيخه على الويسكي الغامض. تركت المحادثة طعمًا سيئًا في فمه، ومع ذلك لم يكن يشعر بضيق كبير. الكلمة التي كان قد سجنها في قلبه طوال هذه السنوات، وجدت طريقة للهروب مع أخذ سمها معها.

- هل سبق لك النوم مع فتاة عمرها ستة عشر عامًا يا "خليل"؟

كان "سعيد" قد تراجع الآن في كرسيه ويراقب حلبة الرقص بنظرة ضيقة. ما أدهش "خليل" أكثر هو الجدية التي كان يتمتع بها في صوته عندما طرح السؤال.

كانت للدرجة التي يسأل فيها الشخص العادي صديقه إذا كان يعتقد أن "جاليليو" ربما كان مخطئًا أو ما إذا كانت لديه خبرة خارقة للطبيعة من أي وقت مضى، لم ينم "خليل" مع فتاة بهذا العمر من قبل، في الواقع لم ينم مع أي شخص سوى "ليلى" طوال حياته.

- لا، أو لم يصبح النوم مع فتاة في السادسة عشر أمرًا غير قانوني؟

قال "سعيد" بسخرية:

- ذلك الوعظ الثوري عن القوانين.

- الأخلاق. - أخلاق الشيوعي، هاه؟ - بالتأكيد، إذا كنت تريد وصفها على هذا النحو. - مثل زاوية دائرية أو كلام الرجل الأخرس؟ - لماذا؟ - أنت تقول إنك من أحد الثوار، ولكن قيمك أكثر بدائية من البرجوازية التي كرهتها. أنت تتصرف وفقًا لرومانسية نموذجية، وقواعد الشهامة، ولكنه جسد فتاة في السادسة عشر من عمرها، ذلك الجسد الذي يحمل بداخله كل ثورات الأنوثة. عندما تدخله، تشعر أنك تصل إلى أكثر الأماكن خضرة؛ يتم تنقية وجودك كله. يمكنك أن تأخذ أي شكل تريده. الكون يعيد ترتيب نفسه من أجلك، هذا عندما تأتي الثورة الحقيقية، ولا تحتاج حتى إلى إبعاد أي شخص إلى سيبيريا من أجله. يتم ذلك في الوقت الذي تشعر به. أنت فقط تحاول أن تبقى. على سبيل المثال انظر إليها!

كان "فريدون سعيد" يشير إلى الفتاة التي تقف بالقرب من البار. كانت فتاة نحيلة، صغيرة حقًا عندما تنظر إليها بعناية. كان يسلط الضوء على وجه الفتاة من حين لآخر. لو تركت بلوزتها ذات الحمالات وتنورتها القصيرة الجلد والحذاء ذا الكعب العالي، وارتدت شيئًا أكثر ملاءمةً لعمرها، لبدت بسهولة كواحدة من بنات أصدقاء "خليل".

- ما رأيك فيها؟

كان وجهه عليه تعبير مظلم مرة أخرى، وبينما كان ينظر إلى هذا الوجه، فهم "خليل" كل تلك الذكريات الحزينة التي أخبرته "ليلى" أنه كان يقصدها حقًا.

- أعتقد أنها تبدو أصغر سنًا مما هي عليه.

قال "خليل" بصوت عالٍ بسبب الموسيقى الصاخبة:

- لن يقوموا بتوظيف شخص دون السن للعمل هنا. - هل أنت بهذا السذاجة؟ سأخبرك الآن، إذا كانت هذه الفتاة أكبر من سبعة عشر بيوم واحد، فسوف أقطع ذراعي. هل تريدها أم لا؟ - لا أعتقد ذلك - لن تعرف "ليلى"، لا تقلق.

لم يُجِب "خليل". كان مشغولًا في محاولة لمعرفة ماهية هذا الرجل حقًا. كانت هذه العائلة أمرًا غريبًا بالنسبة له، فقد أرغمته على أن يكون حميمًا مع أشخاص لم يكن يعرفهم.

همس "فريدون سعيد" بشيء لأذن الجرسون، وبعد خمس دقائق كانت الفتاة تجلس على طاولتهما. كانت أوكرانية، تقول إن اسمها "فيكتوريا"، وكان من الواضح عن قرب أنها أصغر حتى من ستة عشر عامًا. وضع "فريدون سعيد" يده على ساقها. كان الأمر كما لو كان هذا فعلًا افتتاحيًّا إلزاميًّا، وقد فعله مرات لا تحصى في الماضي.

كانت تحاول أن تتصرف مثل امرأة ناضجة؛ في انتظارهما لإشعال سيجارتها وتضع ساقًا على ساق، وتطوح شعرها، وكانت تقوم بأفعالها تلك بحماقة قد تثير الفوضى. كانا يعلمان "خليل" كيف يمكن أن تتأثر دورته الدموية بفتاة في السادسة عشر، بجسم غير ناضج لفتاة تتظاهر بأنها امرأة.

- إنها ملاك حقيقي. هل تريدها أم لا؟ - لا. أنا لا.

نهض فجأة وصاح:

- سأغادر!

كان يحاول الوصول إلى محفظته.

- لا تقلق بشأن ذلك، أنا كبير بما يكفي لأعتني بنفسي.

مباشرة قبل مغادرة البار، نظر "خليل" إلى الطاولة التي كان يجلس عليها. كان "سعيد" يداعب ذراعيها الآن. كان هو والفتاة جنبًا إلى جنب يشكلان صورة غريبة.

فكر "خليل" لمدة دقيقة أن الفتاة مثلت الحياة نفسها في حين أن "فريدون سعيد" كان يمثل الموت في أكثر معانيه حرفيًّا؛ يمثلان ازدهار الحياة والموت المتعفن على طاولة سيئة في بار ذي رائحة كريهة.

الفصل الخامس عشر

بعد بضعة أشهر من تلك المحادثة المحزنة مع زوجته، سافر "خليل" إلى "سِعِرْد". كانت هذه هي المرة الثانية التي يرى فيها وطنه بعد المنفى. كانت المرة الأولى في دفن والده. تجول حول الأماكن التي تذكره بطفولته وتذوق المذاق المر من كباب بريان المطهو من قبل إخوته، وكان يدخل بيت أبيه هذه المرة لسبب حزين مرة أخرى. هذه المرة كانت والدته مريضة، لقد وقعت فريسة لمرض لم يُكشَف عن اسمه وصفه الأطباء بالأوصاف الغامضة، وكانت تنام في الغرفة الخلفية كمخلوق صغير، وتمضي أيامها دون أن تتحدث. كانت قد ركزت حدقتها في مكان غير محدد على السقف.

كان هناك خمسة من أشقاء "خليل" الستة حاضرين؛ فمنذ إجلاء قريتهم، عاشوا جميعًا في الأحياء الفقيرة في "سِعِرْد". كان الأخ الأكبر يعمل في مجلس المدينة، والأولاد الآخرون فتحوا جناحًا للأقمشة، أما الفتيات فكنَّ قد تزوجن وأنجبن 12 طفلًا. اعترف "خليل" بالذنب الذي كان يشعر به من رؤية إخوته في وقت الشدة فقط. كان قد نسى هذا الشعور منذ سنوات، ولكن مثل كل شعور آخر في الطفولة، كان به حزن يدعوك للاستسلام له. وعلى الجانب الآخر، كان أشقاؤه ينظرون إليه بتعجب، حيث كان من المفترض أن يموت منذ فترة طويلة، فبعد كل شيء، بدا أنه الأكثر صحةً بين هؤلاء عندما غادروا مائدة العشاء.

كانوا جميعًا يتصرفون وكأن شيئًا لم يتغير. لكن كل شيء قد تغير.

لم يكن الأمر مجرد حقيقة أن القرى التي كان يمشي فيها حافي القدمين تم إخلاؤها جميعًا أو أن المركبات المدرعة أصبحت تظهر في كل مكان فيها، بل كان هناك شيء مثير للدهشة بالنسبة ل"خليل" في فنجان القهوة الذي شربه، السور الذي وضعه "إبراهيم حقي" قبل قرون وأشجار الفستق التي منحت الظل للأطفال الصغار ليلعبوا حولها. كان الأمر كما لو أن كل كائن حوله كان مغطى بطبقة رقيقة. لم يغير هذا الشريط أي شيء، ولكنه غطاه بسكون متعرج يستبعد كل معرفة، على سبيل المثال، عندما لمس "خليل" شجرة، شعر وكأنه هناك مسافة بين كفه والشجرة، لم تكن روح الشجرة تتدفق في اتجاهه، ثم أدرك وهو يرتجف أن هذا كان بفعل التاريخ. ما كان يعتبره غشاءً رقيقًا هو في الواقع بفعل الوقت. كان الوقت يمر بفارغ الصبر على هذه الأرض، يشبه إلى حد كبير مجموعة من الأزرار التي تركت رائحتها في المروج التي مروا بها، حيث تركت غشاءً يفصل "خليل" عن بيئته، ونادرًا ما يعتبر الناس الذين تلاعبت حياتهم بالتاريخ أنفسهم مستعدين للتصدي لها مرة أخرى، إلا أن "خليل" لم يكن استثناء من ذلك؛ فقد كان لا يزال على اتصال بأصدقائه القدامى ويمارس العمل السياسي على نطاق ضيق، لكنه كان يفرغ آخر لقطة له في اليوم الذي كان سيلتقي فيه الموت في داخله.

انفجرت هذه الأفكار في رياح جديدة في اليوم الذي ماتت فيه أمه، ونظرًا لأنها كانت تركز على نقطة في السقف، كانت تكرر كلمة "التربة".

كانت شفاهها الجافة تتحرك في كل مرة تسقط دمعة على خدها، بينما كان التحديق الفارغ يحاول وضع ثقب في السقف. كانت تكرر كلمة واحدة: "تربة".

السبب في أن الشخص المتوفى يبدأ في الحديث عن التربة ليس موضوعًا مفتوحًا للتأويل، حتى إن الأقل إبداعًا بيننا يمكنه أن يحدث ذلك الاتصال بين النهاية الحتمية والتربة، خصوصًا إذا كان الشخص الذي يموت هو الشخص الذي قضى حياته في شجار مع التربة، ولم يعرف أبدًا عشيق آخر.

حمل الأولاد أمهم العجوز وأخرجوها من غرفتها. استبدلت الظلال على وجهها بشمس نابضة لامعة. حملوا أمهم إلى البراح في نهاية الحديقة، عندما أدركت أن الرائحة التي تملأ أنفها كانت رائحة التربة، فتحت الأم عينيها وهمست:

- كنت قاسية على التربة عندما كنت صغيرة، كنت أمشي عليها بخطوات متقاربة، قفزت عليها في كل مكان. الآن، أنا في انتظار أن تعانقني. أولًا، أنا بحاجة إلى الاعتذار لها والتوسل إليها. اتركونا وشأننا.

ترك "خليل" وإخوته المرأة العجوز هناك وساروا حتى وصلوا إلى البوابة التي كانوا يشاهدون فيها أمهم تربت على التربة بأياديها الضعيفة. ربما عند هذه النقطة اعتقدت المرأة العجوز أنها عادت إلى قريتها، ولامست التربة التي ولدت وترعرعت عليها. جلب الأخ الأكبر علبة سجائر. نفثوا دخانهم نحو الوادي الذي رأى كل شيء، وعرف كل شيء، ولم ينسَ شيئًا على الإطلاق.

الفصل السادس عشر

لم يعرف "خليل" ممن يطلب السماح قبل وفاته.

لم يستطع أن يفعل ما فعلته والدته لوجود سنوات كثيرة وأماكن عديدة تفصله عن التربة. لم يستطع أن يستأذن الهواء لأنه ظل لسنوات يملأ رئتيه كمجرد نزوة عابرة، لم يستطع طلب إذن الماء لأنه منذ أن تحول نهر "بوتان" إلى ذكرى بعيدة، لم يبرد أي بحر نزل به روحه. وطبعًا لم يستطع أن يستسمح النار لأن لونها ينتمي للحياة أكثر من الموت.؛ أيضًا لأن النار هي العنصر الرئيسي للشيطان، لا يمكننا مع ضمير جيد أن نوصي أي شخص بالذهاب إليها للحصول على إذن قبل الموت. إن حمل جواز سفر مختوم من قبل الشيطان لن يساعد أي شخص في الحياة الآخرة.

وهنا فكر "خليل" في "عُطيل".

كان "عطيل" طبيب قلب، مثله مثل "تشي جيفارا"، قرر أن يسير في طريق الثورة بعد أن ترك حقيبته الطبية في المنزل. إنه أمر مزعج للغاية، وقد استحق لقبه هذا بسبب أوجه التشابه التي كان عليها مع عطيل بطل "شكسبير" فيما يتعلق بأعصابه المهتزة، ولون بشرته، وبعض الذكريات الجميلة من سنوات المنفى.

في ذلك الوقت، كان "عطيل" أو "عارف ساكا" (الاسم الحقيقي له) الذي كان ابن رجل أعمال قد انضم إلى الحركة السياسية. كان هناك بالفعل جيش من المعجبين الإناث المحيطات به. كان طوله 6 أقدام ويشبه الإله اليوناني. دائمًا ما يتكلم بصوت عالٍ جدًّا ولا يتورع عن الصراخ في أصدقائه الذين لم يهتموا بصحتهم، وكان قد تذوق النبيذ المر في المنفى فقط عندما كان يصنع لنفسه اسمًا كطبيب شاب مشرق، ويقضي السنوات التالية في بيع السجاد المنقوش بالغزلان والساعات الرقمية التي تشير إلى القبلة للمهاجرين الأتراك في برلين.

كان يقضي الوقت الفارغ من العمل في متجر التصدير والحزب، ويلعب دور "عطيل" في إنتاج بعض الهواة للمسرحية الشهيرة لشكسبير. كانت شركة مهاجرة في الغالب، وكان هو نفسه محيرًا بشكل خاص للمرأة الشمالية. كانت هناك محادثات حول أمور كان قد تعرَّض لها مع نساء متزوجات. حفظته طبيعته الداعمة له من غضب العديد من الرجال الساخطين. هناك الكثير الذي يمكن أن يُقال عن "عطيل"، لكننا لا نريده أن يظهر من العدم ويطغى على بقية هذه القصة مثل إله يوناني يركب على آلة للسير؛ لذا دعنا نقول فقط إنه أنهى تعليمه بعد عودته إلى تركيا، وكان يعمل بعدها في مستشفى خاص صغير في إسطنبول.

بالنسبة ل"خليل"، كان "عطيل" صديقًا أضاء سماء برلين الباردة بوجوده. بعد اجتماعات طويلة، إذا كان الطقس لطيفًا، كانا يتجولان حول "كورفورستيندام" معًا ويتحدثان عن أشياء لا علاقة لها بالسياسة، على سبيل المثال، كان ذلك الصديق الذي يمكن أن تطلب منه الأموال لإجراء عملية لوالدتك، أو ذلك الصديق الذي يشاركك صدمتك عندما يترك أحد اللاعبين فريق الكرة المفضل لكم. لأن الجميع كان يقارنه ب"عطيل"، تحول "عارف" إلى متابع ل"شكسبير". كان يدعي أن

"شكسبير" تحدث ببراعة عن كل ما يستحق الحديث عنه في عالمنا الصغير، وأن قراءة أي كاتب آخر لم تعطه المتعة نفسها. أحب "خليل" أن يشاهد كيف ستتغير وجوه النساء أمامهن عندما يرين "عطيل". النساء في منتصف العمر سوف يبكين بعضهن أو يعضُّن شفاههن عندما ينظرن إليه. كان هناك أيضًا أشخاص أصغر سنًا ينادون عليه ويطلبون منه توقيع اسمه، كما كانت هناك فتاتان جامعتان شقراوتان اقتربتا من طاولتهما في المطعم، حيث كانتا تشربان البيرة. أخبرت الفتاتان الولدين أنهما قد تجلسان معهما إذا رغبا في ذلك. في نهاية المطاف، نفدت البيرة وعندما غادر "خليل" للعودة إلى زوجته، أخبره "عطيل" بضحك أنه بخير، وأنه يمكنه التعامل مع الفتاتين. ربما كان أهم شيء هنا هو مدى احترامهما لرجولة بعضهما بعضًا. آمن "خليل" أن "عطيل" جاء إلى هذا العالم لإرضاء كل امرأة فيه، بينما اعتقد "عطيل" أن "خليل" كان عليه واجب جعل امرأة واحدة سعيدة طوال حياته، وكانت هذه المسئوليات التي تعطي معنى الحياة والسعادة بالنسبة له إذا التزم بها.

بعد عام ونصف العام من انفصاله عن "ليلى"، زار "خليل" المستشفى الذي يعمل صديقه به، ووجده أكثر وسامة في ثوبه الأبيض الذي أظهر بشرته الداكنة. إذا كان الجمال في عين الناظر، فإن الطريقة التي تتصرف بها الممرضات حوله كانت كافية للإشارة إلى أن "عطيل" كان لا يزال يمتلكها. كانت البنات يبذلن أقصى ما في وسعهن للوقوف لبضع دقائق أخرى معه؛ فكان مظهره الجدير أن يكون مثل إله يوناني ممزوج بالهالة الممنوحة له من ثوبه الأبيض، جعله مخلوقا إلهيا يمكن أن يعطي "خليل" التصاريح الضرورية قبل أن يبدأ مسيرته نحو الموت.

كان المستشفى الذي يعمل به عبارة عن مبنى صغير على الطريق السريع المؤدي إلى البلقان، لم يكن بالمستشفى العديد من الأطباء على الرغم من ارتفاع عدد المرضى. أخبر "عطيل" صديقه أنه إذا كان لا يزال يرغب في ذلك، فإنه يمكنه فحص قلبه. لم يخبره "خليل" أبدًا بالموت الذي كان يحمله بداخله.

لم يفعلها ذلك اليوم أيضًا.

قال "عارف" بعد الإنصات إلى قلب صديقه:

- لديك ثقب بالقلب.

قال "خليل" بعد أن مرت قرونًا عديدة على سماعه تلك العبارة:

- حقًا؟

- لا أريد أن أزعجك، ولكن من المرجح أن تكون إشارة إلى وجود ثقب. هل سبق وأن عانيت أي شيء بسببه؟

- مثل ماذا؟

- ضيق النفس في بعض الأحيان، الخفقان أو الألم على سبيل المثال.

- لا.

- مطلقًا؟

- مطلقًا. حتى تحت آثار التعذيب.

أغلق "عارف" عينيه، وفكر لبضع دقائق قبل أن يقول:

- دعنا نفحصك في أقرب وقت ممكن، ونرى ما الوضع.

حصلا على أشعة سينية رئوية، واختبار تخطيط القلب رأى أن قلب "خليل" قد أصبح متضخمًا قليلًا. كان "عارف" يمتنع عن الوصول إلى أي استنتاجات نهائية على الرغم من أنه كان قلقًا بعض الشيء، وقال إنهما سيحتاجان إلى مخطط صوتي للوصول إلى استنتاج حقيقي، فأرسل "خليل" إلى مستشفى "سيامي إرسيك" على الجانب الآخر من مضيق البوسفور. كان لديهم المعدات والأشخاص للقيام بالفحص بشكل أفضل. أمضى "خليل" بقية يومه في انتظار الحصول على الفحصالاختبار الذي طلبه "عارف"، وبدا أن أروقة المستشفى الذي لم يزره طوال حياته كانت سحرية وجذابة بالنسبة له، كلما زاد إرساله من قبل الأطباء والممرضين، اقترب من ذلك الراعي الصغير في "سِعِرْد"، وبالرغم من أنه قضى حياته كلها يهرب من هذا الراعي، فإنه وجد أنه يحب ذلك الشعور بالرغبة في الهرب.

أخبرته طبيبة جميلة في أوائل الثلاثينيات من عمرها أن النتائج ستُرسل إلى الطبيب "عارف" في غضون يومين. شكرها "خليل" وسار نحو جراج بأفكار معقدة تدور في رأسه، وعندما قاد سيارته عند الإشارة في المدينة، تجعدت جبهته بفكرة واحدة.

لم يكن بإمكانه الذهاب إلى المستشفى في الوقت الذي وصلت فيه النتائج. كان من المفترض أن يقود ابنه إلى المخيم الصيفي في ذلك اليوم.

الفصل السابع عشر

نحن نعلم في الواقع تلك الحظة المحددة للغاية من هذه الرحلة؛ لا يزال "خليل" وابنه في القارب حيث رأيناهما آخر مرة. ذهب "دينيز" إلى الحمام لغسل وجهه وترك والده وحده لبضع دقائق. يتطلع "خليل" إلى الشاطئ لأنه قريب، وفهو أقرب من تركيزه على كابينة التليفون وكأنه يتأمل مصيره. في تلك الأثناء، تذكر للمرة للألف أن كلمات "زينوفون" أخبرت جنوده المتعبين أنهم كانوا يلاحقون من قبل قوات العدو:

"إذا كان أي منكم عازمًا على رؤية أصدقائه مرة أخرى، فليتذكر أن عليه أن يثبت أنه رجل؛ لا توجد طريقة أخرى لتحقيق رغبة قلبه برؤية أصدقائه سواها، وإذا كان العيش هو مجرد هدف بالنسبة لأي منكم، فاسع جاهدًا للتغلب عليه؛ فإذا تغلبت على ذلك الشعور فهو امتياز النصر، وإن هزمك فهو عذاب المهزومين.

إذا كان العيش مجرد هدف لأي منكم، فاحرص على التغلب. لكن كيف؟".

في واقع الأمر، إذا أردنا أن نضع قائمة من الأسئلة التي كان على "خليل" التعامل معها طيلة حياته، فإن تلك الأسئلة الثلاثة ستشغل بداية القائمة:

1: هل أحب الحياة؟

لم تكن الحياة ملكًا له أبدًا، وهذا هو السبب في أنه لم يخطر بباله أبدًا أن يحبها. يمكن للمرء أن يكون دائمًا لديه بعض المسافات بين النفس والجسد الذي كان بمثابة البيت المستأجر. إذا لم يسبق ل"خليل" أن دق مسمارًا واحدًا في البيت الذي كان يعرف أنه سوف برحل عنه عما قريب، كما أنه لم يستشعر أبدا بتغيير ألوان الجدران أو تغير يطرأ عليه.

ومع ذلك، كانت الحياة لا تزال كما لو كانت بيتًا؛ فقد كانت مساحات ضيقة، فضلًا عن مساحات واسعة، وغرفًا مضاءة بشكل خافت، بالإضافة إلى غرف استقبلت الجيران المحببين إلينا، بالإضافة إلى هؤلاء غير المحتملين. كانت الأحداث التي وقعت بين جدرانه الأربعة متنوعة، لدرجة أنها كانت معقدة إلى ما لا نهاية.

2. هل أستحق أن أغزوها؟

وفقًا لبعض المفكرين، فالحياة هي معركة تكسبها على أساس يومي، إذا استخدمنا استعارة محبوبة من قبل الوجوديين، فإن الحياة صخرة تدحرجها إلى أعلى طوال اليوم، حتى الأطفال يعرفون أنه في صباح اليوم التالي ستكون الصخرة في القاع مرة أخرى. نكرر هذا "لقهر الحياة" بالطبع، لكنه الآن يحمل عبثًا لم يكن ليحدث ل"زينوفون"، على الرغم من أنه لم يكن موجودًا في الوجود، فقد واجه "خليل" الشعور نفسه بالعبث في كل معركة دخلها من أجل غزو الحياة، ولأنه كان يعلم أن القنبلة التي في قلبه ستنفجر عاجلًا أم آجلًا، فإن الصخرة ستهرب من احتضانه وتتدحرج.

3. هل كنت أبًا جيدًا؟

أحيانًا يسأل "خليل" هذا السؤال الثالث الذي كان مرتبطًا بشكل مباشر بالاثنين الآخرين، لكنه لم يستطع الإجابة عليه دائمًا، لقد أخافه من التفكير فيما فعله بشكل صحيح وما كان يفتقر إليه، ومع ذلك فإن الحلم بشأن ابنه قدم نوعًا من السعادة لم يتمكن من العثور عليها في أي مكان آخر.

كان "دينيز" أفضل شيء قدمه له مصيره. ربما بعد سنوات، عندما ينتهي به الحال إلى هنا مرة أخرى لسبب أو لآخر، سيكون لديه أفكار كهذه وسيتذكر والده، سيعبر نهر الحياة غير العقلاني بالخطو على حجارة مصيره، بعيدًا عن الموت الذي طارد والده لعمر.

وبينما كان ينتظر أن يعود ابنه من الحمام، شعر "خليل" بسؤال رابع يُضاف إلى هذه القائمة:

4. هل كنتُ زوجًا صالحًا؟

لو لم تظهر الجمجمة الضخمة والشعر المجعد ل"يعقوب" مرة أخرى، ربما لن يتشكل هذا السؤال في ذهنه؛ فبالنسبة له، كانت "ليلى" دائمًا أكثر من مجرد إجابة على سؤال: في كل مرة يسأل نفسه لماذا لا يزال على قيد الحياة، كان وجود زوجته الناعمة بمثابة جواب مناسب، كلما أراد أن يعقد الأمور، كان ينظر إلى نفسه من خلال عيون "ليلى"، وبالتالي وجد أشياء تعطي معنى لتلك السنوات. هذا هو في الواقع أفضل جانب من المحبة من قبل شخص ما؛ مَن نحبه يعمل على تلميع صورتنا لأنفسنا ويجعلنا ذات قيمة.

والآن كان يتأمل كل هذا كطفل يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، أليس كذلك؟ كان هذا هو السؤال الذي كان يأتي في المركز الخامس.

كان يمكن أن يشعر بنار تزداد داخله. حريق لم يلاحظه من قبل، بعدها فقط نظر نحو كابينة التليفون على الشاطئ الذي كان قريبًا جدًّا الآن. أفسد لهيب الغيرة الطريق إلى الرغبة في كسب الحياة كما قال الرجل الذي يقود الجيش الفارسي. ثم رفض هذه الرغبة مع كل شيء حصل عليه ونظر بعيدًا عن كابينة التليفون، وأشار إلى ابنه الذي كان يخرج من الحمام ليصعد إلى السيارة ونهض بنفسه.

الفصل الثامن عشر

كانت العبَّارة التي تشبه مخلوق رواية بدائي بهيكلها الذي وزن طنًا، تقترب من الشاطئ.

عاد السائقون في سياراتهم، في انتظار الخروج، عندما كان "خليل" في السيارة، كان "دينيز" مشغولًا بالنظر إلى صور الفريق الياباني في ألبوم صوره في بطولة العالم. كان الصوت الصادر من الراديو ينقل أخبار ربع النهائي الوشيك.

كان المدرب الفرنسي يندب سخرية وسائل الإعلام. أولئك الذين تساءلوا عما إذا كان "برايان لاودروب" من الفريق الدنماركي سيكون قادرًا على مواجهة البرازيليين أم لا، سيكون عليه الانتظار حتى يوم المباراة.

بدأ "خليل" بتدوير المحرك ووصلوا إلى الأرض خلف شاحنة تحمل ألواح الرخام. الشمس تغرب. كانت هناك تموجات ورديَّة على سطح البحر ناتجة عن سماء الليل، وكانت أصوات أبواق السيارات تختلط بالأصوات من طيور النورس.

لم يستطع "خليل" أن يتحمل بعد الآن وأوقف السيارة.

كانت كابينة التليفون تنتظره على بعد بضعة أميال.

سأل "عطيل" ببرودة رجل يبدو أن لديه أشياء أكثر أهمية للقيام بها:

- كيف تسير أحوالك؟

أجاب "خليل" وهو ينظر إلى "دينيز" الذي كان جالسًا في المقعد الخلفي للسيارة:

- جيدة. كان من المفترض أن أمر عليك بمكتبك اليوم.

- نعم، لكنك لم تظهر. يا الله، أي نوع من الناس أنت؟ هل أنت فضولي بشأن صحتك؟

- هل هذا سيئ للغاية؟

- لا. كنت أخشى من أن يكون أسوأ من ذلك بكثير، كما قلت، هناك ثقب صغير بين البطينين من قلبك؛ نظرًا لأنه صغير، لم يسبب الكثير من الأذى بعد. ربما هذا هو السبب في أنك لم تلحظ ذلك من قبل.

- في الواقع، لقد لاحظوا ذلك.

- متى؟

- عندما كنت صغيرًا. في مستشفى في "سِعِرْد".

- هل أخبروك بأي شيء؟

- قالوا لي إن لديَّ ثلاث أو خمس سنوات لأعيش.

- حقًا؟ لماذا لم تخبر أحدًا بهذه اللعنة كل هذه السنوات؟

- لم أخبر أي شخص. حتى "ليلى" لا تعرف ذلك.

- لماذا؟

- إنها قصة طويلة، انسَ الأمر.

- لماذا كنت في المستشفى في ذلك الوقت؟

- أصبت بالتهاب رئوي.

صمت الاثنان لبضع ثوانٍ، كان الأمر أشبه بخلود بالنسبة ل"خليل". سمع صوت "عارف" مرة أخرى:

- هناك فرصة أن درجة حرارة الجسم العالية في ذلك الوقت جعلتها تبدو أسوأ مما كانت عليه، وبالنظر إلى ظروف المستشفيات الصغيرة في ذلك الوقت، لا يصعب تصديق خطأ من هذا القبيل، وأرى أن عدم إبلاغ أي شخص هو هراء منك.

- سأخبرك لماذا يمكنك مساعدتي في البقاء على قيد الحياة.

- اتفقنا.

- ما الذي ستفعله الآن؟

- سأستأصله لك يا أخي العزيز.

- متى؟

- كلما كان ذلك أسرع كان أفضل.

- هل ستكون هناك مخاطر؟

- لا أستطيع أن أكذب عليك، فهناك دائمًا خطر في مثل هذه العمليات، مهما كانت صغيرة، لكن التدخل في ثقب في قلبك سيكون خطرًا كبيرًا عليك. هل أنت خائف؟

- لا أعتقد ذلك.

- رجل طيب! أنت تعرف أن طبيب القلب يحصل على زيادة حقيقية في شعبيته بين أصدقائه عندما يصلون إلى عمر معين. لا أقصد إهانتك، لكن الأشخاص الذين لم أسمع عنهم منذ سنوات بدؤوا

يظهرون على باب منزلي. هناك البعض يتصلون بي كل يوم للاستفسار بعد عن صحتي، وهناك بعض الذين يقولون إنهم فقط اتصلوا ليطلبوا مني ما إذا كنت بحاجة إلى أي شيء. هؤلاء هم الذين ملؤوا عروقهم بالسجائر، لكنهم يتذكروننا في الساعة الحادية عشرة! "عطيل" سينقذنا ويخلصنا! أنتم رجال ناضجون لستم أطفالًا.

دخل "خليل" سيارته مرة أخرى وبدأ بتدوير المحرك. تبدو المباني على جانبي الطريق مع البراعم الخارجة من بين الأسمنت التي تزيّن أسقفها جميلة إلى حدٍّ ما، على الرغم من قبح المباني، كان هناك أمل في هذه البراعم التي استبعدت الموت.

سيرى "خليل" هذه الأشياء الصغيرة التي تشير إلى أن المبنى لم ينتهِ بعد، وأنه كان هناك دائمًا إمكانية لإضافة طابق آخر كرمز لحياة ما زالت تقبل الاحتمالات. ثم انضمت صورة الطبيب الذي عامله في "سِعِرْد" إلى البراعم في ذهنه.

كان الطبيب لا يزال رجلًا جادًا بمعطفه الأبيض ونظاراته ذات الإطار الرفيع، لكن كان هناك تناقض في عينيه أصبح واضحًا ل"خليل" فقط الآن ونوع من الحزن في صوته الذي لم يلاحظه من قبل. ما كان يتذكره "خليل" الآن هو رجل يائس كان مثقلًا بتشكيل ألف مصير للفقراء بما لديه من موارد قليلة في تلك الأيام. لم يكن نبيًّا ولا إلهًا حتى يُمْكِنُه أَنْ يُزوِّدَ "زينوفون" بتلميحات خاصة بجيشه.

الفصل التاسع عشر

كان ل"خليل" و"ليلى" بعض الأغاني التي تخصهما. تبنيا هذه الأغاني التي جعلتهما يحلمان بالهضاب الأناضولية أو شوارع باريس.

كان لديهما أفلام خاصة بهما؛ يشاهدان الأفلام التي حسنَّ فيها الأبطال مصائرهم.

ثم كان لديهما كتبهما. روائح الصفحات التي أكدا عليها بمودة ستملأ أنوفهما وتحمل رياح الغابة إلى لياليهما.

كان لديهما مبانٍ استولا عليها؛ جعلا بعض المساحات الخاصة بهما تشبه إلى حد كبير باعة برلين الذين استولوا على المباني القديمة؛ فكان لهما محل أسماك في "ينيكوي" على سبيل المثال، وكان المبنى القديم بجانب المطعم التركي في شارع "أدلبرت" أيضًا واحدًا من المنازل في "هوبا"، منزل يقع في زاوية من خمسة وسبعين درجة إلى المنحدر كان لهما أيضًا. كانت جميعًا شاهدة على حبهما، بالإضافة إلى الاختبارات التي تحمَّلها هذا الحب. ربطت هذه الروابط كل هذه المباني التي تنتمي إلى حساسيات ثقافية مختلفة.

كانا شخصين يكافحان دائمًا.

الطريق، ربما هي المفارقة لمعناه الأساسي، بل هو مجاز للإحباط. استخدم العديد من المعتقدات والأيديولوجيات وحركات الفكر بمختلف حجمها الاستعارة نفسها لجعل تعاليمهم تبدو أكثر متعة. هناك مجموعة من الشعارات الاصطلاحية التي تتضمن كلمة الطريق في كل لغات هذه الحركات.

كلهم يحاولون قول الشيء نفسه:

"قد لا تكون راضيًا عن الكيفية التي تسير بها الأمور الآن، ولكن إذا كنت صبورًا بما فيه الكفاية وتتبع البوصلة التي سنقدمها لك، فسترى الجنة، لكن لا تتسرع".

ومع ذلك، فإن صور الطريق لا تتبع أبدًا الطريقة نفسها التي لا تختفي فيها الطرق بعد أن نخطو عليها. قد ندين بذلك لقدرتهم على التغيير وفقًا لمنظورنا وفي أي وقت نحتاج إليه. ربما يكون الأمر كما لو كنت تدخل إلى النهر نفسه مرتين، فلا يمكنك اتباع الطريق نفسه مرتين.

يمكننا حتى تخيل وجود طرق مختلفة لكل منا.

كان "يعقوب" و"ليلى و"خليل" يتبعون طرقهم الخاصة. لقد جعلتهم يجتمعون في تقاطع خيالي. بالنسبة لي، بدا أنهم أشبه بثلاثة أشخاص، كان مصيرهم متشابكًا أكثر من ثلاثة معارف. كانوا يمثلون جميع أنواع البشر في حياتي؛ كان لديهم أجزاء تخصني بالإضافة إلى الأشخاص الذين أحبهم. في البداية، كنت آمل أن تتوافق بشكل جيد، لكن كلما أصبحت الخطوط التي تربطهم أكثر وضوحًا، كان عليَّ أن أفهم أنهم لن يكونوا على طول الطريق الذي أردتهم أن يسلكوه، لقد أيقنت

دون الرغبة لي في ذلك، أنه على الرغم من مشاركة بعضهم البعض الطريق، إلا أنهم لم يسلكوا الطريق نفسه.

قد يكون الطريق هو نفسه لكنه يعني أشياء مختلفة لكل واحد منهم. تحوَّل كل شيء وفقًا لوجهات نظرهم وآمالهم وحزنهم، والطريق الذي سلكوه معًا أوقفهم عن كونهم متشابهين وتحول إلى ثلاث حقائق مختلفة لكل منهم؛ لذا، فإن كل خطوة أخذوها قد أبعدتهم ليس فقط عن ماضيهم، ولكن من بعضهم بعضًا أيضًا.

مع مرور الوقت، تعلمت أن هذا هو الحال بالنسبة لكل طريق، وكم من المستحيل أن يسير شخصان على طول الطريق. أعتقد أن هذا هو ما يُبقي مجاز الطريق شيئًا دائمًا.

هناك العديد من الأشياء الذكية قيلت عن الطريق، ولكن المفضل لديَّ هو: "لا يوجد طريق أمامي، يبدو لي ورائي عندما أسير". من الغريب أن مصائر "يعقوب" و" ليلى" و"خليل" تذكرنا بهذا القول. ليس لديهم طريق أمامهم. يتركون مصيرهم وراءهم مثل درب الحلزون مع كل خطوة يتخذونها، هم يمشون، وأنا أكتب. إنني أكتب هذا كله كنوع من الحذر. ربما ستقرأ بعض المقالات حول هؤلاء الأشخاص الثلاثة قبل أن تجلس لقراءة مغامراتهم.

الأسئلة في هذه المقالات ستكون بعيدة كل البعد عن لمس جوهر مشكلاتهم. وللأفضل أو للأسوأ سيكون لديك تحامل ناحيتهم عنهم. أعلم جيدًا أنني لا أستطيع التغلب على هذا التحامل. لكن ربما يمكنني توجيهه إلى مكان آخر.

في نهاية المطاف، كانوا ثلاثة أشخاص يسيرون على الطريق نفسه، على الرغم من أن جزءًا من الطريق المرئي لهم كان مشابهًا، فإن ما خفي عن أعينهم وانغمس في تجاويف الطرقات كان مختلفا تمامًا. ساروا وأنا كتبت. كنت أتمنى أن أكون رابع شخص على الطريق، وأنا أعلم أنه لا يمكن أن أكون كذلك أبدًا.

الفصل العشرين

كان وادي "بوتان" الذي نشأ عنده "خليل" ووقف عليه وهو طفل يحلم بالجيش الذي تمنى أن يجتاز هذا الوادي. منذ قرون مضت ذكرى لطيفة ل"زينوفون" وجنوده أيضًا، لقد وجد اليونانيون بعض الطعام هنا بعد الكوارث العديدة التي أصابتهم، ولذلك قاموا بإعداد المعسكر هناك بفرح، لم يكن هناك يوم خالٍ من الحرب في الأسابيع الماضية. كانت الأشياء التي نجوا منها في طريقهم أسوأ بكثير من أي شيء نجوا منه على يد العدو الذي قتل ملكهم. اعتقادهم بأنهم قد نجوا من كل ذلك جعلهم ينامون بسلام في تلك الليلة.

عودة العشرة آلاف أدت إلى قيادة "زينوفون" الجيش من دون قائد. بدأ مسيرته، ولكن كان له نتيجة أخرى أيضًا؛ كان الجنود ينظرون إلى الأناضول على أنها أرض يمكن أن تنفجر من حين لآخر مثل أسلافهم الذين فعلوا من الأخيون اليونانيين، ولكن كان ذلك حتى يتعلموا حقائق الحياة أثناء عودتهم إلى منازلهم. اكتسبوا الحكمة من خلال التعرف على شعب الأناضول سواء كان ذلك من خلال المعركة أو من خلال النوم مع نسائهم. ربما كان هذا هو الانتصار الحقيقي للجنود الذين بدؤوا رحلتهم منذ شهور تبدأ من "ساردیس" في غرب الأناضول، على الرغم من أن هذا الانتصار لا علاقة له بالأهداف التي حددوها للحرب.

الموت الذي عاش داخل "خليل" في رأيه تسبب في مفاجأة مماثلة ومكافأته بالحياة. كان قد خرج من وادي "بوتان". مكانه المفضل لأنه كان يركض بلا حيلة من الموت، وأثناء قيامه بذلك، نجح في بناء حياة أكبر من ذلك الراعي الصغير، لقد أخذ الموت مستقبله فقط ليحل محله بآخر.

إن فرضية ما قد تكون عليه حياة ذلك الراعي الصغير في ظروف مختلفة هي مهمة أجدها صعبة للغاية؛ لكي نضع فرضية عادلة حول كيف يمكن أن تكون حياتنا، ستكون مهمة صعبة لأي منا، لو كانت هناك طريقة فقط يمكننا أن نرى بها كيف أثَّر كل قرار صغير أجريناه في الماضي على مستقبلنا. إذا كان فقط أنفسنا الأخرى التي كان عليها أن تموت قبل أن تولد حتى بسبب قراراتنا يمكن أن يخرجوا من قبورهم لليلة واحدة فقط ويخبرونا مَن هم حقًا.

أود أن أتعرف إلى "زينوفون" الذي قرر في اللحظة الأخيرة الانضمام إلى الجيش الفارسي، وهو نفسه "نابليون" الذي وجد السلام في "إلبا"، وتخلى عن أي طموحات أرضية، أو نسخة من سائق سيارة الأجرة الذي التقيته اليوم الذي استمع إلى والده والتحق بالكلية. كيف سيكون عالمنا إذن؟

إلى جانب ذلك، فإن التشكيك في الأطباء هو تقليد قديم في الأناضول، قد لا تكون صرامة الموت داخل قلبه صعبة لطفل يبلغ من العمر تسع سنوات، ولكن ربما يكون ذلك بالنسبة إلى رجل ناضج يحمل آثار التاريخ على جسده، قد يشك "خليل" فيما أخبره به "عطيل" ويقرر التشاور مع أطباء آخرين. أظن أنه سيواجه بعض الصعوبة في أخذ دور البطولة بعيدًا عن الموت حتى إذا كان الفيلم سيكون أكثر سعادةً بهذه الطريقة؛ إلا أنه يلمسني بأن طريقة كسبه للحياة تأتي من كتابات

"زينوفون". دعونا لا ننسى شيئًا آخر بأنه لا يزال هو الراعي نفسه الذي كان يحلم، بينما يشاهد النجوم في السماء.

في المساء، أوصل ابنه لمدخل المخيم. كان مكانًا مليئًا بالأشجار وهياكل المنازل الصغيرة. تمت كتابة اسم الاتحاد على المدخل وتغطيته باللبلاب. صوت الأطفال الذين يستمتعون بنسيم الصيف البارد قادمًا من مسافة بعيدة. أصوات الحشرات تذوب في مقابل الرائحة المنبعثة من سجائر الميريت، لم يُرِد "دينيز" أن يصاحبه والده على طول الطريق إلى المهجع.

كانت هذه أول عطلة له بمفرده ولا يريد أي شخص أن يتدخل في أمره. أعطاه "خليل" نصيحة غير مجدية، وطلب منه أن يتصل كل ليلة وتحدث مع المعلم الذي كان سيعتني بالأطفال لهذا الأسبوع، وبعد ذلك ذهب في سيارته وعندما كان يتراجع على الطريق الترابي، اتخذ قرارًا مفاجئًا؛ فبدلًا من العودة إلى إسطنبول، قرر السفر إلى "أيفالي".

بعد ذلك بساعتين، حلَّ الليل، كان "خليل" على الشاطئ الذي غادروا منه بلادهم قبل بضع سنوات، وهم يشاهدون أضواء "ميتيليني". لم يكن الشاطئ مهجورًا كما كان في ذلك الوقت.

كان هناك انتعاش تجاري كبير مع كراسي الاستلقاء للتشمس البيضاء والمظلات الملونة. هناك عائلة أجنبية من الواضح أنها لا تحب الحشود تنغمس داخل وخارج المياه، بينما كان يراقبهم "خليل"، شعر برغبة شديدة في رؤية "ليلى". دخل كابينة التليفون في الفندق وطلب رقم زوجته، فوجئ عندما اكتشف أن "ليلى" كانت جالسة في رصيف "كانديلي" تراقب البحر.

- اشتقت إليكِ. أتمنى أن تكوني بخير.

- ليس بهذه الدرجة.

- هل حدث شيء؟

- نعم.

- هل هو بخصوص والدك؟

- نعم.

- ماذا حدث؟ هل هناك أي شيء أستطيع القيام به؟

- لا. لقد مات أبي. تُوفي الليلة الماضية، انتحر.

أغلق عينيه وسألها:

- ماذا تفعلين الآن؟

- لا أعرف. أنا فقط بالقرب من البحر. أنا فقط.. إنه شعور غريب أن تفقد والدك.. حتى لو كان "فريدون سعيد". تشعر بالبرد من الداخل.

- كنت أعلم أن هذا سيحدث عاجلًا أم آجلًا.

- لقد علمت ذلك أيضًا. لكن لا يزال الأمر مرعبًا.

- هل ترك لكِ أي شيء؟

- مثل؟

- مثل.. لا أعرف.. أ..

- رسالة؟

أجابت "ليلى":

- نعم. ترك خطابًا.

- نعم.. نعم.. ولكن لسبب ما كنت خائفة جدًّا من قراءته.. رميته في الماء.

- لا تبقي هناك لفترة طويلة. عودي إلى البيت. سأكون معكِ في الصباح.

- أأنت قادم إلى هنا؟

- نعم.

- الآن؟

- أحبك.

- أوه.. ليس عليك قول ذلك.

- أعرف.

- إنه أسوأ يوم لسماع ذلك.

- أنتِ تعرفينني، لا يمكنني تمييز التوقيت، وهل حدث أي شيء في حياتنا من الأساس كان من المفترض أن يحدث؟

- لا أعتقد ذلك.

قالت "ليلى":

- هل ستعيدني؟

- يمكن.. لكن أعلم أنه ليس من الممكن لنا أن نكون بالطريقة التي كنا عليها.

- ثق بي، أنا لا أريد أن أكون كما كنا.

عندما عاد إلى الشاطئ، وجد أن السياح غادروا منذ فترة طويلة. كانت الفنادق على طول الشاطئ تستعد لنزول الليل. كان الجرسونات مشغولين بوضع مفرش طاولة أبيض على الطاولات التي يحملونها إلى الرصيف. هناك ضوضاء البوق يرتفع من أقرب مطعم للفندق.

نظر "خليل" إلى أضواء "ميتيليني" بالطريقة التي كانت بها أضواء "أيفالي" منذ عشرين سنة، وأدرك في وضع غير مقصود أن المنفى الذي بدأ في طفولته كان يقترب من نهايته. كان مندهشًا لمعرفة أن السنوات التي قضاها في برلين- والتي كان يعتبرها منفى- هي مجرد جزء من منفاه الحقيقي. الآن فقط بدأ الجنود المرهقون من الحرب في رحلتهم إلى بلادهم.

وعرف "خليل" أن من دون موت لم تكن هناك الحياة.

بفضل الموت الكامن داخله، كان قادرًا على هزيمة مصيره. كان قد تمكن من تجاوز مصيره، بينما كان الراعي في وادي "بوتان" هرب منه. كان دائما بحاجة إلى الخوف من الموت الذي كان يحمله داخل قلبه. فمن شأنه أن يوفر كل خطوة شاذة اتخذها. هذا الخوف غير الأمين قد أرسله إلى المنفى، وبالتالي أطلق سراحه.

لكنه لم يعد بحاجة إلى الموت، لم يكن هناك شيء يمكن أن يعطيه الموت. كان كل من برلين ووادي "بوتان" بعيدين الآن، ولم يكن لديه أي خوف في قلبه. وبينما كان يراقب موجات البحر الأبيض المتوسط وهي تداعب الشاطئ، كان يشعر وكأنه يصرخ بالطريقة التي كان يصرخ بها جنود "زينوفون" المحظوظون عند وصولهم إلى البحر:

- البحر! البحر!

الفهرس

مكتبة Telegram Network 2020

إلى "چان"

الجزء الأول

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرين

الفصل الحادي والعشرون

الفصل الثاني والعشرون
الجزء الثاني
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الرابع عشر والنصف
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر
الفصل التاسع عشر
الفصل العشرين
الفصل الحادي والعشرون
الفصل الثاني والعشرون
الفصل الثالث والعشرون
الجزء الثالث
الفصل الأول
الفصل الثاني

الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر
الفصل التاسع عشر
الفصل العشرين
الفهرس